نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية

دكتور
محمود محمد محمد عمارة
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

دار التراث العربي

الطبعـــة الثانيـــة
مزيـــدة ومنقحة

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان للنهضة الحديثة آثار بعيدة المدى فى حياة الانسان •• ففى غمرة انبهاره بما حققت من تقدم فى مجال الاختراع •• نسى ربه •• وأدار ظهره لهدايته سبحانه •• فأنساه الله تعالى نفسه التى أسلم زمامهـا لآلة صماء •• فقادته الى حياة •• بلا حياة !

وبات على ما يقول الشاعر اقبال :

« فارغ الأكواب • ظمآن الشفتين • مصقول الوجه • مظلم الروح • مستنير العقل • كليل البصر • ضعيف اليقين • كثير البأس •• لم يشاهد فى هـذا العالم شيئا » •

* * *

وكان من نكد الدنيـا على المسلم ظنه أنه تقدم الغرب فى مجال الاختراع دليل على تفوقه فى باب الاجتماع •• فاتبع سننه شبرا بشبر •• وذراعا بذراع •• وكان ما كان •

وصحا النائم يوما على الحقيقة تأخذ بخناقه : فلم تزده الحضارة الحديثـة فى جانبيها المـادى والاجتماعى الا ضلالا ••

وكان من سخرية الأقدار أن قدمت له الدليـل من لدنها شاهدا على هـذا الضلال : فقد نشطت حركة البحث العلمى على خط مواز للنهضة المـادية ••

وعلى ضوء المنهج العلمى الحديث استيقظ العقل الذى أرادوا هزيمتـه •• استيقظ ليحاكم سدنـة هـذه الحضارة •• على ما قدمت أيديهم •• ثم ليعلن حكمه القاطع الشاهد بأن المدنية الجديدة لم تواكب مشاكله بالحل •• ولا أدواءه بالعلاج •• بل انها أضافت الى حمله أحمالا من العقد والفراغ •• حين لم تلب أشواق روحه الظامئة الى غذائها •• الذى لا تجده الا فى رحاب الدين ••

* * *

وكان رد الفعل عنيفا •• وبخاصة فى مجال الشباب الذين أرادوا تبديد طاقاته •• فجاءتهم القذيفة من منطقة الأمان •• وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا •• حير ظهرت بوادر الثورة على هـذه الحضارة ••

وكان للشباب المسلم موقفه بطبيعة الحال •• لأنه يشكل حلقة من هذه الظاهرة العالميـة •• وبدت الحاجة ماسة الى نظرة جديدة •• تساوق التطورات الجديدة •• لتأخذ الدعوة الاسلامية سمتها الى تحقيق أهداف الاسلام •

ان رد الفعل القوى •• من قبل الشباب المسلم كان نتيجة طبيعية لظروف غير طبيعيـة خلقتها المدنيـة الحديثة من وراء اتجاهها المـادى فى الحياة ••

وهـذه حقيقة لابد من التسليم بها أولا تسليما يقودنا الى الاتفاق على طريقة تكون أمثل الطرق للابقاء على هذا الشباب مرتبطا بالدين ••

ثم الأخذ بيد الحائرين فى رفق ولين •• لنصل معا الى بر الأمان ••

* * *

وهذه الصفحات التى نقدمها اليوم • هى محاولة للوصول الى هـذا الطريق الأمثل •• انها خطوات على طريق الدعوة •• لا تصوغ المنهج المثالى المرتقب •• لكنها جهد المقل يقدمه •• وفاء لدينه •• وأمتـه •• يضاف الى أمثاله من الجهود المخلصة المبذولة •• الرامية الى هدف واحد هو : التمكين للدعوة فى قلوب الجيل الجديد •

ولكن •• كيف السبيل الى هذا التمكين ؟

كيف نحتفظ بالجذوة متقدة فى قلوب تريد الأصلاح •• وفى نفس الوقت نسير بها فى الاتجاه الصحيح للبنـــاء لا للهدم •• وللتعمير لا للتدمير ؟

ان الاخلاص للدعوة وان بلغ درجة التشبع •• لا يبرر القسوة فى التعامل مع الآخرين •• ولا ينهض شافعا لاناس يسوقون الناس الى الجنة بالعصا •• أو يجرونهم اليها بالحبال !

ان الاسلام ينتشر فى بقاع الدنيا بقوته الذاتية •• وحجته القوية •• وبرهانه الساطع له من الجاذبية ما يقنع أعتى الجبارين بالدخول فيه •• بلا صراع •• لقد أسلمت قرية انجليزية بأكملها •• وبلغ اقتناعها بالاسلام حدا دعاها الى تخطيط القرية من جديد لتكون طبق مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم •• واستطاع عالم سودانى أن يدخل فى الاسلام ألفين من الأمريكيين فى قلب نيويورك[1] • وقديما وعلى أرضنا هـــذه الطيبة ـــ أسلم سحرة فرعون وهم أكثر من عشرة آلاف ـــ عن طريق كلمة طيبة كشجرة طيبة من قبل موسى عليه السلام !

* * *

والمعادلة الصعبة هنا ••

أن الاسلام خارج بلاده •• يمضى بلا عوائق •• ولا سدود •• بينما هو فى ظل دول اسلامية يعانى الأمرين •• من قبل أناس لا نشك فى اخلاصهم وولائهم لدينهم ••

لكننا نشك فى جدوى ما يثيرونه من قضايا جانبية وأمور ثانوية •• يديرون حولها حروبا طاحنة •• وكان الظن بهم أن يكونوا هناك خارج حدود بلادنا ليدعوا الى الله فى الأرض البكر •• قلوبا عطشى الى هداية السماء ••

أن الحماس الذى يتجاهل طبيعة الانسان قد يحقق نجاحا •• فى بعض المواقع •• لكنه ليس النجاح المـــأمول الذى يحسم القضايا ••

---

(١) مجلة الأزهر : شعبان ١٤٠٠ هـ .

ويقف بها فى مكانها الصحيح •• اننا بالقوة قد نكسر رجل أعـداء الاسلام ••

ولكن التجربة تقول :

ان كسر رجل واحدة من أرجل الحريش[1] لا يعنى هزيمتها •• ولسوف تعتمد على بقية أرجلها الأخرى لتكسب الجولة التالية !

***

وأعداء الاسلام يناهضونه بالأسلوب العلمى •• عن طريق الاقتصاد •• المؤدى الى السيطرة السياسية •• ثم فرض المبادىء الهدامة التى تصادف أنفسا مرهقة فى نواحيها الاقتصادية والسياسية •• فلا تملك الا التسليم •• وحتى اذا حاولت الفرار فلن تستطيعه !!

ومطلوب من رجال الدعوة أن يكونوا على نفس المستوى •• أن يعرفوا قوى الانسان ودوافعه •• وكيف يخطط الأعداء لتطويقها وابطال مفعولها ••

ثم يعيدوا حساب الربح والخسارة فى مجال الدعوة لتبدأ من جديد •• فى محاولة للتخلى من السلبيات والتركيز على الايجابيات ••

ان الحكمة والموعظة الحسنة ما زالت أمثل الطرق الى التأثير فى قلوب الجماهير الغفيرة •• هذه الجماهير الواقفة على برزخ : بين قلة شريرة من سلالة « المـلأ » الذين ناهضوا الرسالات •• وبين قلة من دعاة الاصلاح •• ممن ساروا على درب الأنبياء • وهذه الجماهير تخلط عملا صالحا •• وآخر سيئا ••

أى أن لديها قابليـــة الاصلاح •• والفســـاد ••

ورجال الدعوة مطالبون بجذبهم الى قافلة الايمان قبل أن تتخطفهم جنود الشيطان !

***

---

(٢) حشرة لها أرجل كثيرة .

ووسائل الأعلام المتاحة اليوم فرصة ذهبية بين يدى الدعاة الى الله .. يرسلون منها الكلمة الطيبة عبر الأثير .. فتؤتى أكلها ..

وانها لتذهب فى كل زاوية من زوايا العالم .. تنشىء قيــما وتمحو خرافات .. بل وتزلزل الأرض من تحت أقدام أعدائنا الذين نصدر الى شعوبهم هداية السماء .. بلا صدام .. وحيث لا تطولنا أيديهم .. ولا نقع تحت سلطانهم ..

* * *

وعلى مثل هــذه المعانى يدور الحديث على هذه الصفحات .. بيانا لقدر الانسان .. وطبيعة الدعوة .. وأهميتها .. وأهدافها .. ومسئولية الأمة فى شخص دعاتها .. وما تثمره الحكمة من نتائج طيبة تقطع السبيل على أعداء الاسلام الذين يخططون لنا بليــل ..

ويفرض علينا ولاؤنا لديننا ألا نهيىء لهم ثغرة ينفذون منها الى قلب الأمة ليقودوها منه الى واحة العدم ..

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ..

* * *

المــؤلف

هــذا الانسان :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاسلام • فكانت رسالته بعثا جديدا ولد به الانسان •• وكان قبل من الموتى ••

لقد استحال فى أذهان أكثر الناس أن يكون الانسان همزة وصل بين الأرض والسماء • ومن ثم •• فقدت ثقتهم به • واذا كان ولابد من وحى •• فعلى يد ملك من السماء •• أو جنى خارق القدرة •• أما الانسان •• فلا !!

ان البشرية التى هى من مقتضى الرسالة صارت مانعا وقف حجر عثرة فى طريق ايمان القوم ••

« وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا • أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون الا رجلا مسحورا »[1] •

وهكذا قالوا : انه بشر من البشر •• فكيف يكون أهلا للوحى ؟

واذا تطاول الى ذلك •• فليكن معه ملك يعتمد رسالته !! والا فهو مسحور •• سحرته الجن ••

واذن فهو على أى حال واقع تحت رحمة الملك •• ورحمة الجن معا ! ••

ولـــا جاء الاسلام تغيرت الصورة تماما ••

---

(١) الفرقان : ٧ ، ٨

فقد أخذ الانسان فى ظل الدين الجديد وضعه العتيد ..

أسجد الله له الملائكة .. ووقف منها موقف الأستاذ من التلميذ :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيــها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال أنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنــا ، انك أنت العليــم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لــكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعــلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »(٢) .

وبلغت الصورة تمامها حين وقفت الجن من الانسان ممثلا فى الرسول صلى الله عليــه وسلم نفس الموقف : موقف التلميذ من الأستاذ :

« واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لمــا بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لــكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليــم »(٣) .

فالجن هنا مصروفة بقوة أعلى كى تستمع القرآن ..

فلما أنصتت اليه على لسانه صلى الله عليه وسلم خالطتهم بشاشة الايمان . وتحولوا بسرعة الى عامل تحذير لقومهم ليؤمنوا به . فرارا من العذاب المرصود لمن كفر به ..

ومعنى ذلك كله .. أن صورة الملك .. وصورة الجن .. لتأخذ بالقرآن مكانها الحقيقى .. وينفرد الانسان دونهما بامتيازه الذى يقتعد به مكانا عليــا .. عند الله تعالى .. وفى نفس الوقت سيدا للكائنات

---

(٢) البقرة : ٣٠ — ٣٤ (٣) الأحقاف : ٢٩ — ٣١

جميعا •• بما منحه الله من طاقات تؤهله لقيادة الحياة •• وسوف تتقدم الحياة على طريق الرقى ••

وسيبقى الانسان دائما سيد الموقف •• وحادى القافلة •• وأستاذ الحياة •• والعنصر الذى لابد منه ولا غنى عنه •• وهـذا ما تثبته التجربة كل يوم عبر التاريخ :

« تستطيع الكاميرات المثبتة فى سفن الفضاء أن تحدد لنـا البيت الذى انفجرت فيه أنبوبة بوتاجاز ، ثم انطفأت فى نصف دقيقة فى حى شبرا • الى هذه الدرجة أصبح العالم كله مكشوفا مفتوحا • ولم تعد هناك أسرار ولم تعد هناك خصوصية • فكل أجهزة التجسس التى تدور حول الأرض • والتى يحملها الجواسيس فى جيوبهم قادرة على رصد حركات الناس وأقوالهم •• فلا السحب فوق الأرض تحجز شيئا ، ولا الجدران ولا الملابس ولا الزجاج • كل ذلك تحول أمام الأجهزة الدقيقة الى حواجز وهمية !

ولكن يظل هناك شىء هام جدا هو الانسان نفسه •• فمن المؤكد أن أقمار التجسس الأمريكية قد استطاعت أن ترصد انفجارا نوويا وقع فى جنوب أفريقيـا •• على أرضها أو بالقرب من شاطئها • وأن الانفجار خطير ••

ولكن لا تزال أمريكا فى حاجة الى معلومات تؤكد ذلك أو تنفيه •• هـذه المعلومات يجب أن تحصل عليها من الناس • ومن هنا كان من الضرورى للامريكان والروس وغيرهم من أناس بين الناس •• أى جواسيس بين الناس •

ولذلك فأكبر مصادر المعلومات وأخطرها هى التى يقولها الناس للناس فكل أجهزة التجسس تستعين بالناس على الناس • وتستخدم المـال والجنس والارهاب لكى تحصل على المعلومات بالذوق أو بقلة الذوق •

فأنت — أى مصرى — لا تعرف بالضبط لمن يعمل هـذا الخواجة أو غيره ولحساب من • فاليقظة واجبة والحذر ضرورى »[٤] •

الانسان اذن محور الدائرة • ونقطة الارتكاز • وحوله يدور البحث والنظر • واذا كان هو مصدر المعلومات بخيرها وشرها •• فان حسن استغلاله بمعرفة طاقاتـه واستثمارها أعون على الوصول الى سعادة الدارين :

« ليس هناك ما هو أصعب مراسا من الانسان •• فهو كثير المراء والجدل • سريع الانتقاص والعصيان •

شموس لا يسلم زمامه الا لهواه •• ومن هنا ترى مهمة الداعية شاقة : فقد يكون نقل جبل أسهل على المؤمن من توجيه انسان الى خطوة واحدة يكرههـا ••

ولكن •• ما أطوع الانسان لنداء قلبه اذا ناداه الى خير أو شر • وما أصبره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد • ونفقة المـال ! •• بل ما أجمل ذلك وألذه لديه »[٥] •

* * *

ما هو الانسان :

ان للانسان « وجودا طبيعيا وحيوانيا تجرى عليـه نفس تلك القوانين التى تجرى على سائر الطبيعيات والحيوانات فى هـذا العالم • وهذا الوجود يتوقف عمله على الأدوات والوسائل والأسباب المـادية والأحوال الطبيعيـة التى ينحصر فيـها سائر الموجودات الطبيعيـة والحيوانية ••

---

(٤) انيس منصور : الأهرام .
(٥) البهى الخولى : تذكرة الدعاة ص ٤٢

والوجهة الأخرى التى هى متجلية فى الانسان أنه من البشر • أى أن له وجودا خلقيا لا يذعن للطبيعيات بل يسيطر عليها • ويحكم فيها • حتى انه ليستخدم جسد الانسان الحيوانى والطبيعى كآلة من آلات العمل • ويحاول الاستيلاء على أسباب الدنيا الخارجية والتصرف فيها • وأما قواه العاملة • فانما هى تلك الصفات الخلقية التى أودعها الانسان من لدن ربه الكريم • وانما تحكمه القوانين الخلقية • دون القوانين الطبيعية •

وهاتان الوجهتان تتعاملان فى الانسان مشتركتين ••

وعلى الوجه العمومى يتوقف نجاحه واخفاقه • ورقيه وانحطاطه على القوى المادية والخلقية معا »[٦] •

* * *

الانسان فى جانبه المادى :

وقد زود الله تعالى الانسان فى جانبه المادى بطاقات هائلة • لو أحسن استغلالها لمصلحة الدعوة لحققت المعجزات ••

والوقوف على أهمية هذه الناحية يعين على فهم أوثق للانسان • يجعل من هدايته الى الصراط السوى ضرورة تحقق بها الدعوة سعادة الانسان •• قبل أن يستغلها شياطين الانس والجن فى تدمير الحياة •

لقد منحه الحق سبحانه من الحواس ما فاق به العقل المصنوع « الاليكترونى » فسجل بهذا الامتياز تفوق الانسان المطبوع •• على الانسان المصنوع :

١ — يستطيع الانسان العادى أن يدرك وجود وحدة من « اللينين » وهو مادة شديدة المرارة فى كل ٢٠٠ وحدة من الماء •

---

(٦) ابو الأعلى المودودى — الأسس الأخلاقية ص ١٨ ، ١٩

٢ — يستطيع تمييز نتوءات لا يزيد ارتفاعها على واحد على ٢٥٢ ألف من البوصة • اذا مر بيده على سطح ناعم •

٣ — يفرق بين ١٠٠٠٠ عشرة آلاف رائحة مختلفة •

٤ — يختزن فى دماغه العادى أكثر مما يختزن « الكومبيوتر » الحديث من المعلومات بـــ ٢٢٥ مليون مرة •

٥ — قـدرة الدماغ البشرى العادى على الاختزان تعـادل ١٠ عشرة بلايين وحدة من المعلومات • بينما لا تزيد قدرة آخر مبتكرات « الكومبيوتر » على ٤ ملايين وحدة •

٦ — أنه خزانة للمعلومات : فلو أراد انسان أن يسجل كل شىء عرفه خلال ٢٤ ساعة فقط فان ذلك يستغرق وقتا يقدر بمئات الأعوام •

ويوجد فى الدماغ من المعلومات ما يحتاج الى خمسة ملايين مجلد لاستيعابها •• يعنى أكثر مما تحويه كتب وسجلات ونشرات فى أضخم مكتبة فى العالم ! [٧] •

وقد تساءل المحرر العلمى للأهرام قائلا :

« هل يأتى يوم يتضاءل فيه اعتماد الانسان على ذاكرته ؟ وهل يستطيع الانسان يوما أن يلقى أوقاته ومواعيده وكل ما يريد أن يحتفظ به من معلومات داخل جهاز صغير يقوم بهذه المهمة ؟ وهل صحيح أن دور الذاكرة فى حياة الجنس البشرى سوف يتدهور مع التقدم العلمى الرهيب بحيث يصبح الذكاء أكثر أهمية من الذاكرة •• أو كما قال أستاذنا توفيق الحكيم أمس : هل ستوضع الكتب أمام التلميذ فى لجنة الامتحانات بحيث يستخدم ذكاءه ويلقى بعيدا ذاكرته » ؟

وقد أكدت الوقائع اليومية تفوق الانسان بطاقاته •• واحتفاظه بمكان الصدارة بذاكرته التى تزرى بمخترعات الحضارة الحديثة ••

---

(٧) مجلة البعث آلاسلامى سنة ١٣٩٩ ، بتصرف .

فقد نشرت « أخبار اليوم » تحت عنوان : « العقل العصرى •• هزم العقل الألكترونى واكتشف غلطة فى حسابات البنك الدولى »

كتب مصطفى عمارة : اكتشف ميشيل أمين سمعان مدير المتابعة بادارة التمويل الدولى بوزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية وشريف رشاد البدراوى الأخصائى بالادارة أكثر من نصف مليون دولار زيادة فى المبالغ المطلوب سدادها عن الفوائد المستحقة على مصر لدى البنك الدولى وذلك أثناء قيامهما بمراجعة كشوف حساب الفوائد التى وردت من البنك •

وعندما أرسلت وزارة الاقتصاد المصرية للبنك الدولى لتبين له خطأه أخذته عزة النفس لأنه ليس معقولا أن يهزم عقل البشر العقل الاليكترونى للبنك الدولى الذى يشغل نصف دور مبانى البنك ويضم أحدث الأجهزة الأليكترونية •

لكن أمام اصرار ادارة التمويل الدولى بوزارة الاقتصاد المصرية على صحة موقفها « تراجع » وقام البنك بارسال خطاب شكر للموظفين وتوجيه دعوة لزيارة البنك الدولى والتعرف على طرق سحب وسداد القروض •• كما قرر د • حامد السايح وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية منحهما مكافأة تعادل مرتب شهر وسفرهما لواشنطن يوم ٥ يونيو الحالى تلبيـــة لدعوة البنك •

ونشرت الأهرام أيضا فى ٣١ / ١٠ / ١٩٧٨ ما يلى :

وخبير الأرصـــاد الجويـــة الأمريكى « جوسوبكو » لاحظ خطأ « الكومبيوتر » حينما أشار الأخير الى أن الجليد سيغطى الولاية غدا •

وقد فات « الكومبيوتر » أن الرياح الثلجية التى اعتمد عليـــها العقل الصناعى ستمر فوق بحيرة هناك •• وتبعا لذلك لن يغطى الثلج الا المناطق الشمالية فقط من الولاية !

فالعقل الصناعى يعتمد على الحسابات الدقيقة •• ولكن تنقصه الخبرة والفن •• وهما من خصائص الانسن !

هذا الانسان المتميز بخاصة الابداع •• والعطاء ••

انه لا يعطى أرقاما صماء ٠٠ ولكنه يعلم ٠٠ ويربى ٠٠ ويعطى انسانا مثله تستمر به الحياة ٠ ومهما يكن من تقدم الآلة ٠٠ فانهـا صماء لا تسمع ولا تعى ٠٠ وسيظل الانسان أبدا وحده فوق المنصة : يحكم ٠٠ ويدير دولاب العمل ٠

ومن أعجب ما يروى فى امتياز الانسان القادر فى وعيـه ودقة ذاكرته وحدة ذكائه « ما يرويه أبو أحمد بن عدى الحافظ ، عن الامام محمد بن اسماعيل البخارى ، صاحب الجامع الصحيح ٠ قال : سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : ان محمدا بن اسماعيل البخارى قدم بغداد ٠ فسمع به أصحاب الحديث ٠ فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ٠

فعمدوا الى مائة حديث ٠ فقلبوا متونها وأحاديثها ٠ وجعلوا متن هـذا الاسناد لاسناد آخر ٠ واسناد هـذا المتن ٠ لمتن آخر ٠

ودفعوهما الى عشرة أنفس : لكل رجل عشرة أحاديث ٠

وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى ٠ وأخذوا عليـه الموعد للمجلس ٠

فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ٠ فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ٠ فقال : لا أعرفه ٠ فلم يزل يلقى عليه ٠ واحدا — واحدا ٠ حتى فرغ ٠ والبخارى يقول : لا أعرفه ٠ وكان العلمـاء ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم الى البعض ويقولون : فهم الرجل ٠

ومن كان لم يدر القصة ٠ يقضى على البخارى بالعجز والتقصير ٠ وقلة الحفظ ٠ ثم انتدب رجل من العشرة أيضا ٠ فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ٠ فقال : « لا أعرفه » فسأله عن آخر ٠ فقال : « لا أعرفه » ٠ فلم يزل يلقى عليه واحدا ٠ واحدا ٠ حتى فرغ من عشرته ٠ والبخارى يقول : « لا أعرفه » ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة ٠ حتى فرغوا كلهم من القاء تلك الأحاديث المقلوبة ٠ والبخارى لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعرفه » ٠

فلما علم أنهم قد فرغوا التفت الى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا • وصوابه كذا • وحديثك الثانى كذا • وصوابه كذا • والثالث والرابع على الولاء • حتى أتى على تمام العشرة •

فرد كل متن الى اسناده • وكل اسناد الى متنه •

وفعل بالآخرين مثل ذلك •

فأقر الناس له بالحفظ • وأذعنوا له بالفضل ••

قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هــذه القصة : قلت : هنا يخضع للبخارى •• فما العجب من رده الخطأ الى الصواب • فانه كان حافظا •

بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة »[٨] •

وهذا القلب البصير •• والحس الشاعر • لدى الامام البخارى يؤكد لنا كم يصنع الايمان بالانسان •• وكم تعطيه الصلة بالله عز وجل قــدرة فائقة •• انها الطاقة البشرية التى تقوى فاعليتهــا حين تتصل بالقوى القادر سبحانه وتعالى •• وبهذه الصلة يكون الانسان انسانا ــ يقول الندوى فى كتابه : « أحاديث الى الغرب » :

« ان مصير العالم لم يزل •• ولا يزال مربوطا بناصية الانسان •• وفيه سر سعادته وشقائه • فاذا وجد الانسان الحقيقى • وفقد كل ما يعتز به هــذا العالم من ثروة وزينــة وجمال • لم يكن رزءا كبيرا أو خسارة فادحة •• وكان وجود الانسان الحقيقى خلفا لكل فائت • وعوضا عن كل مفقود • وسدا لكل عوز •

وأعاد الانسان الى العالم بنشاطه وحيوته وانتاجه وعزيمته كل ما فقده هــذا العالم •• أجمل وأكمل •• وأكثر وأوفر ••

واذا خير هذا العالم أو من يهمه أمره بين الانسان من غير شىء ••

---

(٨) مقدمة فتح البارى ص ٤٨٧

وبين كل شيء من غير الانسان •• واستعمل عقله وكل ما وهبه الله من قوة الرشد والتمييز • لكانت خيرته — الانسان — من غير شك ومن غير تردد •

فالانسان هو الذى خلق له هـذا العالم • وبسببه نـال هـذه القيمة والشرف • ليس شقاء هـذا العالم فى فقد الآلات والوسائل •• ان شقاءه فى سوء استعمالها • وفى وضعها فى غير محلها • ان سبب كل نكبة نكب بها هـذا العالم فى تاريخه الطويل الملىء بالأحداث ، هو ضلال الانسان وانحرافه عن الجادة المستقيمة • وعن فطرته السليمة ••

أما القوى والوسائل فلم تكن الا آلات صـماء بريئـة فى يـده تمتثل أمره ، وتنفذ رغباته •

واذا كانت لها جناية فهى أنها ضمت الى هـذه النكبة سرعة فى الوصول والانتشار وسعة فى المساحة والامتداد ••

ان هـذا الكون الواسع ملىء بالأسرار ملىء بالعجائب •• وان جماله ليبهر الألباب ويثير الدهشة والاستغراب •• ولكنه اذا قيس بأسرار الفطرة الانسانية وعجائبها • وكنوزها ودفائنها • والى سعة القلب الانسانى وبعد أغواره ••

والى سعة الفكر الانسانى وسمو آفاقه •• والى لوعة الروح الانسانية وقلقها •• الى آماله البعيدة التى لا تكاد تنتهى — والى طموحه الذى لا يشبع ولا يرضى بأعظم مقدار من الفتوح واللذاذات والخيرات والمسرات ••

•• كان هذا الكون الواسع أمامه قطرة من بحر وذرة من صحراء •• وغاب فى سعة القلب الانسانى وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة فى البحار العميقة الواسعة ••

ان الجبال تتضـاءل أمام ايمانـه الواثق الراسخ •• وان النار لتنطفىء وتحقر نفسها أمام حبه الولوع الوهاج •• وان البحار لتخجل

أمام دمعة طاهرة انحدرت من عين الانسان خشية لله أو رحمة على ضعيف أو ندامة على تفريط ..

ان العالم بما فيه من خزائن وكنوز وثروات وحكومات لا يستطيع أن يقوم عقيدة الانسان التى لا تعرف الشك والضعف . والحب الذى لا يعرف المـادة والاشغال .. والعطف الذى لا يعرف الفوارق والحدود .. والاخلاص الذى لا يعرف الأغراض والمنافع .. والأخلاق التى لا تعرف المساومة .. والخدمة المخلصة التى لا تريد جزاء ولا شكورا » .

* * *

حاجتنـا الى هذه الطاقات :

وفى هـذا العصر الذى نشط فى الباطل وحشد حشوده .. وجند جنوده . فى محاولة لقطع الطريق على الحق .. لابد من الكشف عن هذه الطاقات المـادية والروحية واستثمارها ــ واحياء هـذه الملكات المعطلة .. واطلاقها فى كل اتجاه .. لتقول كلمتها فى معركة حيـاة أو موت .

ولن يصل المسلم بالعقل الذكى وحده الى ما يصبو اليه .. ولن يحقق به النصر المـأمول ..

فكم من فلاسفة عباقرة .. كانوا من الحقيقة على مرمى حجر .. لكنهم ضلوا وأضلوا .. وكم من قواد لا ينقصهم الاستعداد ولا التدريب .. بل كانوا يملكون أسباب النصر .. لكنهم لم يحققوه .. وظل الطريق اليه غائما .. لأنهم جميعا لم يستمسكوا بالعروة الوثقى .. لم يصلوا طاقاتهم واستعداداتهم بالمدد الذى لا ينفد .. بالمصباح الذى لا ينفد زيتـه .. ولا يخفت ضياؤه أبدا .. ولا تغنى عنه قوى الدنيا مجتمعة ..

لقد كان المغول اعصارا فتيا : احتل معظم دول أوروبا وآسيا والشرق الاسلامى .. لكنهم بادوا .. من حيث كانـوا قوة ماديـة بلا روح ..

واليابان التى بلغت فى التقدم العلمى شأوا بعيدا .. ما زالت تتلمس الطريق الى المعرفة التى تجعل لحضارتها قيمة .. وقد قرأنا أخيرا كيف كلفت مستشارها الصحفى بالقاهرة ليتعلم اللغة العربية تمهيدا لدراسة مقدمة ابن خلدون ونقلها الى اليابانية . وصولا الى ما فيها من معرفة تجعلها أقدر على تناول حياتها بأسلوب يحقق غاياتها البعيدة ..

* * *

وقد حان الوقت لنفسح الطريق الى معرفة أوثق بديننا الحنيف .. عن طريق دعاة من طراز خاص .. يمثلون الرائد الذى لا يكذب أهله ..

اننا لا نحتاج الى شرح جديد .. فقد من الله تعالى علينا به واضحا جليــا .. ولكننا فى حاجة الى دعاة بمنهج جديد يلائم روح العصر .. ويتجاوب مع الحياة المندفعة .. فى رحلة يزامل فيها انسان القرن العشرين .. ليصل به ومعه الى مرفأ اليقين .

لقد ملكنا زمنا قطعة من أوروبا « الأندلس » وكان من الممكن أن تكون — كما قيل بحق — نقطة ارتكاز الى بقية الأقطار هناك — ولكننا فقدنا الداعى .. الذى سكت صوته .. فاستشرى الفساد .. وضاع الفردوس فى غفلة الحراس .. وما أحوجنا الى وعى كامل بدروس التاريخ .. حتى لا يعيد نفسه مرة أخرى .

* * *

أهميــة الدعــوة :

من طبيعة الانسان الخضوع لمــا ألف من عادات .. غير شاعر بما يكتنفه من أخطار .. تفقده الألفة احساسه بها ..

ويرى المصلح الاجتماعى هــذا الانسان مقيدا بأخطائه .. التى يتسع مداهــا .. وتبرز آثارها .. فيخف لنجدته من هــذه الأخطار المحدقة به .. عندئذ تبدأ المعركة :

بين واقع متخلف يتشبث بوجوده ..

ومصلح يحاول الارتفاع به الى مستوى يليق بكرامة الانسان .. وتنتهى الجولة .. ثم تبدأ جولة أخرى فى سلسلة من المعارك تواكب الزمان على امتداده ..

ويشتد الصراع .. أو تخف حدته .. وتبدو الحاجة الى الاصلاح ماثلة .. ويتلفت الناس باحثين عن مرشدين ينهضون بمسئولية التوجيه .. وانقاذ عجلة الحياة من الوحل .. الذى غاصت فيه .. لتستأنف المسير الى أكرم مصير .

ويأخذ الداعية الاسلامى دوره المرموق بين رجال الاصلاح .. على قدر وظيفته التى لا تنحصر فى تلبية حاجات البشر المـادية .. وانما هى بالدرجة الأولى : تلبية أشواق الروح .. حتى تصفو من أكدارها .. لتأخذ الحياة شكلها المتسق مع حقائق الاسلام .. أى حتى ترتبط بمصدر وجودها الحقيقى .. وهو الاسلام .. الذى لا حياة لها فى غيبتـه ..

يقول ابن القيـم : « حاجة الناس الى الشريعة أعظم من حاجتهم الى التنفس .. فضلا عن الطعام والشراب .. لأن غايـة ما يقدر فى عدم التنفس : موت البدن ..

وأما ما يقدر عند عدم الشريعة : فساد الروح والقلب جملة .. وهلاك الأبد .. وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت »(١) .

ان وظيفة المصلح الاجتماعى قد تنتهى بتدبير ما يطعم الناس من جوع .. ويسترهم من عرى .. ولا عليـه بعد ذلك من جناح اذا ما استراح وأراح .. بل انه ليتقلب بين الناس راضيا .. مغتبطا بما حقق من نجاح .. فى ظل من احساسه بانجاز مهمته تلك ..

بيد أن الداعية الاسلامى لون آخر بين المصلحين ..

ذلك بأنه يحارب معركة حياة أو موت ..

ويحارب عدوا يتربص الدوائر الى آخر العمر .. وهو منه على

خط مواز .. فى معركة مستمرة .. بين الحق والباطل .. معركة لا تضع أوزارها فى جولة أو جولتين .. بل انها — كما سبق أن أشرنا — تسير مع الحيــاة على امتدادها .. لا يحيــا فيها طرف الا بموت الآخر ..

وبهذا الاستمرار تأخذ الدعوة أهميتها .. وتتضح أبعادها .. وحتى نستطيع تصــور مدى حاجتنــا الى الدعوة .. نطرح هــذه التساؤلات :

١ — الى أى شىء ندعو الناس ؟

٢ — ما هى طبيعة الدعوة التى نجعل منها قضية حيوية ؟

٣ — هل يعيش الاسلام وحده .. أم له أعداء يقعدون له كل مرصد ؟

فاذا أجبنا عن هــذه الأسئلة .. وصلنا بالاجابة الى تصــور كامل لأهمية الدعوة من وجهة النظر الدينية .. والانسانية معا ..

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ٣٢٨

الى أى شىء ندعو الناس ؟

الدعوة الى تثبيت دعائم الدين بكل فضائله .. وحمايتها من كيد الكائدين .. هو جوهر الرسالات منذ كانت هناك حياة ..

ومن ثم .. فهو هدف الاسلام الأكبر .. تشد اليه الرحال .. وتتمركز حوله الآمال ..

يقول الحق سبحانه : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الي أجل مسمى لقضى بينهم ، وان الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم »**(1) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم مأمور أن يدعو الى مثل ما دعا اليه الرسل من قبله : **« فلذلك فادع .. »** .

ثم هو مأمور كذلك أن يترجم الدعوة فى نفسه الى عمل وسلوك : « واستقم .. » .

ليكون بالتطبيق « أول المسلمين » .. على أن يدخل فى اعتباره أنه سيثير بهذه الدعوة أقواما يجدون فيها نهاية وجودهم .. وهم :

١ ــ المشركون .. الذين عز عليهم أن تهتز العروش من تحتهم .

٢ ــ مرضى القلوب من أهل الكتاب .. وقد أغضبهم أن تتخطاهم الزعامة الى غيرهم .

---

(1) الشورى : ١٣ ــ ١٥

ووضع النقط على الحروف من البداية •• وتحديد من هو العدو •• ومن هو الصديق •• أعون على بلوغ المقاصد •

* * *

والأمة على نفس الطريق :

والأمة الاسلامية تمضى بحكم الأسوة على ذات الطريق •• داعية الى الخير •• ناهية عن الشر : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله •• »**[٢] •

فالأمة الاسلامية معدة منذ الأزل لتقوم بدورها المرموق وهو : السير بالحياة الى كمالها •• وعلى كثرة الأمم التى عمرت الدنيـا •• فأنتـم •• بالذات : **« كنتم خير أمة •• »** •

انها لم تعش حياة تقليدية بين الناس •• لتجىء صورة عادية مكررة ••

بيد أنها أعدت •• وصنعها الحق تعالى على عينه صنعا •• هيأها للقيـام بهذا الدور •• بعيدا عن مألوف المجتمعات •• ثم جعل منها حادى الطريق : **« أخرجت للناس •• »** •

لقد كانت « طبعة » فريدة متميزة ••

لأنها تأمر بالمعروف •• وتنهى عن المنكر •• وتؤمن بالله تعالى •• ولا تقف بها الآمال عند حد •• ولا يهدأ منها البال يوما •• الا اذا هيمنت شريعة الله ••

* * *

---

(٢) آل عمران : ١١٠ .

وضوح الهدف الاسلامى

يقولون : ان الهدف اذا كان قويا •• وكان الشعور به واضحا صادقا •• فانه يصل بالأمة الى ما تصبو اليه من كمال ••

وبهذا المقياس : يبدو هدف الأمة على أوفى مدلول القوة •• والوضوح :

تزويد الحياة بقيم الحق والخير والجمال ••

ثم حراسة هذه القيم العليا أن تنالها يد بسوء ••

وبالتالى •• فان الاسلام وحده •• هو طريق الحياة •• لمن أراد الحياة •• وعكس ذلك تماما : ما يتشدق به أقوام يحاولون فرض أساليب للحياة وأهداف غائمة •• قلقة •• لقد خدعونا يوما فقالوا : ان الاشتراكية هى الهدف •• وأن العامل الاقتصادى هو المحرك الأول لنشاط الانسان ••

وقالوا أيضا : ان غريزة الجنس هى قطب الرحى •• وحادى الركب الى الأمن والاستقرار ! ثم وقعنا فى الكمين المنصوب زمنا ••

« صدقنا فلاسفة القرن السابع عشر مرة • فقامت الثورة الفرنسية وغيرها •• وسفكنا الدماء • وقامت الحروب • وعانى البشر فى سبيل نصرتها •

ثم اتضح عدم صدقها ••

وصدقنا فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين مرة أخرى •• فقامت ثورات أخرى • وحروب أخرى • وأهريقت دماء كثيرة •

ثم هاهو ذا العالم يقف فى معسكرين متكتلين •• يكاد وميض السلاح يبرز من حلكة التربص بينهما • ليس من السهل على البشر أن يعتنقوا فكرا ثم يتخلوا عنه • ليس ذلك أمرا نظريا • أو متعة ذهنية • ولكنه فى الحقيقة باب لاجراء بحار الدم • وللهدم والتخريب •

ولذلك فنحن نحتاج للقول الثابت الأكيد .. وأن نحتمى بأمر « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »[1] .

وذلك هو الاسلام .. فهو وحده الذى يخلص البشرية من عذابها .. بقدر ما يمنحها أسباب الأمن والرخاء ..

ذلك بأن : « الهدف الاسلامى يقوم على تحقيق ما نسميه بالمقاصد الشرعية . وهى تتلخص فى : التضامن فى تنفيذ ما أمر الله تعالى به . ومنع ما نهى عنه . سواء بما نص عليه فى الكتاب والسنة . أو بجلب المصالح . ودرء المفاسد التى تقتضيها كليات الشريعة »[2] .

ومعنى ذلك .. أن الواقع الذى كذب ادعاءات المذاهب الأرضية فيما زعمته من تحقيق سعادة الانسان .. يؤكد فى نفس الوقت نجاح المنهج الاسلامى فى تحقيق هـذه السعادة فى الدنيا والآخرة ..

ومن ثم فهو أولى بالاتباع .. لما فيه من عنصر الثبات المتأبى على التحريف والتبديل ..

انه يواكب الحياة .. والى يوم الدين .. لأنه تشريع خالق الانسان سبحانــه .. وأين منه مناهج متهافتة .. أفرزتها أمزجة قلقة حائرة .. حرمت عنصر الثبات والشمول .

وبهذا المفهوم يتضح لنا بكل جلاء الى أى شىء ندعو الناس .. اننا ندعوهم الى الحياة الحقيقية .. والتى يكون بها الانسان انسانا :

« يــا أيــها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرســول اذا دعاكم لمــا يحييــكم »[3] .

واذا كان الناس فى حاجة الى من يطعمهم من جوع .. ويرويهم من ظمأ .. فهم أحوج الى من يطهر قلوبهم من كدر : يأمرهم بالعدل ..

---

(١) د . مصطفى وصفى ــ الدستور الاسلامى ص ٨ ، ٩
(٢) المرجع السابق ص ٦ (٣) الأنفال : ٢٤

والوفـــاء •• والاحسان •• بقدر ما ينهى عن نقائضها •• وهذا هو دور الداعيـــة :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتـــاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى »(٤) •

أى أننا ندعو الى أمهات الفضائل التى هى فى الواقع أسباب الرقى المـــادى والأدبى للأمم ••

بقدر ما نشدد النكير على الرذائل المنكرة والمعرقلة لتقدم الانسان :

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيـــل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليـــهم الخبائث ويضـــع عنـــهم أصرهم والأغلال التى كانت عليـــهم »(٥) •

وبهذه الوظيفة بشقيها تميزت أمة الاسلام :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـــاء بعض • يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم »(٦) •

انهم يأمرون « بالمعروف » وهو ما تعارف عليـــه البشر من أمهات الفضائل •• ويحاربون كل ما يشوه وجه الحياة من المعاصى •• مما تنكره الفطرة السليمة ••

وهم فى أمرهم ونهيهم يأخذون موقفا عمليـــا •• فيطبقون أولا ما يدعون غيرهم اليه • وبسبب من ذلك استحقوا رحمة الله تعالى •

لأنهم كانوا بسلوكهم الملتزم الصيغة المثلى للجماعـــة الاسلامية • وعلى النقيض من ذلك — وبضدها تتميز الأشياء — يفعل المنافقون :

---

(٤) النحل : ٩٠

(٥) الأعراف : ١٥٧

(٦) التوبة : ٧١

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، أن المنافقين هم الفاسقون »(٧) .

فبينما تبدو الجماعة الاسلامية متماسكة مترابطة كالجسد الواحد : **« بعضهم أوليـــاء بعض »** .

يبدو المنافقون : **« بعضهم من بعض »** .

كلهــم أروغ من ثعلب ما أشبه الليــلة بالبارحة !

وأيضـــا :

فليس فيهم من فتى مطيع فلعنة الله على الجميــع !

فلا أخوة تجمعهم .. ولا احساس يلفهم فى حزمة واحدة .. الا احساس الكراهية والحسد .. كل واحد يعيش لنفسه .. مشغولا بذاتهـا .. ولو على حساب الآخرين .. وكما يقبضون أيديهم عن البذل .. يقبضون ألسنتهم أيضا عن النصيحة .. عن النقد الهادف لأمراض المجتمع .. والتنويــه بالفضائل الانسانية .. فعموا عن رؤية أخطائهم فى دوامة النفاق .. واتسعت دائرة الفساد فى مجتمع حبله على غاربه .. ولا يكتفى المرء فيه بادارة ظهره الى المعروف راضيا من الغنيمة بالاياب .. ولكنه يتخذ موقفا موغلا فى الانحراف حين يفعل المنكر .. ويفعله لا ينتهى كيده ..

ولكنه يسير فى الشوط الى منتهاه « فيأمر غيره » به !!

وتتم الصورة البغيضة اذا تمثلنا عداءه المستحكم للصيغة المثلى للحياة حين يبدأ دوره بالأمر بالمنكر غير مكتف بفعله .

كأنه لا يستريح الا اذا أخذت الحياة صورة باطنه المظلم الكئيب .. وبهذا الموقف « فسقوا » .. وخرجوا على المستوى الفاضل للانسان ..

---

(٧) التوبة : ٦٧

وتبدو مسافة الخلف واسعة جدا بين فريقين •• ومنهجين : بين قوم يبنون •• وآخرين يهدمون ! والبناء أصعب من الهدم ••

والناس أحوج الى من يجدد فيهم الآمال الكبار •• ليحيوا حياتهم على تقوى من الله ورضوان •• وعلى قدر أهمية هــذه الحياة تكون الحاجة ماسة الى من يجدد للأمة دينها وخلقها ••

وعلى مدى سعى المنافقين للفساد تظل الحاجة الى الدعوة المستمرة •• والمذاهب الحديثة لا تكفى للبناء •• بل انها زادت من شقاء الانسان • وأثقلت كاهله بهمومها ••

وعندما يعود الى ملكاته وحدها يسألها العون •• لا تستجيب طائعة لوضع هو أكبر من طاقتها •• ولابد من وصلها بخالقها سبحانه •• لتستمد منه الحياة •• وتلك مهمة الدعاة :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليــه اجتهـــاده

* * *

دعوتنـــا بين الدعوات :

وحتى بين الدعوات السماوية •• فان دعوة الاسلام تأخذ وضعا فذا فى : صفتها •• وقدرها •• وهدفها ••

فهى لا تدعو الى معروف محدد •• ولا تنهى عن منكر معين •• لكنها فى شمولهـــا تدعو الى كل معروف •• وتنهى عن كل منكر ••

ثم انها لا تخص أحدا ولا جنسا ••

وانما تأمر وتنهى •• كل الناس •• فى كل زاويـــة من زوايـــا العالم : اليوم •• وغدا •• والى يوم القيامة ••

وانها لتدعو كل من فى الأرض جميعا الى هدف بعيد •• يتخطى الأهداف القريبة التى توختها الرسالات السماوية قبلهـــا •• مما يفرض

عليها مسئوليات أكبر •• ويفتح أمامها أبوابا أوسع •• على قدر صلتها بكل الناس فى كل العصور •• واشتباكها مع الباطل فى كل ألوانه وأشكاله ••

ويتحدث ابن تيمية عن هذه الخاصية فيقول : « أنه صلى الله عليه وسلم • هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف • ونهى عن كل منكر • وأحل كل طيب • وحرم كل خبيث •• وأما من قبله من الرسل : فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات كما قال تعالى : **« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم »**[٨] •

وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث كما قال تعالى : **« كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة »**[٩] ••

وقال تعالى : **« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »**[١٠] ••

فقد أكمل الله لنا الدين • وأتم علينا النعمة • ورضى لنا الاسلام دينا •

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها حيث قال : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله •• »**[١١] •

وقد قال تعالى : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »**[١٢] •

ولهذا قال أبو هريرة : كنتم خير الناس للناس : تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى تدخلوا الجنة • فبين سبحانه أن هذه الأمة

---

(٨) النساء : ١٦٠ .
(٩) آل عمران : ٩٣
(١٠) المائدة : ٣
(١١) آل عمران : ١١٠
(١٢) التوبة : ٧١

خير الأمم للناس • فهم أنفعهم لهم • وأعظمهم احسانا اليهم • لأنهم كملوا أمر الناس بالمعروف • ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر حيث أمروا بكل معروف • ونهوا عن كل منكر لكل أحد • وأقاموا بذلك الجهاد فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم • وهذا كمال النفع للخلق •

وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف •

ولا نهوا كل أحد عن كل منكر •

ولا جاهدوا على ذلك •

بل منهم من لم يجاهد ••

والذين جاهدوا كبنى اسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم • كما يقاتل الصائل الظالم • لا لدعوة المجاهدين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كما قال موسى لقومه : **« يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين • قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون »**(١٣) •

وأين ذلك من وضع الأمة الاسلامية الممتاز •• والتى ترمى همتها الى ذلك الهدف البعيد ؟

فعندما تستقيم لها الأمور كدولة وحين يمكن الله لها فى الأرض • فان مهمتها فى تخليص البشرية من عذابها لا تنتهى على ما يقول سبحانه : **« الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »**(١٤) •

وتكشف الآية الكريمة عن جانب عظيم من جوانب الدعوة الاسلامية تقتعد به القمة العليا •• حين لا تجعل التمكن غاية تستمرىء فى ظلها الحياة •• بل انها بداية مسئوليتها فى السير بالحياة الى الأمام

---

(١٣) المائدة : ٢١ ، ٢٢ (١٤) الحج : ٤١

•• عن طريق احياء مبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » كرقابة عامة تهيمن على المجتمع •• وتمسك به أن يضل •

يقول الدكتور محمد سعاد جلال : السلطة والقانون مهما كان شأنهما لا يحققان غايتهما الكاملة من قيام الحق والعدل • والخير فى الأمة — الا اذا ساندهما على تنفيذ العمل المنوط بوظيفتهما رأى عام يقوم الى جانب السلطة والقانون حفيظا وحارسا أمينا على توفير السلطة • وحماية ارادة القانون فى الناس •

الرأى العام هو القوة الكلية للأمة الموجهة لحساب كل فرد فى أى موقع وفى أى ظرف عن أى خطأ • أو أى عدوان يرتكبه مستهينا بسلطة القانون أو فى غفلة عن عين السلطان • وهو بهذا الاعتبار أكبر عوامل الصيانة والضمان لانتظام مصالح جماهير الأمة وانتظام أجهزتها الادارية • وتحقق الأمانة فى أجهزتها السياسية • والحكومية • وردع البغاة المفسدين من الكافة الذين يبتغون الفوضى وانحراف الدولة عن طريق رشادها المستقيم •

وان قيام رأى عام فى الأمة يمثل غيرة كل فرد من جمهور الأمة على اقرار الحق • ورفض الخطأ والفساد من أى فرد • وغيرة المجموع الكلى متضامنين على ذلك وترسيخ هذا السلوك فى كيان الأمة • انما يستتبع تربية وطنية وأخلاقية • ويقظة ضمير وبعد نظر فى أعلى درجات الوعى • ونضج التحضر العقلى • والنفسى • ورشد المعرفة •

وأكبر مصائب الأمم المتخلفة وأكبر أسباب تخلفها فى الوقت نفسه حرمانها من وجود الرأى العام فيها حيث يتاح لكل مفسد أو مخطىء أن يحمل بيده معولا يهدم به ما شاء من بناء المصالح العامة لمجموع الأمة على مشهد من الجماهير العابرة فلا يجد من بينهم من يأخذ على يديه • وكأنه لا يهدم بناء يقع على رؤوسهم جميعا •

لقد أرادت حكمة الاسلام أن تصنع من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجود الرأى العام فى الأمة باعتباره أكبر حماية لوجود الأمة

الاسلامية • وتأصيل الأسباب لاستمرار بقائها وجعلتــه ــ هذا المبدأ الفعال ــ سببا للحكم للأمة الاسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس • فلم تكن الأمة الاسلامية خير أمة أخرجت للناس لأنهــا من آدمية أعلى نمطا • أو جنس من الآدمية التى خلق منها غيرهم من الأمم • ولكن لأنها أمة أقامت نظمها الاجتماعية والسياسية • وتقاليدها السلوكية وآدابهــا العامــة على أساس فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • فان العمل بهذه الفريضة الأشد تأكيدا • وتقررا فى القرآن والسنة • وأقوال السلف • هو الذى يجعل الأمة الاسلامية ــ حقا وصدقا خير أمة أخرجت للناس •

* * *

الدعوة حاجة نفسية :

الانسان مع نفسه الأمارة بالسوء •• فى صراع دائم •• وشد وجذب •• ولابد به من مواجهتها بالأمر والنهى ••

يقول ابن تيميــة : « كل بشر على وجه الأرض • لابد له من أمر ونهى ••

ولابد أن يأمر وينهى •• حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفســه وينهاهــا •• اما بمعروف • واما بمنكر • كما قال تعــالى : « **ان النفس لأمارة بالسوء** »[١٥] •

فان الأمر : هو طلب الفعل وارادته • والنهى : طلب الترك وارادته • ولابد لكل حى من ارادة وطلب فى نفسه • ويقتضى بهما فعل غيره • اذا أمكن ذلك • فان الانسان حى يتحرك بارادته »[١٦] •

* * *

وهى أيضا ضرورة اجتماعية :

ويشهد ابن تيميــة أيضا لذلك فيما قاله : « كل بنى آدم لا تتم

---

(١٥) يوسف : ٥٣

(١٦) الحسبة ص ١١٦

مصلحتهم — لا فى الدنيا ولا فى الآخرة — الا بالاجتماع على جلب منافعهم . والتناصر لدفع مضارهم .

ولهذا يقال : الانسان مدنى بالطبع . فاذا اجتمعوا فلابد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة . وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة .

ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد . وللناهى عن تلك المفاسد . فجميع بنى آدم لابد لهم من طاعة آمر وناه .

فمن لم يكن من أهل الكتب الالهية . ولا من أهل دين . فانهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود بمصالح دنياهم .. مصيبين تارة . ومخطئين أخرى .

وأهل الأديان الفاسدة من المشركين . وأهل الكتاب المستمسكين به بعد التبديل . أو بعد النسخ والتبديل . مطيعون فيما يرون أنه يعود عليهم بمصالح دينهم ودنياهم »[17] .

والنتيجة ؟

انه « اذا كان لابد من طاعة آمر ناه .. فمعلوم أن دخول المرء فى طاعة الله ورسوله خير له .. وهو الرسول النبى الأمى المكتوب فى التوراة والانجيل . الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ويحل لهم الطيبات . ويحرم عليهم الخبائث . وهذا هو الواجب على جميع الخلق »[18] .

* * *

(١٧) المرجع السابق ص ٨ ، ٩

(١٨) المرجع والموضع السابق .

طبيعة الدعوة

مما سبق تتضح لنا جوانب من طبيعة الدعوة الاسلامية .. التى نجعلها على غاية ما تكون الأهمية . ولكن الأمر قد يحتاج الى مزيد من الايضاح الذى يتيسر لنا من تأمل بعض آيات القرآن الكريم وهى ترمز الى مجموعة من الخصائص المميزة لها .. على النحو الآتى :

انها دعوة الى الله : **« وادع الى ربك »**(1) .

واذن .. فهى دعوة الى السلام .. والهدى السائر بالانسان على خط مستقيم .. وتوفر استقامته كثيرا من الجهد والوقت ..

عكس مذاهب البشر الذاهبة بالناس فى مسارب ملتوية . يضيع بها الوقت .. ولا تشرف على الغاية ..

والخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين ..

« والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(2) .

ثم هى أيضا دعوة الى الفضائل بهذه الصفة .. ولا تدخل فى اعتبارها حزبا .. أو مذهبا .. أو لونا وجنسا ..

انها واسعة سعة الكون .. عالمية .. تخاطب الناس .. خطابا صادرا عن رب هؤلاء الناس ..

* * *

واضحة كالشمس :

رأى بعض الزعماء(3) أنه لكى يظل الحاكم قابضا على زمام الأمر فى وطنه : أن يحيط نفسه بهالة من الغموض .. ارباكا للشعب الذى

---

(1) الحج : ٦٧ (2) يونس : ٢٥

(3) الجنرال ديجول .

ينظر اليه من خلال هـذه الهالة المصطنعة حوله فلا يكاد يعرف متى يرضى الزعيم •• ومتى يسخط ؟ وهذا ضمان لولاء الشعب له •• حين لا يعرف لحظة رضاه ولا سخطه •• فيظل منه على حذر دائما •• وبالتالى يرتبط به ••

وفوق هـذا التصور القائم على حظوظ النفس يعلن الرسول صلى الله عليـه وسلم : أنه جاء على المحجة البيضـاء : ليلها كنهارها •• لا ظهر فيها •• ولا بطن •

لكنها واضحة كالشمس : **« قل هـذه سبيلى أدعوا الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »**(٤) •

انها قريبة •• وفى متناول كل انسان مهما كان حظه من الثقافة كما يفهم من اسم الاشارة للقريب : **« قل هـذه •• »** •

ثم هو لا يفرضها فرضا •• لكنه يقدمها : **« على بصيرة •• »** وبيان وحجة واضحة غير عمياء »(٥) •

ثم انه على البصيرة •• متمكن منها •• راسخ القدم فيـها •• كما يفيد حرف الاستعلاء •• ويبلغ الوضوح منتهاه •• حين يحسم الموقف بينه وبين الوثنيـة فيعلن رفضه لها •• حالا ومآلا •• تحديدا لشخصية الدعوة التى لا تجامل على حساب الحق : **« ومـا أنـا من المشركين »** ••

* * *

أشرف وظيفة :

وفى معترك الحياة المزهوة بما تملك من مال وجاه وجمال •• تبقى الدعوة : أشرف وظيفة فى الحياة :

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين »(٦) وهذا الشرف العظيم لا يناله الا من سعى له سعيه :

---

(٤) يوسف : ١٠٨ (٥) ابو السعود .
(٦) فصلت : ٣٣

(أ) فدعا الى الله وحده •• « **دعا الى الله** » •

(ب) ثم ترجم النظرية الاسلامية **الى عمل وسلوك** : « **وعمل صالحا** » •• اى عمل •• وكان العمل مع ذلك صالحا •• فأخذ صورته الكمية والكيفية على شرط الاسلام ••

(جـ) ثم كانت الدعوة شعارا **يدل به ويزهو** •• فى معترك الحياة المزهوة المستكبرة ! •• « **وقال اننى من المسلمين** » •

* * *

دعوة يكون بها الانسان انسانا :

فعلى كثرة ما يتلاطم فى بحر الحياة من أمواج بشرية •• فان أكثر ما تراه •• صور •• وشارات •• **بلا مضمون** !

انى لأفتح عينى حين أفتحها
على كثير ولكن لا أرى أحد !

بل ان « الغربال » قد يحركه الناقد البصير •• فلا يبقى فيه شىء •• بعد أن سقطت الكيانات الضئيلة من بين الثقوب :

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا
لما تحصل شىء فى الغرابيل

ومع كل هذا •• يبقى الدعاة الى الله على السطح •• لا يسقطون •• بما يملكون من عناصر البقاء والخلود :

« والعصر • ان الانسان لفى خسر • الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »(7) •

وعناصر البقاء والخلود هنا :

(أ) الايمان الذى صار حقيقة فى النفس •• وصادف منها موقع الاقناع •• وصار جزءا من كيانها : « **آمنوا** •• » •

---

(7) سورة العصر •

(ب) «وعملوا الصالحات» ..

(جـ) وشكلوا بالايمان .. والعمل .. بالنظرية والتطبيق رقابة شعبية قوية .. تكمل الغير بالفضيلة والحق بعد كمالها فى نفسها .. وترتفع فوق مستوى الآلام .. بالصبر الذى تنداح دائرته .. ليلف الجميع .. ليصيروا به حرسا .. وشهبا تحمى الحق .. بالعمل .. لا بالكلام .. بحيث يصير الصبر والتحمل جزءا من فلسفتها فى الحياة — فلا ينـاله جزع : **« أن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون »**(٨) .

* * *

دعوة المتخصصين :

واذن .. فالدعوة بهذا المفهوم لا يتحمل تبعاتها الا قوم أعدوا لذلك وليست الى كل من هب ودب :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئـك هم المفلحون »(٩) .

ولا يمكن أن يكون الدعاة **« هـم »** بالذات **« المفلحـون »** دون غيرهم .. الا اذا كانوا على مستوى الموقف الصعب .. فهما وتحملا ..

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائـفة ليتفقهوا فى الدين ولينـذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعـلهم يحذرون »(١٠) .

(أ) « أى ما صح وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم . كما لا يستقيم أن يتثبطوا جميعا . فان ذلك مخل بأمر المعاش »(١١) .

---

(٨) النساء : ١٠٤
(٩) آل عمران : ١٠٤
(١٠) التوبة : ١٢٢
(١١) ابو السعود .

(ب) وعلى الأمة أن تكلف جماعة منها لتلقى العـلم فى رحلة تساوى فى أهميتها الرحلة الى جبهة القتال : **« فلولا نفر ٠٠ »** ٠

(جـ) بحيث تختار هـذه الجماعة من كل تجمع بشرى ٠٠ لتكون ممثلة لكل الاتجاهات ٠٠ حاملة فى نفس الوقت ما تمتاز به كل قبيـلة من خصائص لا تتوفر لغيرها ٠٠ حتى تكون على أوفى مدلول للاستعداد ٠٠قادرة بشمولها وتكاملهـا على مواجهـة كل الاحتمالات فى طـريق الدعوة ٠

(د) « أن يتكلفوا الفقاهة فيـه ٠ ويتجشموا مشاق تحصيلها ٠ فليست المهمة رحلة ترفيهية أو تثقيفية ٠٠ بل انهـا بالدرجـة الأولى « فقـه » يستبطن به الانسان ما وراء الأحداث والسطور ٠٠ بغض النظر عن ٠٠ « الشهادة » وبريقها !

(هـ) وأن يتوخى الداعية العائد من رحلة التدريب ٠٠ غايـة عليـا ، هى : الانذار ٠٠ أى تخويف قومه من مغبة الانحراف ٠٠ لا تدليلهم وهدهدتهم بمزيـد من البشريات يتسع بهـا الخرق على الراقع ٠٠ لابد من أن يكون صارما فى مواجهة أمراض قومه ٠٠ فلا يجامل ٠٠ ولا يضع « الدهان على الوبر » ٠٠ والا ٠٠ تأخر الشفاء !

(و) كما لا يجوز له التعالى عليـهم بالشهادة التى نالها ٠٠ بمرتبة الشرف ٠٠ الأولى ٠٠ مع التوصية بالطبع ٠٠ والتبادل — !!! — فهو لم يطلب العلم لذلك ٠٠ وانما طلبه ليعيش « بين » قومه ٠٠ متواضعا ٠٠ لا « فوق » رؤوسهم متعاليا ٠٠

(ز) ونجاحه فى ارشاد قومه آيـة صدقه ٠٠ فليبدأ بهم أولا ٠٠ **« لعلهم يحذرون »** ٠٠ ويحملهم الحذر على التوبة ٠٠ ثم الوقوف الى جانبه ٠٠ ليفتح بهم قلوب الآخرين ٠

* * *

كلما اتسعت دائرة الانحراف ٠٠ ومضت بالنـاس أهواؤهم فى كل اتجاه ٠٠ كلما جدد المشفقون على الدعوة هـذا التساؤل التقليدى :

كيف الخلاص ؟

وعلى يد من يكون ؟

وقد يعرفون الداء والدواء معا •• وبدل أن يعالجوا هـذا بذاك تراهم يسرفون فى اللوم ••

وانك لتسمع نشيجا وبكاء على مستقبل الدعوة يتحول الى معارك جانبية يتراشق الناس فيها بالتهم :

لأفراد يلقون التبعة على الحكومات •

والجمهور يحمل العلماء مسئولية الفساد •

بينما تلقى الحكومات اللوم — كما يلقيـه العلماء — على جمهور لم يتجاوب مع دعوة يحس بأهميتها وقدسيتها •

وفى دوامة العتاب المتبادل • تزداد موجات الحق انحسارا عن الساحة التى يتفرد بها المنحرفون •• والتى تدعو كل مسلم أن يتقدم ليقول كلمة مجدية •• بعيدا عن سياسة التبرير والاتهام •• ولعل فى كلمته جرعة من دواء تمهد السبيل الى الشفاء •

وفى كلمتنا هـذه نحاول أن نصاحب ابن عباس رضى الله عنه فى مشهد معبر عن أهم خصائص الداعيـة •• ونقطة البداية فى حياته •• ليتبين لنا تصور الداعيـة كما يجب أن يكون •• وكيف تبدأ خطة الاصلاح من داخل نفسه أولا ••

حتى اذا استكمل خصائصه الايمانيـة والنفسية • رشحه ذلك للقيـام بدوره فى تغيير الحياة طبق شرع الله تعالى •

* * *

نقطة الانطلاق فى الرحلة الطويلة :

عن ابن عباس : أنه جاءه رجل فقال : يا ابن عباس •• انى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر •

قال : أو بلغت ذلك ؟

قال : أرجو •

قال : ان لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله •• فافعل •

قال : وما هن ؟

قال : قوله عز وجل : **« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »**[١٢] أحكمت هــذه ؟

قال : لا ــ قال : فالحرف الثانى ؟

قال : قوله تعــالى : **« لم تقولون ما لا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »**[١٣] أحكمت هــذه ؟

قال : لا ــ قال : فالحرف الثالث ؟

قال : قول العبد الصالح شعيب عليه السلام : **« وما أريــد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه »**[١٤] أحكمت هــذه ؟

قال : لا •

قال له ابن عباس : فابدأ بنفسك[١٥] •

وفى هذا الحوار الذى دار بين ابن عباس والرجل • نلمح بعض خصائص الداعية النفسية التى ترشحه ليكون آمرا ناهيا •• والتى ترسم فى أذهاننــا صورته •• لنقيس عليها • ونقبس من شعاعها ومضات تعين الفاقهين على حسن اختيار الدعاة ••

فماذا فى المشهد من خطوط تحدد شخصية الداعية كما ينبغى أن يكون ؟ ••

* * *

---

(١٢) البقرة : ٤٤ (١٣) الصف : ٢ ، ٣ (١٤) هود : ٨٨
(١٥) تفسير ابن كثير لسورة البقرة .

الاحساس بالمسئوليـة :

ان هـذا الرجل الوافد على ابن عباس واحد من الشاعرين بعيوب المجتمع •• ثم بمسئوليته عن تغييره •• سيرا به الى الأفضل •

وبدل أن يحصر وظيفته فى اللوم والصراخ حزنـا على واقـع المسلمين •• فانه يرصد طاقته لينفقها فى دور ايجابى ينصر به دين الله ••

لكن الشوق العارم فى نفسه الى التغيير لا يعطيه صلاحيـة التوجيه •• قبل أن يعرف أصول هـذا التوجيه من الراسخين فيه !

ومن ثم •• فهو يسأل أهل الذكر فى شخص ابن عباس رضى الله عنه كى ينال بموافقته شرف الانتساب الى جماعة الدعوة الى الله •• ايمانا منه بخطورة الوظيفة التى لا ينبغى الخوض فيها الا باذن ممن يملكون الاذن •

ولا شك أن ابن عباس رضى الله عنه قد اغتبط لشاب مسلم تحركه الى الاصلاح رغبة مخلصة ••

هـذه الرغبة التى لم تجنح به الى أن يكون مهندسا •• أو طبيبا أو قائدا •• الى غير ذلك مما يتنافس فيه المتنافسون من شباب اليوم ••

لكن هـذا الفرح الغامر لم يحمل ابن عباس على أن يعطى الاذن سهلا ميسورا •• وهو رجل الدعوة الشاعر بخطورتها — لكنه يعقد للفتى المندفع امتحانا عسيرا •• حتى اذا تخطى عقبته •• سمح له من بعد أن يحمل قلمه •• وأن يهيىء نفسه للنزال !

أى أن الاحساس بالمسئولية كان قاسما مشتركا بين فتى لم يعط نفسه حق الدعوة •• بلا اذن •• وبين ابن عباس الذى لم يسمح له بخوض غمراتها الا اذا رشحته مواهبه لحمل السلاح •

* * *

أدب الحــوار :

ولقد كان منطق ابن عباس موحيا بأهمية الدعوة التى لا يطيق أعباءهــا الا أكفاؤهــا من الرجال •• حين قال بأسلوب الاستفهام المشبع بروح الاشفاق على هذا الرجل : أو بلغت ذلك ؟ !

ويجيب الرجل بأسلوب المريد المتواضع • العارف بقدر نفسه : أرجو ••

انه لا يحسم القضية بالتأكيد على قدرته •• بيد أنه ـــ وقد أحس من استفهام ابن عباس بأهمية الوظيفة ـــ يعلق الأمر بالرجاء أن يكون عند حسن الظن •• اذا ما أتيحت له فرصة العمل تحت لواء الدعوة ••

ربما قرأ هذا الفتى بعض كتب الدعوة ••

وربما جالس بعض العلماء وأفاد منهم بعض حقائق الدين والعلم •• بل ربما حصل على شهادة تمنحه حق الدفاع عن الدين ••

لكن ذلك كله لم يبح له ـــ من وجهة نظره ـــ أن يقول مثلا : نعم •• بلغت ذلك •• وأنا أحق بها وأهلها !!

* * *

الامتحان العسير :

ويواجه الرجل بمسئولية •• حين يضعه ابن عباس رضى الله عنه ازاء آيات من كتاب الله عز وجل •• ليرى نفسه فى مرآتها •• ثم يتحسس قدرتـــه بعد ذلك على النهوض بأعبائهـــا •• حتى لا يفاجأ بوضع لم يستعد له •• فتكون النكسة •• ويكون الندم •

ويتلخص مضمون الآيات الكريمة فيما يلى :

تشديد النكير على قوم يأمرون بالمعروف صاعدين بغيرهم الى الكمال •• بينما ينسون أنفسهم فلا يحملونها على هذا المعروف ••

وذلك عيب يجب أن يبرأ منه المؤمن بالذات بحكم ايمانه المانع من التغنى بالفضيلة قولا •• ثم مخاصمتها عملا •• من حيث كان ذلك سبيلا الى مقت الله وغضبه •

وهذا هو شعيب عليه السلام يبين لقومه أنه ينهاهم •• وهو أول المنتهين •• فرارا من عواقب وخيمة تترتب على هذا التناقض •• الذى لا يقتصر أثره على الداعية نفسه •• بل ان الدعوة لتخسر قضيتها حين لا يتمثلها رجالها • وكثير من الناس يصرخون فى وجوه دعاة غير ملتزمين •• لأنهم مثلهم فى حاجة الى التذكير ؟ !

والمفروض على الرجل أن يتحسس قواه النفسية والايمانية ليرى : هل هو قادر على الوفاء بمطالب الدعوة •• وفى مقدمتها أن يكون صورة لها •• ودليلا عليها ؟

وفى صراحة المؤمن الذى لا يخادع نفسه كان الرجل فى كل مرة يقولها : لا ! ••

فلم تشفع له نيته الخالصة • ولا رغبته الجامحة فى التصدى لعمل لم يرشح له • ولم يجنح به هواه الى التزوير والنفاق فى تقدير ملكاته • ولم يعلنها ثورة على ابن عباس لأنه لم ينجحه فى الاختبار ! •

بل انه عاد الى نفسه يستفتى قواه •• فكانت نقطة الضعف عنده •• لا عند ابن عباس ••

ويلاحظ أن ابن عباس لم يكن يسأله : أحفظت هذه الآية •• أو أفهمتها مثلا ؟

ولكنه كان يسأله : أحكمت هذه ؟

أعنى : أفهمتها فهما يقودك الى تطبيقها عملا وسلوكا ؟

فلم تكن تعنيه الذاكرة الواعية •• ولا العقل الذكى • بقدر ما يعنيه قدرة الرجل على تحمل أعباء الوظيفة •• والفرار من عيوب من تتحدث عنهم الآيات الكريمات •• ليسلم له موقفه المراد •

فالأهم من الحفظ •• والأهم من الحصول على المركز الممتاز فى سرد المعلومات •• الأهم من الحصول على درجة علميـة عاليـة فى الدعوة أن يكون قد وصل به ذكاؤه الى ثمرة هـذه الجهود كلها •• أن يكون عنوانا للدعوة •• يفعل •• ثم يقول •• وذلك هو موطن الأسوة الحسنة فى رسول الله صلى الله عليـه وسلم الذى أمر •• ونهى •• وكان أول الملتزمين :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين • لا شريك لـه ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »[١٦] •

ويعلن ابن عباس رضى الله عنه نتيجة الفحص : ابدأ بنفسك !

لابد من تدريب النفس أولا على العطاء •• والتخلص من عيوبها ليسرى فيـها التيار بعد ذلك •• ثم تنطلق عاملة آملة •• ورحم الله ابن عباس حين أهدى للرجل عيوبه •• فأعانه على التخلص منها •• فأراح الرجل • وأراح الدعوة ذاتهـا من عبء ثقيل عليها ••

اننا لا نريد وعاظا ينمقون الكلام •• ويتفوقون فى تصوير واقع الناس تصويرا بديعا مشوقا ••

لكننا محتاجون الى وعاظ يغيرون هـذا الواقع الى الأفضل دائما •• ولن تسلم لهم القدرة على هـذا التغيير الا اذا غيروا ما بأنفسهم لتستكمل عدة الكفاح •

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[١٧] •

ورحم الله المودودى حين يقول : « انه لا يكون القيـام بالدعوة الحقيقيـة بالمناظرات الخطابية والكتابية • فان هذه المناظرات طرق سطحية للدعوة • وضررها أكبر من نفعها • وانما الطريق الحقيقى المجدى للدعوة أن تكونوا مظاهر مجسدة • ونماذج حيـة للدعوة •

فحينما يقع عليكم نظر الناس فليعرفوكم من علو سيرتكم • وطهارة أخلاقكم أن هؤلاء هم السالكون لسبيل الله •

---

(١٦) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ (١٧) الرعد : ١١

وفى ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم بالنسبة للمؤمنين : « اذا رؤوا ذكر » .

وانه لمما يعرفه كل واحد منكم أن الرهط الذين كان أعدهم أكبر مزك فى العالم ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما أخرجوا الى ميدان الحرب والقتال . الا بعد أن مكثوا خمسة عشر عاما متوالية تحت مرحلة التثقيف والتدريب . فعليكم أن تدرسوا تفاصيل هذا الاعداد . وتتبينوا مراحله التدريجية . حتى تعرفوا أى صفات منها اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بانشائها فى أتباعه قبل غيرها . وأيها آخرها ؟

وأيها كانت مطلوبة فى أى درجة ؟ والى أى حد عمل على ترقيتها ؟ ومتى قيل للمتحلين بها : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »** ؟

فهذه الأسوة هى التى يجب أن تكون نصب أعينكم . تشأن اعدادكم أنفسكم وتزكيتكم نفوسكم »[١٨] .

* * *

من هنا يبدأ الاصلاح :

كثير من الدعاة يقتحمون مجال الدعوة بغير أسلحتها من الخلق القويم .. وتهذيب النفس . لتتمكن من مباشرة الاصلاح بنجاح .

ومن ثم يشكلون ــ كما قلنا ــ عبئا على الدعوة . وكان الظن أن يكونوا لها .. لا عليها .

ولو شغلت الانسان عيوبه فراح يقاومها فى محاولات للتخلص منها . لكان ذلك أولى وأجدى .

ولابد أن نبدأ بتزكية أنفسنا أولا .. فنطبق مبادىء الاسلام فى حياتنا الخاصة والعامة .

---

(١٨) تذكرة دعاة الاسلام ص ٣٧ ، ٣٨ .

فالذى يقول ولا يفعل : دليل حى •• متحرك : على أن ما يدعو اليه غير قابل للتطبيق !

ثم انه يصير حجة فى أيدى المنحرفين العابثين •• الذين يتخذون من أخطاء الدعاة ذريعة يدافعون بها عن خطاياهم ••

ويترتب على ذلك توريط الدعاة جميعا — جادين أو هازلين — ليعيش الحق فى عزلة •• أى فى أزمة ثقة بين الدعاة والناس من حولهم •• الذين لا يجدون حقائق الدعوة مترجمة بصدق فى رجالها المنتسبين اليـــها ••

وكان من الممكن أن نتفادى ذلك كله لو أننا وضعنا أقدامنا على نقطة البداية :

أن يعيش الداعية أولا حياته آخذا نفسه بالفضائل •• نائيـــا بها عن الرذائل ••

فاذا انصهرت نفسه فى دوامة المعركة • وأشرقت على عقله ووجدانه واردات الحق الأعلى •• فرق احساسه الذى صار أكثر شعورا بالحق وقد مارسه •• وأكثر ادراكا لقبح الباطل الذى ظهر له عواره ••

اذا تم له ذلك •• كان مدخلا كريما الى مواطن الاقناع فى قلوب النـــاس الذين ينسجون على منواله طائعين •

« فما لم تكن أقوال الداعية وأفعاله صادرة من محيطه الروحانى • منبعثة من حياته التى يحياها وراء المـــادة ••

كانت أقوالا غير مغموسة بالنور •• ولا تمس القلوب بشىء من أسرار الشفاء • نعم قد ينمق المتكلم كلامه •• ويوشى عباراته •• فيثير العواطف • ويحظى بالاستحسان •

ولكنه استحسان الزيف والتهريج :

أترى المريض يشفيه أن تقدم له علبة فارغة . وحقا ليس فيه شيء ؟ .. وحسبه أنها موشاة بالذهب .. وأنه حق مطعم بالعاج والصدف مثلا ؟

فهذه الربانية هي الدواء ..

فاذا خلت أقوال الداعيــة وأعماله منها .. فلا بركة فيها »[19] .

واذن .. فصلاح النفس هو السبيل الى اصلاح الآخرين ..

وعندئذ تكتسب المبادىء جاذبية تحتوى الناس .. فاذا هم على الطريق سائرون .

* * *

الى العــلاج :

يتساءل بعض الباحثين عن سر تأخر المجتمع ؟ [20] .

لـــاذا تأخر المجتمع الاسلامى اليوم ؟

الكتاب هو الكتاب ..

والسنة هى السنة ..

والناس هم الناس ! والحكومات لم تمنع أحدا من الوعظ والارشاد .. بل ان دلائل التوحيد صارت اليوم أظهر ..

وكان المـــانع من الاسلام قبل هو : جمود الفطنة .. وغلبة الشهوة .. فصار اليوم : قوة الشهوة فقط ..

بالاضافة الى أن العالم كله من قبل كان خصما للدعوة ..

لـــاذا تأخر الركب الاسلامى مع أن الزمن فى صالحه ؟

وكان الجواب : أن حماة الاسلام لم يصيروا عند حسن الظن بهم .. لم يعيشوا حقيقة الاسلام الذى هدى به الوثنيون وعباد البقر .. ولا نستطيع اليوم أن نهدى به أهله ؟ !!

---

(١٩) البهى الخولى ــ تذكرة الدعاة ص ٢١٣
(٢٠) الشيخ على الزنكلونى ــ الدعوة والداعية ص ٩٦ ، ٩٧

أى أن الأمة الاسلامية لم تكن مرآة مجلوة تنعكس على صفحتها حقيقة الاسلام •• وبالذات •• لم يكن دعاته على المستوى المطلوب •• علمـا •• وعملا •• وتضحية ••

وبعيدا عن الاسراف فى لوم لا غناء فيه •• نحاول أن نكتشف درجات السلم فى محاولة للصعود والاستعلاء فوق أهواء النفوس •• ليتلقى الناس الحقائق من أيدى دعاة يعيشونها فعلا ••

وهذا هو العنصر الأول فى « تركيبة الدواء » الناجع :

أن نصقل النفس صقلا يسلكها فى آفاق الاسلام الذى يصير عينها التى تبصر بها •• ويدها التى تبطش بها •• ولسانها المعبر عن آمال الأمة وآلامها •

ان « الداعية المشتغل بهدايـة الناس انما يفعل ذلك على ضوء من اصلاحه لنفسه هو ••

ومن أعجب النقائص أن هناك نفرا ممن يتسمون بالدعاة يحسبون أن ما يقولون لغيرهم من علم • انما هو أمر يخص المخاطبين فحسب •

وقد يعنى الناس أجمعين •• الا اياهم •

انهم نقلة فحسب •

انهم « أشرطة مسجلة » أو « اسطوانات معبأة » تدور بعض الوقت • ليستمع الناس اليها وهى تهرف بما لا تعرف • ثم تودع أماكنها لتدار مرة أخرى اذا احتيج اليها •

ان هذا الجماد الذى أنطقه الذكاء الانسانى • هو صورة للجماد الذى أنطقه الاحتراف • أو للانسان الكذوب • الذى ينصح الجمهور بأمور هو أبعد ما يكون عنها • وينفرهم من أشياء هو أقرب ما يكون اليها •

والدعاة الذين يحيون على هذا النحو • هم آفة الايمان • وسقام الحياة • ذلك بأنهم تكذيب عملى للكلام الذى يلقون • والمبدأ الذى اليــه يتجهون • وأنهم بمسلكهم هــذا دليــل على أن الشهوة تغلب العقل •• والهوى يهزم الرشد •

أى أنهم عذر قائم بين يدى كل مقصر • واياس من كل اصلاح »[٢١]•

* * *

مستويات الاصلاح :

لكى يضع الداعية قدميه على الطريق المستقيم الواصل به الى النجاح لابد له من أمور :

(أ) عقيدة راسخة • مؤسسة على البرهان اليقينى •

(ب) ملكة نفسية عميقة الجذور تتولد عن هذه العقيدة •

(جـ) ارادة تنبعث عن هــذه الملكة •• منطلقة على طريق الخير •

(د) كيان يهتز بأعمال البر والخير مدفوعا بهذه الارادة المحركة •

ويعنى ذلك أن الداعية — فى محاولة اصلاح نفسه — فى حاجة الى : عقيدة سليمة •

أخلاق فاضلة هى ثمرة لهذه العقيدة •

أعمال تصير بها الفضائل صورة مجسمة يراها الناس • ويعيشون فى ظلالها •

* * *

أهميــة الايمــان :

للايمان فى حياة الداعية وظيفتان :

(أ) تزويده بطاقة لا تنفد بكابريها الأحداث •

---

(٢١) الشيخ محمد الغزالى — مع الله ص ١٩٢ ، ١٩٣

(ب) تتفتح بصيرته ليكشف دقائق الحياة •• لينجح من بعد فى علاجهـا ••

(أ) عندما تستقر عقيدة التوحيد فى قلب المسلم — ومن يتصدى للدعوة بالذات — فانه يؤدى عمله على خير ما يكون الأداء •• فلا تدنيه رغبة • ولا تبعده رهبة • بل انه ينجى هواجس نفسه جانبا • راصدا وجوده كله للدعوة مهما كلفه ذلك من ثمن ••

فلا يثق الا به سبحانه • ولا يرجو الا اياه • ولا يتوكل الا عليه • ولا يفوض الا اليه •• ولا يطلب الا منه •

ومهما صال الباطل من حوله وكانت له الدولة فان قوة الأساس عاصمة له من التقهقر •• وعظمة الخالق التى تملأ وعيـه مانعة له من التردد والنكوص ، وفى هذا الصمود الثابت ما يكسر من طغيان الباطل المزهو بخيله ورجله •

قيل للامام أحمد رضى الله عنه : ألا ترى أن الباطل ظهر على الحق ؟

قال الامام : كلا ! •• ان ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى الى الضلالة • وقلوبنا بعد لازمة للحق » •

فما دامت القلوب مستعصمة بالحق فى أحلك الظروف • مستمدة من ايمانها طاقة تزرى بالباطل المزهو بنفسه •• فان ذلك يعنى هيمنة الحق •• وان خفت صوته فى زحمة التهريج والدجل ••

ويوم ترخى النفس الحبل للباطل فى عمليـة استسلام له تكون الهزيمة النفسية •• التى لا تحيق بالانسان الا فى غيبة الايمان ••

وانظر كيف تبصر النفس — على ضوء ايمانها بربها — ذلك المستقبل الواعد •• عندما ضرب الرسول صلى الله عليـه وسلم الصخرة فى غزوة الخندق •• فبصر على سنا من ايمانه عروش الظلم تتهاوى •• لتصبح ميراثا للمسلمين •• وعلى ذات الطريق •• سـار ذلك « البنـاء »

البسيط الذى قيل له — وقد رسا عليه مزاد بناء أحد المساجد — : ان صفقتك خاسرة ؟ !

فما كان جوابه الا أن قال : مستحيل أن أعمر بيته ويخرب بيتى !!

* * *

« ان مثل هـذا الايمان ضرورى لكل مسلم • وهو للداعى أشد ضرورة فى الوقت الحاضر • الذى ضعفت فيه كلمة الاسلام • وعلت فيه كلمة الكفر • ونضب معين الاسلام من النفوس •

وازدادت محن المسلمين • وصال الكفرة عليهم وجالوا • وصارت لهم دول كبار تحميهم • وتقذف بالباطل • وتثير الشبهات والشكوك حول أحقيـة الاسلام • وزاد من هـذه المحنة وجود أدعياء الاسلام وعلمـاء السوء • البائعين دينهم بدنياهم • والمتسترين وراء كلمة الاسلام يقولونها بألسنتهم • ويخفون وراءها باطلا كثيفا »[٢٢] •

ماذا يملك الداعية ازاء هذا الحشد الهائل من قوى الشر والعدوان ؟ لا شىء الا الايمان •• ونعما هو ••

وقد يحرز الباطل انتصارا فى بعض المواقع •• وقد يملك زمام المبادرة زعيم يقطع السبيل على قافلة الحق أن تسير بالناس فى الاتجاه الصحيح ••

ان الداعية ليواجه منذ اللحظة الأولى زعامات تملك ما تملك من وسائل القوة والتسلط ••

بينما لا يملك هو سوى الكلمة الهادية •• الموصلة بالقلب المؤمن بالله تعـالى ••

وهنا تتجلى مسئولية الدعاة حين يصير الايمان بالله تعالى فى حياتهم حقيقة تملأ الوعى وتأخذ على النفس أقطارها •• ليتسنى لهم

---

(٢٢) د • عبد الكريم زيدان — أصول الدعوة ص ٣٢٢ ، ٣٢٣

خوض معركة ان لم تحقق نصرا عاجلا •• فهى بلا شك مؤدية فائدة جليلة حين تحرج الطغاة الذين يستصغرون أنفسهم أمام عزل من السلاح يصمدون أمامهم فى ثبات واستعلاء ! ويصير الأمر على ما يقول على رضى الله عنه حين سئل : بم كنت تنتصر على عدوك ؟

فقال : كنت أقدم عليه •• وأنا أعتقد أنى سأغلبه ••

وهو معى يعتقد أنى سأغلبه ••

فكنت : أنا •• ونفسه •• عليه !!

أى أن المعركة وان لم تحقق نصرا تتحدث عنه أجهزة الاعلام •• لكنه بالدرجة الأولى هزيمة نفسية يحس بها العدو أمام صمود فى قلب رجل أعزل •• لا يعرف له سرا •• وسره المكنون •• هو الايمان بالخالق سبحانه وتعالى ••

ونتساءل الآن : هل كان لابد لأم عمار بن ياسر أن تموت هكذا على أيدى الجبارين الذين لم يرحموا أنوثتها ؟

هل كان لابد للصحابى الجليل « خبيب » أن يصلب هكذا •• ويستشهد على هذا النحو الفريد ؟

هل كان لابد من اصرار أبى ذر الغفارى على اعلان اسلامه ــ بينما نصحه الرسول بالكتمان ــ ثم يضرب •• ليعود الى مثلها •• ثم يعذب فى الله ؟

نعم •• كان لابد من ذلك كله تدبيرا حكيما من لدن حكيم خبير ليرى المشركون على الطبيعة أن طاقة جديدة ولدها الايمان بالله تعالى يمكن أن تكون أقوى من النار •• ومن الحديد •• وأقوى من الحيـــاة كلهـــا !!

❋ ❋ ❋

طبيعة الوظيفة :

على أن طبيعة الوظيفة تجعل من ايمان الداعية أمرا مفروغا منه :

ان الداعية الحق زعيم فى بيئتـــه ••

وللزعامة خصائصها •• وعليها كذلك مسئولياتها ••

ولو كانت وظيفته دعوة الناس الى عرس •• أو سياحة فى الأرض •• ترويضا للجسم •• وامتاعا للعين •• اذن •• لكانت الغاية قريبة المنـال •• وكان الطريق اليها معبدا ••

بيد أنه زعيم بكل ما تحمل الكلمة من معان :

زعيم يوجه القطيع الشارد الى الوجهة الصائبة •• على الخط المستقيم •• ومن ثم •• فهو يواجه منذ اللحظة الأولى زعامات الدنيـا التى تناوئه •• وتتصدى له • من حيث كانت دعوته تسير فى غير اتجاههم ان لم تكن تناقض أوضاعهم •• فاذا امتلكت هـذه الزعامات مقادير الأمور •• وسخرت لها طاقات الدولة •• فان المعركة تسير لحسابهم •• على حساب دعاة لا يملكون الا الكلمة •• فى مواجهـة السلاح • وهنا تكمن خطورة المسئولية الملقاة على عاتق الدعاة •• والتى تتطلب الايمان بالله تعالى على نحو يستعلى الدعاة به على ضعفهم • ويستمدون منه القدرة على تحدى هـذه الأخطار التى تقتضيها طبيعة وظيفتهم •• وتمدهم فى نفس الوقت بالصبر الجميل •

يقول الدكتور يوسف القرضاوى :

« الدعوة الى الله هى الدعوة الى دينه • واتباع هداه • وتحكيم منهجه فى الأرض وافراده — تعالى — بالعبادة والاستعانة والطاعة • والبراءة من كل الطواغيت التى تطاع من دون الله ••

واحقاق ما أحق وابطال ما أبطل •• والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • والجهاد فى سبيل الله •

وبعبارة موجزة : الدعوة الى الاسلام خالصا متكاملا • غير مشوب ولا مجزأ •

ومثل هـذه الدعوة الى هـذه المعانى ليست بالأمر الهين الذى يقابل بالسكوت والاغضاء • أو الموافقة والقبول •

وكيف تقبل هذه الدعوة العقول الجامدة أو القلوب المريضة أو القوى المتسلطة أو الفئات التى أضلها الهوى أو أغرقها حب الدنيا ؟

لهذا كان لابد لهذه الدعوة العظيمة الشاملة من دعاة أقوياء يتناسبون مع عظمتها وشمولها • قادرين على أن يمدوا أشعة ضيائها فى أنفس الناس • وعقولهم وضمائرهم •• بعد أن تشرق بها جوانحهم • وتستضىء بها حياتهم • ان هـذا الداعية المنشود هو القوة المحركة « الموتور » أو « الدينامو » لعملية الدعوة وحركة سيرها •

أن المشتغلين بالتربية والتعليم يقولون بعد دراسة وخبرة ومعاناة : أن المعلم هو العمود الفقرى فى عمليـة التربية •

وهو الذى ينفخ فيها الروح • ويجرى فى عروقها دم الحياة • مع أن فى مجال التربية والتعليم عوامل شتى •• ومؤثرات أخرى كثيرة :

من المنهج الى الكتاب • الى الادارة • الى الجو المدرسى • الى التوجيه أو التفتيش •

وكلها تشارك فى التوجيه والتأثير بنسب متفاوتة • ولكن يظل المعلم هو العصب الحى للتعليم فماذا يقول المشتغلون بالدعوة والارشاد فى شأن الداعيـة ومبلغ أثره • وهو العامل الفذ الذى ينفرد بالتأثير والتوجيه فى عملية الدعوة ؟ اذ لا يشاركه فى ذلك — عادة — منهج موضوع • ولا كتاب مقرر • ولا جو • ولا ادارة • ولا توجيه •

فالداعية وحده هو — فى غالب الأمر — الادارة والتوجيه والمنهج والكتاب والمعلم •

وعليه وحده يقع عبء هـذا كله •

وهذا يجعل العناية • بتكوين الدعاة • واعدادهم الاعداد المتكامل أمرا بالغ الأهمية • والا أصيبت كل مشروعات الدعوة بالخيبة والاخفاق

•• فى الداخل والخارج • لأن شرطها الأول لم يتحقق • وهو الداعيـة المهيـأ لحمل الرسالة »[٢٣] •

هذه الرسالة التى لا تقف به فقط عند حد الدفاع عن حقائـق الاسلام •• بل ينطلق ليأخذ موقع المهاجم أحيانا •• والفرق شاسع بين الموقفين : ان الدفاع موقف ضعيف • غايته أن يسامح الأعداء •• ويعفون •• ويتغاضون عما يظنونه عيبا فينا •• بقدر ما يكون الهجوم قوة تحصر الأعداء •• ليأخذوا هم موقف الدفاع •• فهو أليق بهم !

❋ ❋ ❋

من بركات اصلاح النفس بالايمان :

(ب) واذا كان الايمان بالله تعالى يمد الانسان بمثل هـذه الطاقة الدافعة •• فانه يزوده فى نفس الوقت بعين باصرة •• ترى وتحس •• وتدرك ما فى الطبيعة الانسانية من نوازع •• وما لها من عادات وتطلعات •• حتى اذا تقدم للعلاج كان مزودا بحكم ايمانه ــ ببصيرة تدرك بواطن الأمور •• فلا يخطىء الدواء موطن الداء • وهـذا معنى جدير بالتأمل :

فكون الايمان طاقة محركة •• قضية مسلم بها ••

أما كونه يزود الانسان بالحس المدرك لأبعاد الناس والأحداث ــ وهو دائما كذلك ــ فهو يحتاج الى التركيز عليه ايضاحا له •• ولفتا اليـه ••

وهـذه المعرفة المشتقة من الايمان ضرورة للدعاة فى تعاملهم مع جمهور لابد من معرفة طبيعته ونفسيته • ليتم التجاوب المطلوب •

وعلى هذا النهج سار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام •

« فالأنبياء لم يخاطبوا الناس الا على منهاج ادراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة • ولم يلتفتوا الى ما يكون نادر الأسباب

---

(٢٣) د • يوسف القرضاوى ــ ثقافة الداعية ص ٥ ــ ٩

قلما يتفق وجودها • فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات • ولا أن يعرفوه منزها عن جميع الجهات • فان ذلك كالممتنع بالاضافة الى من يشتغل بالرياضيات ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة •• ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة • وعجائب النبات والحيوان •

ومقادير سير الشمس والقمر •

وأسباب الحوادث اليوميـــة وقصص الأنبيـــاء والملوك والبلدان ونحوهـــا •

اللهم الا كلمات يسيرة ألفتها أسماعهم وقبلتها عقولهم يؤتى بها فى التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله •

على سبيل الاستطراد ••

ولهذا الأصل لمـــا سألوا النبى صلى الله عليـــه وسلم عن كميـــة نقصـــان القمر وزيادتـــه أعرض الله تعـــالى عن ذلك الى بيان فوائد الشهور فقـــال : ((**يسألونك عن الأهلة** ••))[٢٤] •

على الداعية أن يعرف ما هو من مقررات علم النفس : العادة طبيعة ثانيـــة •• واذن فمحاولة تخليص الانسان من عادة هـــذا شأنها •• أمر لابد له من الحكمة البالغة ••

لقد غرس هـــذه العادة فى نفس الانسان : مكان وزمان ••

وزمان هو تاريخ مجتمعه الذى يقرأه ويتمثله •• ويستلهمه حياته ••

فلنكن على علم بهذا فى محاولتنا الأخذ بيد الانسان لينتقل من عادات قديمة •• الى مستوى أفضل •• وذلك بالعلاج من الداخل •• ترسيخا للايمان بالله عز وجل •• والاحساس العميق بالثواب والعقاب •• ومعنى

---

(٢٤) الدهلوى ـــ حجة الله البالغة ج ١ ص ٨٦ طبعة المنيريـــة القاهرة ـــ والآية من سورة البقرة : ١٨٩.

الحيـــاة •• فاذا استقام ذلك •• جاء دورنا للنهى عن العادات المتأصلة •• والا فلو بدأنا من أعلى فنهينا عنها أولا •• دون التركيز على الباطن •• لمــا تم لنا ما نريد ••

فى صحيح البخارى عن يوسف بن ماهك قال : انى عند عائشة أم المؤمنين اذ جاءها عراقى فقال : أى الكفن خير ؟

قالت : ويحك وما يضرك ؟

قال : يا أم المؤمنين •• أرينى مصحفك • قالت : لم ؟

قال : لعلى أؤلف القرآن عليه فانه يقرأ غير مؤلف •

قالت : وما يضرك أيه قرىء قبل ؟

انما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل • فيها ذكر الجنة والنار •• حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام • نزل الحلال والحرام ••

ولو نزل أول شىء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا •

ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبدا • •

لقد نزل بمكة على عهد محمد صلى الله عليه وسلم وانى لجارية ألعب : « **بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** »(٢٥) ••

وما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده(٢٦) •

لقد لفتت أم المؤمنين رضى الله عنها نظر الرجل الى ما هو أدخل فى باب الهدايـــة وأجدى على الناس •• بعيدا عن أمور لا تخدم الاسلام •• ولا تصيب منه جوهره •• ولا تمضى طبق منهجه •• ثم كشفت له — ولنا — مسار الدعوة الأول •• لننسج على منواله •• فلم يشأ الحق سبحانه أن يخاطب الناس بالحلال والحرام أولا •• لكنه سبحانه •• وهو العليم ببواطن الأمور •• يرسى قواعد الدين

---

(٢٥) القمـــر : ٤٦

(٢٦) ابن تيميـــة — الحسبة ص ٩٠ ، ٩١

فى النفوس أولا •• ويقسم للقلوب من خشيته سبحانه ما يحول بينها وبين المعاصى •• ومن الاستعداد للطاعة ما ينهض بها للعمل الصالح •

حتى اذا توفر للمسلم ذلك •• كان عونا له على نفسه •• فاذا نهى عن عادة بعد ذلك •• سهل عليه الاقلاع عنها •• وقصة تحريم الخمر على المدى الطويل شاهد على ما نقول •• والا •• فسوف نقع فيما كان يمكن أن يقع فيه ذلك السائل لو تحملنا مسئولية الهداية دون تتبع ذلك المسار •• وحدث ما لا يكون فى حساب الدعاة الغافلين من الفرقة والشتات •• ولا يقتصر الأمر على معصية تقع •• وانما تتسع دائرة العصيان •• حين كانت صورة انكار المنكر ذاتها • منكرة !!

والمطلوب أن يكون « أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر » •

« لابد من العلم بالمعروف والمنكر • والتمييز بينهما ••

ولابد من العلم بحال المأمور والمنهى ••

ومن الصلاح أن يأتى بالأمر والنهى بالصراط المستقيم ••

وهو أقرب الطرق الى حصول المقصود »[٢٧] •

ولا يصل الداعية الى هذا المستوى الا بالايمان المانح رجاله بصيرة كاشفة •• تتلمس العلة •• وتجيد تركيب الدواء •• ليتم الشفاء باذن الله تعالى •

* * *

صوت من الماضى :

ولقد كان الحسن البصرى نموذجا للداعية المؤمن •• المجاهد الذى انعكس الايمان على قلبه طاقة •• وعلى عقله معرفة وبصيرة •• فحقق بالايمان أروع النتائج ••

يقول الندوى فى ذلك : « كان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع • ونفوذه فى القلوب والعقول • أنه ضرب على الوتر الحساس

---

(٢٧) ابن تيمية ـ الحسبة ص ٨٤

•• ونزل فى أعماق المجتمع •• ووصف أمراضه •• وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق •• والناصح الشفيق •

لقد كان عصره يغص بالدعاة والوعاظ •• ولكن المجتمع لم يخضع لأحد خضوعه للحسن ••

لأنه كان يفتح قلبه • وينزل فى صميم الحياة •• ويعارض التيار •• انه كان ينعى على الاخلاد الى الحياة •• والانهماك فى الشهوات •• وقد انتشر هــذا المرض فى الحياة •

انه كان يذكر بالموت • ويستحضر الآخرة • والمترفون يتناسون ذلك • ويعللون نفوسهم بالأمانى الكاذبة • والأحلام اللذيذة • ويتضايقون بذكر ما يكدر عليــهم الحيــاة • ويكدر صفو عيشهم • فكان دائما فى صراع مع الجاهلية ! •• والجاهلية لا تخضع الا لمن صارعها •• ولا تعترف الا بوجود الرجل الذى يحاربها •

وكان الحسن البصرى هو ذلك الرجل •

فعظم تأثيره • وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصى والحيــاة الجاهلية التى كانوا يعيشونها •

وانطلقت موجة الاصلاح قوية مؤثرة •

لأن الحسن لم يكن يقتصر على خطب ومواعظ يلقيها • بل كان يعنى بتربية من يتصل به ويجالسه • فكان جامعا بين الدعوة والارشاد • وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية • فاهتدى به خلائق لا يحصيهم الا الله وذاقوا حلاوة الايمان وتحلوا بحقيقة الاسلام • وقد صدق عوام بن خوشب اذ قال : « ما أشبه الحسن الا بنبى أقام فى قومه ستين سنة يدعوهم الى الله »[٢٨] •

* * *

(٢٨) رجال الدعوة والفكر ص ٧٩

أثر الايمان فى حياة المسلم :

وللعقيدة آثارها فى الواقع العملى ••

فاذا اعتقد المسلم أنه : انسان •• فهو اذن من أشرف المخلوقات ••

وفوق ذلك :

فهو ينسب الى خير أمة أخرجت للناس •• والى جانب ذلك : فهو لم يخلق عبثا وانما خلق لتحقيق غاية من أشرف الغايات ••

اذا اعتقد المسلم — أى مسلم — ذلك •• انعكس على حياته خيرا وبركة صار بهما على عمد من : الحياء •• والأمانة •• والصدق •

ولكل عقيدة من هـذه آثارها فى دنيا الناس • فشعوره بانسانيته • يترفع به فوق الدنايا ليظل محلقا فى الأفق العالى •• فوق مستوى الحيوان •• وشرف انتسابه للأمة يكون منه ومن غيره جماعة قويـة تدافع عن هـذا الشرف •• وتأبى — فى معركة القيـم — أن تسبقها دولة أخرى •• فتنهض وتتقدم •• ومتى أيقن المسلم بالآخرة وأنه لم يخلق عبثا •• حمله ذلك على تقوية علاقاته بالآخرين خوفا من الحساب • وأملا فى الثواب •• وحينئذ يصير وثيق الصلة بربه ••

وهذا الارتباط ينتقل بالداعية من دائرة العلم النظرى •• الى مجال الفناء فى الدعوة لتصير فى تقديره حياته ومماته ••

« ان العـلم وحده لا يكفى لتكوين داعية • والمعرفة وحدهـا لا تصنع داعيـة كذلك • لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف على أمتى : كل منافق عليم اللسان » •

ان العلم اذا لم يستند الى خلق يحميه من نزوات النفس وطغيان الشهوات • ويصونه عن الدنايا • وسفاسف الأمور •• يصبح كارثة • حين يوجه لغايات آثمة • أو يستغل فى مآرب خبيثة •

ان تنمية الاحساس بأن الداعية صاحب رسالة هى امتداد لوظيفة

النبوة ، ومسئوليتها — لذلك — مسئولية ضخمة • شرط أولى يجب أن نحرص على التمكين له فى فلسفة اعداد الدعاة •

ان الالتزام الدينى بالاسلام فكراً وسلوكا فى كل صغيرة وكبيرة مما يجب تمكينه تمكينا متأصلا فى أنفس الدعاة •

ومن الخطورة أن نقدم للناس دعاة يقولون ما لا يفعلون • أو يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم • أو ينهون عن المنكر ولا يتناهون هم عنه »[٢٩] •

واذا كنا — فى مجال التربية والتعليم — نشترط أن تكون معلومات المدرس أربى من ثقافة التلميذ •• ليتمكن من الامساك بزمام الموقف ••

فاننا فى مجال الدعوة نقرر جازمين :

لابد أن يكون ايمان الداعية فى قومه أقوى •• وزهده فى الحياة أظهر •• واستعداده للتضحية لا يقبل الجدل !

« لابد أن يكون الداعى الناهض بالأمة • الدال على طريق الخير — طريق الله — خبيرا بأحوال الأمة التى يدعوها • وبأمراضها النفسية والاجتماعية • وبطرق علاجها •

وهذا هو علم النفس الذى كان معتمد القرآن عليه فى تخاطب الأمم •

وأن يكون فوق مستوى الأمة التى يدعوها علما وذكاء وفصاحة • وبلاغة وعلو همة • وعطفا وحنانا • وجمالا فى الظاهر والباطن •

لأن الغرض أنه وارث الأنبياء • والقيم المشرف على الأمم • الآخذ بيدها الى السعادة •

فاذن لا يجوز أن يوجد خير منه •

---

(٢٩) د • محمد حسين الذهبى — مشكلات الدعوة ص ٢٧ ، ٢٨

وان وجد ذلك الخير فيجب أن يكون هو الوارث العظيم • لأن مخترع الكهرباء ومنطاد الهواء يقف عاجزا أمام قواد الأمم الحقيقيين •

وهذا هو ما نشاهده الآن :

فلم تر مخترعا اعتلى فى أمته على قادة الأمم وعظمائها المصلحين »[30] •

* * *

الأخلاق فى حياة الدعاة :

للايمان ثماره اليانعة فى حياة المسلم •• والتى تصير فى يد الدعاة أسلحة يصارعون بها الأحداث •• ويمهدون بها السبل أمام قلوب عليها أقفالها •• لتبصر الحق • وتؤمن به • وتعمل له •

واذا كان الحياء والصدق والأمانة من ثمرات الايمان التى تزدهر بها حياة الدعاة •• فان هناك ثمرات أخرى لابد منها كى يواصلوا المسير على طريق مفروش بالأشواك :

فالصبر خلق أصيل فى شخصية الداعية •• من حيث مرارة الحق الذى يدعو الناس اليه •• ويحملهم عليه • ومن ثم •• فلابد له من تحمل ردود فعل قوية من قبل العابثين •• واذا كان الداعية لا يعيش وحده •• بل ان له فى اللحظة التى يباشر فيها سلطاته أعداء يقعدون له بكل سبيل •• فلابد له من المصابرة •• ليكابر الناس والأحداث •• ويطاول هؤلاء الأعداء فلا يستسلم أمامهم أبدا ••

ويفصل المودودى أبعاد هذه المصابرة فى قوله : « والصبر للجهاد فى سبيل الله له عدة وجوه : منها الاحتراز التام عن أن تستعجلوا فى شأن من شئونكم • وتخطوا خطوة قبل أن يحين وقتها •

ومنها الظهور بالاستقامة والتجلد • وعدم التقهقر عند مواجهة الشدائد والمحن والعقبات •

---

(٣٠) الدعوة والدعاة ص ٥٨

ومنها ألا يسـاور قلوبكم اليأس والوهن فيـما اذا تأخر ظهور النتائج المرجوة لمـا قد بذلتـم من الجهود . وأن تظلوا تواصلون جهودكم على رغم هذا .

ومنها ألا تزل أقدامكم اذا ما عرضت لكم مواقع الخطر والمضرة والطمع أثنـاء سيركم .

ومنها ألا تفقدوا توازنكم الفكرى حتى فى أحرج وأقسى مواقع العواطف الثائرة . ولا تخطوا خطوة منفعلين بعواطفكم . قبل أن تقلبوا فيه وجوه الفكر والتأمل . ولا تعملوا عملا الا مع الهدوء وصحة العقل . وركود القلب . وسكون القوة الارادية .

ومن المعلوم أنكم ما أمرتم بالصبر فحسب . بل قد أمرتم معه بالمصابرة أيضا . وهى : أن الصبر الذى تسعى القوى المعادية فى سبيل غاياتها متسلحة به .. عليكم أن تتسلحوا به أيضا .. وتغدقوها فيه حتى تكسروا شوكتها وتخضعوها لأمر الحق .

ولذلك قال سبحانه وتعالى : « .. **وصابروا** » بعد أن قـال : « **يا أيها الذين آمنوا اصبروا ..** »(٣١) .

ان الذين تدعون القيام فى وجوههم ومقارعتهم لرفع لواء الحق . عليكم أن توازنوا بين صبركم وصبرهم .

فلعلـكم لا تجدون أنفسـكم جديرين بدعوى تسلحكم بعشر صبرهم . اقرأوا حوادث الحرب العالميـة الثانية وأهوالها . لتعرفوا مدى الصبر الذى كان يتظاهر به الألمـانيون واليابانيون والأمريكيون . و .. لاعلاء كلمة الباطل .. كيف كانوا يحرقون بأيديهم معاملهم ومصانعهم وبيوتهم ومحطاتهم التى بذلوا الأموال الطائـلة والجهـود المتتابعة لبنائهـا اذا اقتضت ذلك ضرورات الحرب .. وكيف يقومون

---

(٣١) آل عمران : ٢٠٠ .

باسلين مستميتين أمام الدبابات التي تدوس الجيوش القويـة تحت عجلاتها الحديدية »[٣٢] .

ويخلص المودودي الى ضرورة أن يتفوق المحقون في الاستمساك بالصبر لينتصر الحق .. بالاضافة الى ما يجب أن يتخلق به الدعاة من الايثار .. وحماس القلب وتعلقه المتجدد بالغاية النبيلة .. وهي : اعلاء كلمة الله تعالى .

* * *

درجات السلم :

ثم يلخص المودودى درجات السلم الصاعد بالداعية الى الكمال .. لتسلم له قدرتـه في النهايـة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك في قوله صلى الله عليـه وسلم : « أمرنى ربى بتسع : خشية الله في السر والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرة » ..

يقول عليـه الصلاة والسلام بعد ذكر هـذه الأوصاف اللازمة : « وأن آمر بالمعروف . وأنهى عن المنكر » .

فقد علمنا من هـذا أن أمة وسطا اذا أرادت أن تنصب نفسها لمهمة أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر يجب أن يكون كل فرد منها متحليا في حد ذاته بهذه الصفات .

فانه لا يمكن القيام بفريضة الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر . وتحقيـق مقتضيـات هـذا المنصـب الخطير الا بعد التحلى بهـذه الصفات »[٣٣] .

وهذه الصفات في مجموعها تشير الى أن مؤهلات الدعوة :

الخوف من الله تعالى خوفا يسقط من الحساب كل مغريات الحيـاة

---

(٣٢) المودودى ــ تذكرة دعاة الاسلام ص ٤٢ ــ ٤٤
(٣٣) المرجع السابق ص ٣٩

وشدائدها •• وفى ظل هـذا الخوف المطلق من الله تعـالى تنمو الفضائل العمليـة التى تقوى بها الشخصية الاسلامية :

توازن عاطفى •• وفكرى •• وارادى •• واقتصادى •• تكتسب به الثبات •

وقلب وسيع متسامح يستوعب حتى الذين ظلموا فى محاولات مكررة لاصلاحهم على أن تكون للفكر سبحاتـه •• وللعين تأملاتهـا المواصلة الى أعمق ما فى الحياة من أسرار تزيد من ايمانه بربه سبحانه وتعالى •

وعندئذ يبلغ الكتاب أجله •• ويحين الوقت ليحمل الداعية قلمه •• ويشحذ لسانه •• ليلزم الناس كلمة التقوى ••

*** * ***

الدعاة فى مواجهة الغزو :

اذا استكمل الداعية عدة الكفاح •• واستقامت نفسه على الطريق •• فان للدين فى عنقه دينا يفرض عليه أن ينزل الى معترك الحياة ليقول كلمة الحق •

والا فان السكوت فرار من المعركة يتحمل وزره مضـاعفا اذا ما تصورنا أن أعداء الاسلام لا يسكتون •• وانما هم على قدم وساق •• بالليـل والنهار يدربون شبابهم على النيل من الاسلام والكيد لأهله •• الى حد تصبح الدعوة فيه قدرا ومصيرا •

*** * ***

هواجس القعود :

بعض الناس ــ بحسن نية طبعا ــ يرى أن المهمة أكبر من امكاناتنا •• وفوق طاقاتنا •• فلا قبل لنا بها ••

وقد يقول البعض ان الواقع يغنى عن البيان •• فلا مبرر للكلام ازاء هــذا الواقع الصارم :

فالحريق المستعر •• ليس بحاجة الى خطيب يبين ثواب اخماده !

« فيستطيع الولد الصغير أن يقوم على ربوة وينادى : الحريق •• فيهرع الناس جميعا ••

والواقع أبلغ من ألف لســان •• وكلمة الحريق أبلغ من ألف خطبة ••

كذلك : اذا جاء الفيضان •• فانه لا يحتاج الى بلاغة الانسان فى تبيان آثاره وأخطاره لأنه بهديره واندفاعه ينبه النائم •• ويسمع الأخرس •• » •

لقد افترض الأستاذ الندوى ذلك الفرض فى محاضرة له •• لكنه هون من شأنه •• ذاكرا ما يتميز به الانسان من صلاحية الاعتبار •• وما يفرضه ذلك من دوام تذكيره •• استثمارا لهذا المعنى : « الله سبحانه وتعالى يمدح الانسان بهذه الميزة • فيثير فيه العقل الواعى • ويريــد أن يستخدم الانسان عقلــه ويقول : **« فاعتبروا يا أولى الأبصار »**(٣٤) •

ويقــول : **« ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »**(٣٥) •

وقد تكبر هذه الهواجس •• هواجس القعود عن البلاغ تحرجا •• وفرارا من التبعة •• ولكن المخلصين من العلماء يضعون النقط على الحروف •• برد هــذه الخواطر المستسلمة الى ابليس وجنوده •• تنفيرا منها ••

يقول ابن الجوزى : « وقد يلبس ابليس على الواعظ المحقق فيقول : مثلك لا يعظ ، وانما يعظ متيقظ • فيحملــه على السكوت والانقطاع • وذلك من دسائس ابليس لأنه يمنع فعل الخير ويقول :

---

(٣٤) الحشر : ٢.

(٣٥) آل عمران : ١٣.

انك تلتذ بما تورده • وتجد لذلك راحة • فربما دخل الرياء فى قولك • وطريق الوحدة أسلم •• ومقصوده بذلك سد باب الخير •

وعن ثابت قال : كان الحسن فى مجلس فقيل للعلاء : تكلم ، فقال : أو هناك •• أنا ؟ !

ثم ذكر الكلام ومؤنته وتبعته !

قال ثابت : فأعجبنى • قال : ثم تكلم الحسن : « واننا هناك !! يود الشيطان أنكم أخذتموها عنه •• فلم يأمر أحدا بخير ولم ينهه عن شر »(٣٦) •

فلم يكد ثابت يظهر اعجابه بوجهة نظر العلاء فى السكوت •• ايثارا للسلامة •• حتى عاجلهما الحسن بفصل الخطاب فى القضية ••

مبينا أن ذلك معناه : تنفيذ خطة الشيطان •• فى ترك الحيــاة تسير على هواهــا •• فلا أمر بمعروف •• أعنى لا تعريف بحقائق الفطرة •• ولا نهى عن منكر •• أعنى •• لا نقد لعيوب المجتمع •• لتظل البشرية على ضلالها وجهلها •• تتناوشها العلل التى تودى بحياتها !

وتلك غاية المراد فى مذهب الشيطان الرجيم !

ان المسافة بين واعظ اليوم وبين العصاة •• أقصر بطبيعة الحال من المسافة التى كانت بين موسى عليه السلام وبين فرعون ••

ومع ذلك أمر بوعظه : **« لعله يتذكر أو يخشى »**(٣٧) •

فلم الفرار ؟ ولم اليأس من روح الله تعالى ؟ !

بعض الناس يقول : ان الحريق •• اذا اشتعل ليس بحاجة الى مناد بالنجدة كما أشرنا آنفا فالأمر أبين من أى لسان !

---

(٣٦) تلبيس ابليس ص ١٢٥ ، ١٢٦

(٣٧) طه : ٤٤

وكذلك الانحراف •• فقد شاع وذاع •• وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس •• ويشهده الجميع ويكتوون بناره •• فلا حاجة بنا الى دعوة أو دعاة وكل يتولى اصلاح نفسه •• ويكفيه ذلك ! ••

لكن ذلك الاستسلام وان صدقت النوايا من ورائه يمكن للباطل •• الذى يبيض فى هذا الجو الموبوء الممهد لتطويق الحق فى النهاية •• ونندم •• ولات ساعة مندم !

يقول صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف • ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » •

« فى هذا الحديث بيان أن ترك هذا المبدأ يؤدى الى تسلط الأشرار على الأمة فى مراكز القيادة والادارة والتوجيه •• وفى تمرد المعتدى على نفوس الناس • وأعراضهم وأموالهم •

وليس للشر ولا للأشرار نهاية : فيعم البلاء • وتعجز الجماعة عن مدافعتهم بالقوة لتمكنهم فى الأرض •• فيلجأ خيارهم للدعاء فيخذلهم الله أيضا • لأنهم خذلوا أنفسهم باماتة المبدأ الذى جعل الله فيه حياتهم • والنتيجة : أن كل شر متوقع من تنفيذ المبدأ المذكور فأعظم منه مصيبة فى حياة الأمة الجبن عن العمل بهذا المبدأ الذى لا حياة ولا كرامة لأمة الا به »(٣٨) •

وما كان للأشرار أن يتسلطوا الا لأن الأخيار فرطوا فى جنب الله فسكتوا حيث تجب الدعوة •• ورضوا حيث يفرض التمرد •• وكان فى سكوتهم واستسلامهم تمكين للباطل •

ولم تكن نهايتهم تلك • ولا سقوطهم من عين الله بأمر جديد •• فقد ماتوا يوم كتموا شهادة الله •• وأكلوا يوم أكل الثور الأبيض !!

---

(٣٨) الدكتور سعاد جلال — الجمهورية — رمضان ١٣٩٩

ومعنى هذا أن الخيرين يفقدون وجودهم الأدبى .. ويغيب خيرهم فى دوامة الشر الزاحف .. جزاء وفاقا . لتقصيرهم فى بلاغ كان من الممكن أن يصد تيار هذا الشر فلا يتسع مداه .

ولكنه الباطل فرض كلمته . ورفع رايته . فى تربة خصبة سمحت له بالنمو :

وسوف يختنق العود الأخضر فى زحمة أعشاب طفيلية تمتص من حولـه رحيق الحيـاة .. ويتهاوى بنـاء أمة رفضت أن تأخذ بأسباب الصلاح .. فزحفت عليها علل الفساد ..

ألا و « ان بقاء الشرك والكفر فى الأرض يؤثر عاجلا أو آجلا على معاني الاسلام القائمة فى أى جانب من جوانب الأرض .

ولهذا يمنع الاسلام المسلم من البقاء فى ديار الكفر . ويأمره بالتحول الى ديار الاسلام . لئلا يفتن فى دينه . أو يمرض قلبه أو يسلب ايمانه . قال تعـالى : **« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا »**(٣٩) .

قال أهل التفسير فى هذه الآية : انها نزلت فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من اقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالاجماع .

وقال الامام مالك : « تهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهرا ولا يستتر فيها » .

وعلى هذا فقيام المسلم بدعوة أهل الشرك والكفر الى الله والى دينه يفيده .. ويقيه شرور الكفر »(٤٠) .

---

(٣٩) النساء : ٩٧

(٤٠) د . عبد الكريم زيدان ـــ اصول الدعوة ص ٣٠٨

أى أن الاسلام يطلب من رجاله ألا يستكينوا لظلم واقع بهم •• وعليهم أن يهاجروا بدينهم قبل أن يحصده الظلم المتربص •• الى أن تجىء الفرصة لضربة قادمة • تتوفر لها الظروف الملائمة •• وتلك الهجرة لون من التمرد يفت بلا شك فى عضد المعتدين ويكسر من غرور اعتدائهم بقضيتهم ••

فالدعوة واجبة حتى فى أحلك الظروف •• اللهم الا اذا خيفت الفتنة كما قدمنا •• وهذا الاحتياط نقطة قوة تضاف للاسلام الحريص على بقاء الأمة •• فليس من خطته أن يسود ولو على أشلاء الضحايا •• لكنه أحيانا وطبق القواعد العسكرية يهاجم •• اذا كان الهجوم محققا غايتـــه ••

وقد يتراجع • لا ضعفا ولا استسلاما • ولكنه يتراجع متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئـــة •• ليضرب فى الوقت المناسب ضربته الموجعة فى الصميم •

ان خواطر الكسل والقعود عن دعوة الخلق الى الله •• حملت ابن الجوزى — كما سبق — على ردها الى أصولها المستمدة من تلبيس ابليس •• ونخشى أن تكون هـــذه الخواطر اليوم من تلبيس جنود ابليس من الانس •• يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا •• وذلك فيما يلقونه من خواطر السوء اليوم قائلين : اطمئن أيها المسلم •• فالدين بخير •• وله رب يحميه !

يخاطبون المتحمس • لاطفاء جذوة حماسه بهذا • وبمثل قولهم أيضا : ارض بالأمر الواقع •• فلا أمل فى العلاج !

ويمكن — ردا على هـــذه الهواجس — أن نسأل أنفسنا عن معنى **السكوت •• سكوتنا عن الدعوة •• وما هى مضاعفاته ؟**

* * *

مضاعفات السكوت عن البلاغ :

اذا كان من مقررات العلوم العسكرية : اذا انتصر عدوك فلا تترك له الميدان خاليـــا •• فان من أصول الدعوة ألا نترك للمبطلين الميدان أيضا خاليـــا • لأن ذلك :

١ ــ تخاذل يتيح للباطل أن ينتفش •• وينفخ أوداجه ••

يقول ابن تيميـــة : « قد يذنب الرجل أو الطائفة • ويسكت آخرون عن الأمر والنهى • فيكون ذلك من ذنوبهم • وينكر عليهم آخرون انكارا منهيا عنه فيكون ذلك من ذنوبهم • فيحصل التفرق والاختلاف والشر • وهذا من أعظم الفتن والشرور قديما وحديثا اذ الانسان ظلوم جهول • والظلم والجهل أنواع :

فيكون ظلم الأول وجهله من نوع • وظلم كل من الثانى والثالث وجهلهما من نوع آخـــر • ومن تدبر الفتن الواقعة • رأى سببهـــا ذلك »[٤١] •

وربما يرضى البعض من الغنيمة بالاياب ـــ ويسكت عن الأمر والنهى فرارا من تبعة التورط فى تناولهما •

ولكن السكوت يقف به على مشارف خطر عظيم •• يوشك أن يكون به أعظم من الاثنين معصية ••

يقول ابن تيميـــة أيضا : « ان ترك الأمر الواجب معصية : فالمنتقل من معصية الى معصية أكبر منها ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، والمنتقل من معصية الى معصيـــة كالمنتقل من دين باطل الى دين باطل • وقد يكون الثانى شرا من الأول » •

ومن دلائل هـــذه الشرية احساس الباطل المطغى : بأنه يملك زمام الأمر فى المجتمع •• وبلا منازع يكسر شوكته •• بحيث لا يرى فى الساحة الا هو آمرا •• ناهيا •• وهـــذه خير دعاية تفتن الناس به •• نقدمها نحن خدمة له من حيث لا نحتسب !

٢ ـــ ثم ان السكوت يأس من رحمة الله •• ينافى الايمان بالله تعـــالى ••

---

(٤١) ابن تيميـــة ـــ الحسبة ص ٩١

٣ ـ وتخلص من بقية أمل يجب أن يبقى فى قلوبنا •• وبه تكون للحيـاة قيمة ••

٤ ـ غفلة عن التاريخ •• الذى يؤكد ضرورة الاصرار على الدعوة •• فهى تؤتى ثمارها ولو على المدى الطويل •• وفى قصة موسى وفرعون شاهد على ما نقول ••

لقد أمر موسى وأخوه عليهما السلام كما جاء فى الآيـات الكريمة : **« فقولا له قولا لينـا »**[٤٢] •

وحقق القول اللين ثمرته ••

١ ـ لم يبطش فرعون بموسى كعادته فى البطش بمخالفيه •

٢ ـ سأل عن رب موسى •• واتسع صدره لمثل هذا السؤال •• وكان قبل فى نظر نفسه : « •• ربكم الأعلى » •

٣ ـ اذا كان السيل لم يكتسحه •• فقد تخطاه الى غيره من السحرة •• فآمنوا •• وتحقق النصر الأكبر •• وتحت سمع الطاغية وبصره • وهذا نصر عزز الله به جنده •• بقدر ما سخر به منهم سخرية قلمت أظفارهم •

***

ظاهرة مرضيـة :

على أن العناد قد يرجع الى انحراف فى المزاج يمكن بالعلاج تلافيـه •• ونكون مقصرين بالسكوت عنه •• وقد ثار جدل كبير بشأن السوفسطائيين ـ وهم من الضلال بمكان ـ هل نتركهم وشأنهم •• فلا أمل فيهم ، أم ندخل معهم فى معركة فكرية نعينهم فيها على أنفسهم ؟ وتحرير الجواب فيما ذكره ابن الجوزى :

« رأيت كثيرا من المتكلمين قد غلطوا فى أمر هؤلاء غلطا بينـا ••

---

(٤٢) طه : ٤٤

لأنهم ناظروهم وجادلوهم • وراموا بالحجاج والمناظرة الرد عليــهم وهم لم يثبتوا حقيقة • ولا أقروا بمشاهدة •

فكيف تكلم من يقول : لا أدرى أيكلمنى أم لا ؟

وكيف تناظر من يزعم أنه لا يدرى أموجود هو أم معدوم ؟ !

وكيف تخاطب من يدعى أن المخاطبة بمنزلة السكوت فى الابانة •• وأن الصحيح بمنزلة الفاسد •

ثم انه لا يناظر من يقر بضرورة أو يعترف بأمر • فيجعل ما يقر سببا الى تصحيــح ما يجحده • فأما من لا يعترف بذلك فمجادلتــه مطروحة ••

وقد رد هــذا الكلام « أبو الوفا بن عقيل » فقال : ان أقواما قالوا : كيف نكلم هؤلاء وغاية ما يمكن المجادل أن يقرب المعقول الى المحسوس • ويستشهد بالشاهد فيستدل به على الغائب •• وهؤلاء لا يقولون بالمحسوسات فيم يكلمون ؟

قال : وهذا كلام ضيق العطن ولا ينبغى أن يوئس من معالجة هؤلاء :

فان ما اعتراهم ليس بأكثر من الوسواس • ولا ينبغى أن يضيق عطننا عن معالجتهم فانهم قوم أخرجتهم عوارض انحراف مزاج • وما مثلنا ومثلهم الا كرجل رزق ولدا أحول • فلا يزال يرى القمر بصورة قمرين • حتى أنه لم يشك فى أن فى السماء قمرين •

فقال له أبوه : القمر واحد • وانما السوء فى عينيك •• غط عينك الحولاء وانظر •

فلما فعل قال : أرى قمرا واحدا لأنى عصبت احدى عينى فغاب أحدهما •

فجاء من هذا القول شبهة ثانية •

فقال له أبوه : ان كان ذلك كما ذكرت فغض الصحيحة •• ففعل •• فرأى قمرين • فعلم صحة ما قال أبوه »[٤٣] •

ان المزاج المصنوع من انطباعات البيئة قد يفرض على الانسان موقفا معينا •• لا يمكنه من رؤية حقائق الأشياء كما هى •

وواجبنا أن ندور حول هذا الصنف بالعلاج المناسب •• لنصل الى نتائج محققة •• كما تشهد بذلك وقائع التاريخ ••

ولا عذر لنا فى التردد أو الكسل •• بعد أن اختصرت المسافات فى ضوء العلم الحديث وصار بامكانك أن تهدى آخرين بأيسر مجهود •• وأقصر وقت ••

أى أن القعود يحرمنا من خير كثير •• فى ضوء هذا التقدم العلمى الكبير •• يقول الندوى : « يستطيع الانسان اليوم أن يمد يد المساعدة والبر والمواساة الى أقصى رجل فى العالم •• ويسمع دقات قلبه • وخلجات نفسه • ويرى وجهه ويسمع كلامه • ويمنع الظلم — اذا أراد — وينصر المظلوم •• ويجير الجائع فى صحراء افريقية •

ويغيث الملهوف فى أقصى الصين ••

وقد زال كل مانع كان سببه جهل الانسان وضعفه والذى كان يتعلل به القدماء الضعفاء •• وحدثت كل آلة يحقق بها الانسان ارادته • ويصل بها الى غايته فى أقرب وأقل جهد • فلا عذر لطالب خير • ومحب للانسانية •• ومؤيد للسلام •• ولا عذر لفرد •• ولا لمجتمع •• ولا لحكومة » •

ان الحياة البشرية تبدو اليوم فاقدة المعنى :

فقد الدين سلطانه على النفوس ••

والحضارة فى غيبته تتجه الى الهدم بدل البناء ••

---

(٤٣) تلبيس ابليس ص ٣٩ ، ٤٠ .

وان ماضى الشرق ــ مهبط الرسالات والديانات العليــا ــ يستنهض همته ليستأنف سيرته المباركة ..

« فليتقدم العاملون للاسلام • وليتقذوها بالعناية والسعى حتى تؤتى أكلها يانعا شهيا •

ان مهمة هؤلاء العاملين أن يبعثوا فى الناس شعور التمرد على هــذه الحياة الفارغة الهازلة الزائفة •

وشعور الحسرة على ما فقدوه من قيم رفيعة •

حتى ينبعثوا مطالبين بالانسانية الضائعة المفقودة • والحيــاة الكاملة المنشودة »(٤٤) •

فليتقدم الدعاة ليضربوا والحديد ساخن .. والفرصة مواتية .. فقد يكون للسلبية لو حدثت فى عصور الاسلام الأولى ما يبررها :

من يقظة الضمير الموصول حينئذ بحقائق الاسلام • وما كانت تحفل به القلوب من تعظيم لشعائر الدين .. بحيث تبدو نزعات الانحراف غريبة .. وربما انحسرت بعد فورتهــا .. وبحكم الرقابة الواعيــة حينئذ ..

أما اليوم فقد :

(أ) ظهر الفساد فى البر والبحر .. وهذا ليس مانعا من الدعوة لكنه يصبح مقتضيا .. لأن العلة تستدعى الطبيب لا محالة ..

(ب) وأن سبل الاتصــال قد مهدت السبيل أمام الموعظة لتعبر القارات فى لحظات .. ولا يبقى الا أن نقول الكلمة .. لنضمن أثرها على أى حال .. فى ضوء هذه التسهيلات التى لم تتح للدعاة من قبل •

* * *

---

(٤٤) الندوى ــ حديث مع الغرب ص ٨٠

الدعوة فى رأى كاتب عصرى :

وربما كان من المفيد أن ننقل هنا كلمة لكاتب متحرر تقدمى يركز على أهمية الدعوة الى الله تعالى • والتى تفرضها أحداث العصر الذى نعيشه •• وهذه الدعوة هى نفس دعوتنا التى ننادى بها •• لكنها حين تجيء على لسان كاتب عصرى •• ويجرى بها قلم لا صلة له غالبا بمثل هـذه الدعوة — حين تكون كذلك — فانها تأخذ أهمية خاصة •• من حيث كانت شاهدا لا يبقى فى يد المجادلين شبهة ••

يقول الكاتب : « بدأت الدنيا تتغير ففى الستينات هب على العالم اعصار الالحاد والجنس والانحلال • حتى رأينا أكبر مجلة توزيعا فى العالم وهى مجلة تايـم الأمريكية تملأ غلافها بكلمات : « هل مات الله » ؟ ! وهى تعنى أن الايمان بدأ يتقهقر أمام الالحاد ويرفع يديـه فى الهواء مستسلما للسيد الجديد !

وامتلأت المكتبات بالكتب الاباحية والصور الفاضحة • واحتلت أفلام الجنس دور السينما • وسمعنا عن بعض المعابد فى أوروبا تحولت الى دور للرقص الخليـع • وضاعت همسـات المصلين فى ضوضـاء المخمورين !

ويبدو أن العالم بدأ يستيقظ ويرى الهاوية التى كاد أن يسقط فيها • عندما رأى أولاده الصغار يدمنون المخدرات • وطفلاته البريئات يتحولن الى غانيات ، عندما هبط مستوى الأخلاق الى الحضيض • وسيطرت المـادة على الأجيال الجديدة ، وفقدت القيـم سلطانهـا ، وشعر زعماء كل دولة أن بلادهم مهددة بالانهيار اذا استمر هـذا التدهور الأخلاقى •• وبدأت ترتفع فى أنحاء العالم ، شرقه وغربه ، صيحات تدعو الى العودة الى الله • وليس معنى العودة الى الله هو الصلاة فقط ، وانما معناه أن نعبد الله فى احترام آبائنا ، فى حب جيراننا ، وفى مراعاة الأمانـة فى أعمالنـا ، فى العطف على الضعفاء والمسـاكين ، فى العودة الى الأخلاق الفاضلة ، فى محاربة الانحلال ، فى الايمان بالبراءة والنظافة والمروءة والشهامة والصدق والشجاعة ، وكل هـذه الكلمات الجميلة التى نجدها فى القواميس ولا نجدها فى الحياة !

وسمعنا عن بلديات على شاطىء البحر تحتج على أن يستحم الرجال والنساء عاريات ، وتطلب منع هـذا الفجور العلنى • وسمعنا عن جمعيات تتألف فى أمريكا وأوروبا تطالب رجال الدين بأن يغيروا طريقتهم وأسلوبهم . وألا يكتفوا بالحكم والمواعظ ، بل ينزلون الى الشارع ويدخلون الى المراقص ومحلات اللهو ويحاولون أن يحتجوا على كل عبث بالأخلاق وأن يواجهوا الشيطان لا أن يطالبوا الناس بأن يبتعدوا عن الشيطان !

الذين عادوا من الاتحاد السوفييتى والصين أخيرا يقولون لنا ان الدين الذى دفن من عشرات السنين قد بدأ يبعث من جديد •• بعض جمهوريات السوفييت تهرب المصاحف والكتب المقدسة • الشبان الذين لم يعرفوا الله أبدا ، ولم يدخلوا طوال عمرهم مسجدا أو كنيسة أو معبدا بدأوا يسألون ويستفسرون ويحاولون أن يعرفوا ما حرم عليـــهم أن يعرفوه !

والأزمة التى يجتازها العالم اليوم هى التى جعلته يفتح عينيـــه ويرى الله !

الايمان هو الطريق الوحيد للسعادة وراحة البال والاستقرار »[٤٥].

ومعنى ذلك أن الزمن يعمل اليوم لحساب الدعوة التى بدت مهمة فى رأى الجميع • حتى التقدميين منهم ••

وقد أتت الرياح من الغرب بما تشتهى السفن أيضا — وخرجت المرأة الألمـــانية فى حملة ترفض تشبه الشباب بالنساء معلنة رغبتها فى الرجل الحقيقى •• وهو مثال آخر • يضاف الى غيره من الأمثلة الناطقة بالحق والتى تتقاضانا العمل •• فى ظروف مواتيـــة ••

نشرت جريدة الجمهورية فى ٢٠ أكتوبر عام ١٩٧٩ هذا الخبر :

« عبرت المرأة الألمـــانية قبل شهور ضمن مظاهرة واسعة نظمتها عن سخطها الشديد على الشباب الذين ينافسون المرأة فى استعمال

---

(٤٥) الأخبار — سبتمبر ١٩٧٩

وسائل الزينة ، وأدوات التجميل •• وقد خرجت — الألمانيات — الى الشارع وهن يحملن اللافتات التى كتب عليها عبارات شديدة اللهجة منها :

« نحن لا نريد الشباب المائع •• نحن نبحث عن الرجل الحقيقى بمظهر رجولته » ••

و « سئمنا رؤية الشباب المائعين » ••

وعن هذه اللافتات التى رفعنها فى هذه المظاهرة فقد حملن فى المؤخرة تابوتا لمثل هؤلاء الشباب ودفن التابوت فى المقبرة ليجسدن بذلك عزمهن على محو التخنث من الوجود •

وقد قمن بتشييع تلك الجنازة الوهمية بعد الطواف بها فى الأماكن التى تكثر فيها أندية وملاعب الشباب •• وتصدرت هذه المظاهرة فتاة جامعية تدرس الفنون التشكيلية تدعى « كريستن لانشر » وهى فتاة جريئة قالت فى حديثها مع الصحفيين : « لا أعلم لماذا يصر بعض الشباب على التشبه بالنساء •• نحن النساء سئمنا هذا المظهر المتخنث الذى يبدون به •• اننا نريد رجالا حقيقيين وشبابا واعين •• لا نريد من هؤلاء سوى الابتعاد عن وسائل التجميل والكف عن منافستنا » • هذا هو رأى المرأة الألمانية •

وهو نفسه رأى ديننا المعبر عن الفطرة الصافية •• فلنقل كلمة الحق فى أنسب وقت تقال فيه ••

وليتقدم كل معنى بالدعوة ليلقى بثقله المادى والأدبى فى معركة مضمونة النتائج •

* * *

آيـــة بين فهمين

« عن جبير بن نفير قال : كنت فى حلقة فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليـــه وسلم • وأنى لأصغر القوم • فتذاكروا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

فقلت أنا : أليس الله يقول فى كتابه : **« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم »**[1] .

فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا : تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدرى ما تأويلها !!

حتى تمنيت أنى لم أكن تكلمت • وأقبلوا يتحدثون •

فلما حضر قيامهم قالوا : انك غلام حديث السن • وانك نزعت بآية ولا تدرى ما هى ؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان : اذا رأيت شحا مطاعا • وهوى متبعا • واعجاب كل ذى رأى برأيه • فعليك بنفسك • ولا يضرك من ضل اذا اهتديت »[2] .

لقد أخذ جبير بظاهر الآية •• والذى يفيد براءة المسلم من التقصير اذا هو كمل نفسه بطاعة الله تعالى ••

ولا يضيره بعد ذلك ضلال الآخرين المصرين على المعصية ••

والى جانب حداثة سنه التى تنهض شافعا الى جانبه • فان ما ذهب اليـــه •• هو ما يشع من حول الآية الكريمة فعلا •• وقد ذهب اليه كبار المفسرين من أمثال القرطبى الذى قال تعليقا على الآية الكريمة : « وظاهر هـــذه الآية الكريمة يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) المـــائدة : ١٠٥

(٢) تفسير ابن كثير عن تفسير الطبرى .

المنكر ليس القيام به بواجب اذا استقام الانسان ، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره » .

واذن .. فقد صدر الغلام الحدث عن رأى له اعتباره .. ولكن الأشياخ من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .. قطعوا عليه الطريق . لما يعلمونه من السنة الناطقة بتفسير الآية على غير هذا النحو .. وهو ما أتم به القرطبى نصه الآنف .. حين قال : « .. وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره لولا ما ورد من تفسيرها فى السنة وأقاويل الصحابة والتابعين على ما نذكره بحول الله تعالى »(٣) .

ومن ذلك ما « روى أبو داوود والترمذى وغيرهما من قيس قال : خطبنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : « انكم تقرأون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها : **« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم »**(٤) ..

وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الناس اذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه . أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » ..

وقد وضح صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث الشريف معالم القضية .. فلم يبق عذر لمتخلف .. أو ساكت عن الحق المضيع ..

وقد بنى القرطبى على هذا التوجيه قوله فى تعليقه :

« الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر متعين متى رجى القبول .. أو رجى رد الظالمين ولو بعنف .. ما لم يخف الآمر ضررا يلحقه فى خاصته .. أو فتنة يدخلها على المسلمين .. اما بشق عصا .. واما بضرر يلحق طائفة من الناس .. فاذا خيف هذا فـ **« عليكم أنفسكم »** محكم واجب أن يوقف عنده » .

* * *

---

(٣) القرطبى فى تفسيره للآية الكريمة .
(٤) المائدة : ١٠٥.

سلبية لا مبرر لهـا :

على أننا لو تأملنا ألفاظ الآية الكريمة فى ضوء قواعد السنة وما ورد بشأنها •• لتبين لنا معنى جدير بالتأمل ••

فـ « **عليـكم** » بصيغة الخطاب الذى يستحضر المخاطب مواجهة •• بالاضافة الى ما فيها من معنى الملازمة المفيدة افراغ الجهد فى اصلاح النفس وتكميلها بالفضائل •• دائما • فاذا تم ذلك بصدق واخلاص جاءت النتيجة سنة الهية لا تتخلف : وهو تقاصر أيدى أعدائكم عنكم •• ونجاتكم من كيدهم •• بحيث يخلو لكم الجو • بقدر ما يتوارى المبطلون ضعفا •• وحينئذ فليس مورد الآية أن يشتغل كل انسان باصلاح نفسه •• ولا عليـه من ضلال الآخرين ••

ولكنها دعوة الى اصلاح النفس بصورة جماعية تترك طابعها على البيئة كلها •• وحينئذ ترسخ أقدامكم على طريـق الحق •• بقـدر ما تزلزلون من أقدام أعدائكم •• الذين تمكنكم الطاعة من رقابهم •• بقدر ما تنجيكم من غدرهم ••

جاء فى تفسير ابن كثير للآية الكريمة ما يفيد هذا المعنى : « •• من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس • سواء أكان قريبا منه أو بعيدا ••

قال العوفى عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية الكريمة : يقول تعالى : « اذا ما أفسد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال والحرام • فلا يضره من ضل بعده اذا عمل بما أمرته به » •

ولعل هذا أساس ما ذهب اليه المرحوم الأستاذ البهى الخولى حين قال : « قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا عليـكم أنفسـكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم** » فان أكثر الناس لا يرى فيها الا أن يشتغل كل انسان بنفسه • ولا شأن له بضلال غيره •• فان هذا الضلال لا يضر الا صاحبه •

وهــذا التفسير من وسوسة الشيطان • وتقاصر الهمم كما قلنا • فانه يناقض ما ورد فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مناقضة صريحة • والقرآن لا يناقض بعضه بعضا : **« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »**[٥] •

وقولهم ان الضلال لا يضر الا صاحبه يناقض قولــه تعــالى : **« واتقوا فتنــة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »**[٦] •

ويمكن فى هــذا المقام ايراد الأحاديث التى تهدم هذا التفسير • ولكنا نكتفى بايراد هذه المناقضة •• وبتفسير الآية تفسيرا يستخرج المعنى من لفظها بدون تعسف ••

فالآية الكريمة من الوجهة النحوية مؤلفة من الأمر وجوابه •

فالأمر هنا هو : عليكم أنفسكم ــ بالاصلاح •

والجواب المترتب على هــذا الأمر هو : لا يضركم من ضل ••

والمقدمة أن نصلح أنفسنا بكل ما فى وسعنا من أسباب الاصلاح ••

والنتيجة أن هذا الاصلاح حصن لنا من كيد الأعداء •• فلا يستطيع هؤلاء الضالون أن يلحقوا بنا ضررا ما •• »[٧] •

واذن •• فنحن أمام أسلوب من أساليب الدعوة صارم • يرفض السلبية المستوحاة من التفسير الآخر • والمنقوض بالسنة المطهرة • كما جاء على لسان الصديق رضى الله عنه • وبمنطوق اللغة التى تكلف المجتمع أن يكون على مستوى رسالته : ملازمة لاصلاح النفس •• على نحو يحبط كيد الأعداء •• ويرد غدرهم الى نحورهم ••

وليس فى الآية الكريمة ما يحملنا على الفرار من الساحة •• اتكالا على أننا حققنا الهدى لأنفسنا •• وهو ما يوحى به ظاهر اللفظ ••

---

(٥) النساء : ٨٢ (٦) الأنفال : ٢٥

(٧) تذكرة الدعاة ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

بادى الرأى • ان حق المسرفين فى النصيحة لا يسقط • وان بلغوا القمة فأسرفوا وأعرضوا ••

وذلك قوله عز وجل : **« أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين • وكم أرسلنا من نبى فى الأولين • وما يأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزئون »**[٨] .

ان الأنبياء المبشرين المنذرين على مدار التاريخ وجدوا من الناس عنتـــا — وكان الظن بالناس أن يستجيبوا لمـــا يحييهم من عقيدة التوحيد •• وما قام عليها من نظام •• لكنهم أعرضوا ••

بل ساروا فى العناد الى منتهاه •• فاتخذوا الدعاة الى الله سخريا •• فكانوا منهم يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون ••

وكان ذلك ظاهرة اجتماعية بارزة واكبت الحياة ••

ومع رسوخ العلة •• وشيوع الداء •• فان حق هؤلاء الضالين فى الدعوة لم يسقط • وظلوا محتفظين به أبدا •• كما تشير اليـــه الآيات الكريمة ••

« قال قتادة فى قوله : **« أفنضرب عنكم الذكر صـــفحا »**[٩] : والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هـــذه الأمة لهلكوا •• ولكن الله عاد بعائدته — بفضله — ورحمته • وكرر عليهم ودعاهم اليه عشرين سنة • أو ما شاء الله من ذلك » •

وقول قتادة لطيف المعنى جدا •• وحاصله أنه يقول فى معناه أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم الى الخير والذكر الحكيم — وهو القرآن الكريم — وان كانوا مسرفين معرضين عنه ••

بل أمر به ليهتدى من قدر هدايته •• وتقوم الحجة على من كتب شقاوته »[١٠] .

---

(٨) الزخرف : ٥ — ٧ (٩) الزخرف : ٥

(١٠) ابن كثير فى تفسيره للآية الكريمة .

وأذن •• فلا عذر لعالم فى السكوت حتى فى أحرج اللحظات •• واذا لم تسعفه الكلمات فان اعراضه عن المعتدين •• حتى بامتعاض وجهه •• وتغير نبرة صوته •• والانتقال من مكانه •• كاف فى التعبير عن غضبه على قوم يحسون به هكذا فتنكسر شوكتهم بمقدار هذا الاعراض ••

يقول الحق سبحانه وتعالى : **« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين • وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون »**(١١) •

فاذا أحس الظالمون بعنفوانهم وسطوتهم •• وأملى لهم التسلط أن يستهزءوا بدين الله •• اذا سيطروا على الموقف كله •• فلا يجمل بالمسلم — وان لم يستطع وقف زحفهم — أن يستسلم لهم •• وقد بقى له موقف يسقط به العهدة عنه •• وهو أن يهب واقفا ثم يغادر المكان •• غاضبا •• معرضا •• على نحو يفهم منه رفضه لما يهرفون به ••

وهو موقف ايجابى لو التزم به المسلمون واحدا واحدا لأحدث أثره المطلوب •• وفى هذا يقول ابن كثير : « قوله تعالى : **« ولكن ذكرى لعلهم يتقون »**(١٢) •

أى : ولكن أمرناكم بالاعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه • لعلهم يتقون ذلك • ولا يعودون اليه » •

فالاعراض المسبب •• الواضح المحدد •• لون من النهى عن المنكر •• تصبح به الدعوة مستمرة أبدا •• حتى فى أحرج اللحظات كما قلنا ••

وبهذا الالحاح فى الدعوة يخرج الدعاة من العهدة •• الى جانب

---

(١١) الأنعام : ٦٨ ، ٦٩ (١٢) الأنعام : ٦٩

الاحتفاظ بالأمل فى الهداية باقيا أبدا .. ايمانا بفطرة الانسان المركوزة على حب الخير .. وان غاشيات الهوى المتراكمة لا تزيدنا الا مضيا فى التذكير .. لعل وعسى .. حتى ولو كان ظاهر الأمر يجعل الهداية امرا مستحيلا ..

يقول الحق سبحانه : « **واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا ، قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** »[١٣] .

فقد أنكرت فرقة على أختها فى الهداية دعوتها العصاة المعاندين الى هداية تكاد تكون مستحيلة الوقوع !

فأخبروهم بأن ذلك اعتذار الى الله تعالى يعفيهم من عقابه .. الى جانب أنه احتفاظ بالثقة المطلقة فى الفطرة الانسانية وما فيها من خير مهما كان شأن الانسان .. ذلك الخير الذى قد يعلن عن نفسه فى لحظة اليأس ..

« **ولعلهم يتقون** » ما هم عليه ويتركونه . ويرجعون الى الله تائبين . فاذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم »[١٤] .

واذا كان الصحابى الجليل « جبير بن نفير » قد أخذ بمظاهر الآية فوقع فيما لم يكن فى حسبانه .. وكانت البيئة صاحية .. سائرة على النهج .. تصحح مسار الحياة لتجىء طبق شرع الله تعالى .. فان أخشى ما نخشاه أن تصبح وجهة نظر « جبير » رضى الله عنه .. نقطة ضعف يستغلها الشيطان مع مرور الأيام .. بحيث تزين للناس سلامة القعود عن الدعوة .. وتحببهم فى العزلة سلامة للنفس .. وهنا مكمن الخطر الذى نبه اليه ابن الجوزى فى قوله الذى نقلناه آنفا . والذى يفرض علينا فهم آثاره وتلافى أخطاره .

---

(١٣) الأعراف : ١٦٤ ، ١٦٥

(١٤) ابن كثير فى تفسيره للآية الكريمة .

والشواهد القرآنية شاهدة على ضرورة التذكير .. وان لم يكن هناك أمل فى الاصلاح .. وفى هذا المعنى يقول الرازى فى تفسير قوله تعـــالى : **« فذكر ان نفعت الذكرى »**[15] :

« واعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الكل . فيجب عليه أن يذكرهم . سواء نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم والجواب أنه تعالى ذكر أشرف الحالتين ونبه على الحالة الاخرى . كقوله : **« سرابيل تقيــكم الحر »**[16] والتقدير : فذكر ان نفعت الذكرى أو لم تنفع .

وأجيب عنه أيضا بأن التذكير العام واجب فى أول الأمر . وأما التكرير فلعله انما يجب عند رجاء حصول المقصود . فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط . والتذكير المــأمور به هل هو محصور فى عشر مرات أو غير محصور .

والجواب : أن الضابط فيه العرف »[17] .

وفى موضع آخر يقول الرازى أيضا داعيا الى تعميم الدعوة لتؤدى دورها المقصـــود منها : « **اعلم أن الناس فى أمر المعاد على ثلاثـــة** أقسام : **منهم من قطع بصحة المعاد . ومنهم من جوز وجوده . ولكنه** غير قاطع فيه بالنفى ولا الاثبات . ومنهم من أصر على انكاره — أى المعاد — وقطع بأنه لا يكون .

فالقسمان الأولان تكون الخشية حاصلة لهما .

وأما القسم الثالث فلا خشيـــة له ولا خوف . فلما قال الله : « **فذكر ان نفعت الذكرى** » بين أن الذى تنفعه الذكرى من يخشى . ولـــا كان الانتفاع بالذكرى مبنيا على حصول الخشية فى القلب . وصفات القلوب لا يطلع عليـــها **الا الله وجب على الرسول تعميم الدعوة تحصيلا للمقصود . فان المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير . ولا سبيل اليـــه الا بتعميم التذكير** »[18] .

* * *

---

(15) الاعلى : 9 (16) النحل : 81
(17) حاشية الجمل . (18) نفس المرجع .

شبهة .. لا تصبر على النقد :

قد يقول قائل : ألا يكفى الوازع الأخلاقى دافعا الى الخير ؟ ألا يكفى أننا نصدق .. ولا نكذب .. ولا نخون ؟؟

أننا نفعل ما يجلب المصلحة .. وننفر مما يجلب العار .. ألا يكفى هـذا القدر لنلتقى عليـه جميعا .. دون الرجوع الى الدين .. لمـاذا الاصرار على التحرك تحت عنوان الدعوة .. وكان فى الامكان أن نلتقى على كلمة سواء ما دامت الأخلاق تأمرنا بما يأمر به الدين ؟

وتحضرنى ازاء هـذا السؤال صورة نشرتها الصحف يوما .. تبرز مشهد رئيس وزراء فى دولة أوروبية . وقد وقف ضمن طابور طويل مع بنى وطنه .. وكأى انسان عادى — ينتظر دوره فى الحصول على حظه من التموين اليومى .. وقد علق المحرر العربى المسلم على هذا المشهد بأن تلك هى « الديمقراطية » التى نفتقدها فى بلادنا وذلك هو العدل .. والمساواة !

وقلت لنفسى : حفظت شيئا وغابت عنك أشياء !

لقد فات هذا الصحفى أن يتأمل قليلا ليقف على أسرار الموقف كله .. ومن جميع جوانبه ..

فهذا الوزير الذى يقف فى الصف من أجل الحصول على « بيضة » مؤكدا بذلك احترامه لحق أخيه فى الحصول على مثلها وفى وقته المحدد .. هو نفسه الذى يوقع قرار اعلان الحرب على دولة أخرى ظلما .. فيتغذى جيشه بدولة . ويتعشى بأخرى فى شرقنا المغلوب على أمره عسكريا .. وفكريا[١٩] ؟ !

ان الأخلاق فى قانونه أمر اعتبارى فهو يحترم « الحق » اذا تعلق بواحد من بنى جنسه .. أما هذا « الحق » فلا يحترمه اذا تعلق بحياة الآخرين .. وانه ليخرب الديار ويقتل الصغار والكبار بلا وازع من خلق أو ضمير ..

---

(١٩) كان ذلك فيما مضى .

انه حريص على « بيضة » أخيه أن تضيع •• وأما حياة الآخرين ومماتهم فلا يعنيه •• بل انه بعض مآسيه !

فهل نجعل هــذه الأخلاق الاعتبارية مقياسا ؟ أم نجعل للضمير الحكم الأخير ؟ !

ان الضمير قد يفسد •• فيفسد تصور الانسان لمعانى الخير •• ويفسد حكمه — تبعا لذلك — على الناس والأحداث •• وعندما يتسع الضمير •• وتتسع الذمة كما يقولون فترمح فيها الخيل •• فقل على الدنيــا السلام ••

ان كثيرا من المجتمعات ذات ضمير مطاط :

تبيح السرقة •• والزنا •• فهل تعتبرها مصدرا من مصــادر الأخلاق ؟ !

لقد دافع العقل اليونانى عن الدعارة ••

ودافع العقل الرومانى عن مصارعة الثيران ••

ودافع العقل الهندى عن احراق الزوجة مع زوجها ••

ودافع العقل العربى عن وأد البنات ! ••

والضمير نائم •• بل فى غيبوبة تامة عما يحدث للانسان !!

وذلك وضع تأباه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة على سواء هذه المصلحة التى تفرض علينا العودة الى المصدر الحقيقى للخير والمعروف •• وهو دين الله الحق •• فهو وحده صخرة النجاة •• ومصدر الحياة •

وللدكتور محمد سعاد جلال تعقيب عن أهميــة الأمر بالمعروف والنهى عن المنــكر •• وضرورتهما التى لا يغنى عنــها القــانون •• ولا السلطان •• مما يضاعف مسئولية الأمة الاسلامية •• التى تبلغ بالاخلاص فيه مبلغ الكمال •• على نحو يفر بها مما أصاب أمما قبلها تقاعست عنه •• فضاعت :

ويعبر الدكتور عن رأيـه فى مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •• فلا يقصره عن المعنى الدينى كما ذهب الى ذلك بعض المفسرين •• لكنه يوسع مضمونه ليشمل كل معروف وكل منكر فى مجال الدين والدنيا مما يحقق مصلحة الأمة فى كل مجال ••

ومما يضاعف مسئولياتها دائما •• حتى تتسع دائرة عملها •• تلاحق المنكر فى اجهزة الحكم •• وبين صفوف المجتمع •• ليتجاوز الداعية دوره كواعظ يرشد الى الخير •• ليكون ناقدا اجتماعيا •• يؤثر بدوره فى دولاب الحياة اليومية ••

يقول الدكتور :

قال تعـالى : « **ولينصرن الله من ينصره ، أن الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الأرض أقامـوا الصـلاة وآتـوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** »[٢٠] ••

اتفق المسلمون على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض وأنه فرض كفاية يتم بحصوله من بعضهم دون جميعهم • قال صاحب الكشاف فى تفسير قوله : « **ولتكن منكم أمـة يدعون الى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** »[٢١] قـال : من « للتبعيض » والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ولأنه لا يصلح له الا من علم المعروف والمنكر ، وكيف يرتب الأمر فى اقامته ، وكيف يباشر ، فان الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه • فنهاه من غير منكر • وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة وينكر على من لا يزيده الانكار الا تماديا ، أو على من الانكار عليه عبث كالانكار على الجلادين وقد نقل عنه الفخر الرازى هذا الرأى وأقره عليـه ، كما تكلم به غيرهما من المفسرين والفقهاء •

ويظهر أنى أختلف مع الفقهاء القدماء والمفسرين السابقين فى تصور مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأنا أتصوره وظيفة عامـة

---

(٢٠) الحج : ٤٠ ، ٤١ — (٢١) آل عمران : ١٠٤

لكل أفراد الأمة ، أراه صورة مساوية لما يسمى اليوم بلغة العصر « الرأى العــام » لا يتخصص عمله بالأمور الدينية وحدهــا بل يعم الأمور الدينيه والدنيويــه من الصناعات والعادات وأعمال الناس الجاريه فى حياتهم ، لكنهم ــ أى القدماء ــ يرونه وظيفة متخصصه بالأمور الدينيه ، كما يظهر ذلك من نص الكشاف المسوق اليك آنفا ، ومن ثم يقصرون أصحاب هــذه الوظيفه على رجال العــلم الدينى وحدهم ••

وليس الأمر فى نظرى كذلك ، فأنا أرى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين متوجه الى كل أفراد الأمة رجالا •• ونساء • وليس فرض كفاية وليس معنى لفظة « من » فى الآية التى تكلم عنها صاحب الكشاف « التبعيض » ، بل معناها « التجريد » فمعنى الآيــة « ولتكونوا أمة يدعون للخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنــكر » • كما تقول : « لى منك صديق كريم » يؤيد هــذا الفهم الآية الأخرى المطلقة من ذكر « من » وهى الآية التى معنا فالتوفيق بين الآيتين أحق ، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا » •

اننا ــ كأفراد ــ فى كل موقع مسئولون عن كل خطأ يقع فى محيط البيئــة : قرية •• أو مدرسة •• أو مصنعا •• أو طريقا •• أو سيارة • ومعنى ذلك : اشعار المخطىء بأن خطأه تعداه وصار عدوانا علينا جميعا • فليتنبه •• والا حل عليــه العقاب !

وسوف تمتد الموجة الناقدة الموجهة عبر الحكومة لتحسب لكل عمل حسابه •• فيستقيم دولاب العمل •• وتأخذ الدولة وضعها السياسى كقوة تعمل لها الدول ألف حساب •• وقد قبل صاحب الدعوة صلى الله عليــه وسلم النقد حين قيل له : اعدل يا محمد !

ومن بعده أبو بكر •• وعمر رضى الله عنهما ••
فقد قال الأول : ان عصيت فقومونى ••

واندفع الثانى خطوة أخرى على الطريق ففرح بمن لوح له بالسيف يقيم عوجه اذا اعوج ، قائلا : لا خير فيــكم اذا لم تقولوها •• ولا خير فينا اذا لم نسمعها ••

نعم لا خير فى الدولة كلها اذا لم يكن أمر •• ولا ائتمار •• ولا نهى ولا انتهاء •• اذا استسلم الضعيف أمام القوى .

اذا طأطأ المرؤوس هامته بين يدى رئيسه ••

اذا سكت هؤلاء جميعا — ولم تكن لهم بقية من شجاعة يقولون بها للظالم : لا •• فقد تودع من الأمة كلها ••

وسوف تتحول القوة الى اعصار •• والغنى الى اقطاع •• والرئاسة الى استبداد •• ان قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بهذا المعنى أساس الاصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى ••

وليست هى فقط مهمة يقضى بها الوطر •• ويستحق بها الراتب ••

ولكنها القوة المهيمنة •• الضابطة لخطو الأمـــة حتى لا تضل الطريق .

استدعى المندوب السامى الفرنسى الشيخ عبد الحميد الجزائرى وقال له : « اما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هـــذه الأفكار والا أرسلت جنودا لاغلاق المسجد الذى تنفث فيه هـــذه السموم ضدنا واخماد أصواتكم المنكرة » ••

فأجاب الشيخ عبد الحميد : « أيها المسيو الحاكم انك لا تستطيع ذلك ••

فاستشاط غضبا وقال : كيف لا أستطيع ؟ ••

فقال له : « اذا كنت فى عرس علمت المحتفلين ، واذا كنت فى مأتم وعظت المعزين ، وان جلست فى قطار علمت المسافرين ، وان دخلت السجن أرشدت المسجونين ، وان قتلتمونى التهبت مشاعر المواطنين ، وخير لكم أيها المسيو أن لا تتعرضوا للأمة فى دينها ولغتها »[٢٢] .

* * *

(٢٢) الوعى الاسلامى .

الداعيـــة يسبح ضد التيار

يسبح الداعية ضد التيار • ولا يركب الموجة المندفعة !

انه لا يتملق عواطف الجماهير •• ولا يستجيب لنزواتهم ليحصل على رضاهم ، والدعوة — فى شخصه — تعيش فى بيئة تستمرىء العيب أحيانا •• ومع ذلك فمفروض عليـــه أن يعايش هــذه البيئة فى محاولة لاحتوائها :

يتفاعل معها •• فيؤثر فيها • ولا يتأثر بها •• مع ضغطها الثقيل • والحاحها المستمر على الانحراف ••

وبينما يدأب غيره باحثا عن الشىء « المربح » •• فانه يبحث دائما عن الشىء « الحق » مهما كان الثمن •

ويمكننا تصور حدة صراعه مع بيئته اذا عرفنا طبيعة وظيفته التى تؤلب عليه الفارغين منذ اللحظة التى يدعوهم فيها الى الله :

(أ) الداعية يبلغ الناس بتكاليف شرعية ضد ميولهم •

(ب) يعدهم بحياة أبدية •• لكنها مرجوة لم يحن أوانها بعد •• ولا يخفى أن انتظار المرجو مقلق للنفوس ••

(جـ) عوامل الشر أظهر فى العادة من عوامل الخير •• ومن ثم فالناس أسرع الى الباطل منهم الى الحق •• لأن بهرجة الشر المنتفش تحجب القلوب عن رؤية الحق •

(د) النفوس أقرب الى المحسوس من المعقول •• وهو ما يرغبهم فيه الدعاة[1] •

---

(١) راجع الدعوة والدعاة للزنكلونى •

(هـ) ظروف صعبة :

لا يشكل الداعية سلطة تنفيذية تراقب •• وتوقع العقاب بالمنحرف •• بل ربما تقدم ــ باسم الشرع ــ من العاصى ناهيا زاجرا •• ويأخذه القانون بشدة •• بينما يسرح المذنب ويمرح ؟!

ان مهمة القائد العسكرى لأهون بكثير من مهمة الداعية فى بيئــة منحرفة : فمما يساعد القائد : أن الجندى فى الميدان قد يقتحم غمرات القتال انقاذا لحياته من موت محقق ••

أو رغبة فى قلادة تزين صدره ••

أو طمعا فى بطولة تخلد ذكره ••

وذلك ضمن رفقة السلاح يثيرون فيه الحماس •• وان كان من طبعه الجبن ؟!

الى جانب ما يملكه القائد نفسه من سلطة صارمة •• تسانده فى ادارة شئون المعركة •• لكن الأمر ــ بالنسبة للداعية مختلف جدا :

انه يعمل وحده بلا معين •• ولا يملك الا سلاح الكلمة !

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان : « ان صعوبة التطبيق بالنسبة للداعى •• أشد بكثير مما هى بالنسبة للقائد العسكرى ••

لأن القائد يجد بين يديه جنودا مطيعين • ينفذون ما يأمرهم به القائد • أما الداعى فهو يواجه أناسا جاهلين بربهم • متمردين عليه • نافرين من الحق • مقبلين على الدنيا •• معادين للداعى • أو على الأقل : لا يهتمون بما يدعوهم اليه من الخير •• ولا يحسون بحاجة اليــه »[2] •

انه يمثل الحق الضابط للشهوة •• والذى يفرض واجبات ••

---

(٢) أصول الدعوة ص ٤٠٢.

ولا يمهد السبيل لرذيلة يتعشقها الناس • ويفتحون صدورهم وجيوبهم لهـا • ويخوض معركة ضارية •• وضد من ؟

ضد الكثرة الكاثرة من الناس •• على ما يقول سبحانه : **« وأكثرهم للحق كارهون »**[٣] •

وانها لمهمة شاقة تجعله فى رباط دائم الى يوم القيامة :

جاء فى تفسير ابن كثير لقوله تعالى : **« لا يضركم من ضل اذا اهتديتـم »**[٤] :

تلا الحسن هـذه الآيـة : **« لا يضركم من ضل اذا اهتديتـم »** فقال الحسن : الحمد لله بها • والحمد لله عليها • ما كان مؤمن فيما مضى • ولا مؤمن فيما بقى •• الا والى جانبه منافق يكره عمله » •

فالحق والباطل لا يلتقيان •• ومن ثم فهما دائما متصارعان :

فالغاية مختلفة •• والوسيلة ليست هى الوسيلة ••

من أجل ذلك لا تنتهى المعركة بينهما ••

ذلك بأن الحق نور : **« يا أيـها الناس قد جاءكم برهـان من ربكم وأنزلنـا اليـكم نورا مبينا »**[٥] ، **« أو من كان ميتـا فأحييناه وجعلنـا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منهـا ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون »**[٦] •

من أجل ذلك كانت العداوة الأزلية بين : الحق المضىء الكاشف •• وبين النفاق •• الذى يمثل الظلام •• ويكره النور الذى لا تؤهله طبيعته ليعيش فى رحابه •• وبدل أن يواجه الضوء بالضوء •• والجمال بالجمال •• يختار من السبل ما هو أوفق بطبيعة النفاق •• فيتربص به • ويشوش عليه فى محاولات لا تهدأ ولا تنتهى •

---

(٣) المؤمنون : ٧٠ (٤) المـائدة : ١٠٥
(٥) النسـاء : ١٧٤ (٦) الأنعام : ١٢٢

« أن الداعية يعيش فى الحق الذى شرفه الله به • مثلما يعيش الناس فى أنوار الضحوة الكبرى ••

فهو بأشعته وحدها يهتدى • وعلى ضوئها يسير ••

ومن ثم •• فمن المستحيل أن يخشى عرفا سائدا • أو تقاليدا مقررة • اذا كان هذا أو ذاك ضد ما يعرف من حق •

ومن المستحيل أن يتملق الجماهير • أو يطلب رضاها :

كيف وهو يرى العامة مرضى • وفى يده شفاؤهم ••

ويراهم قاصرين • وعنده وحده العلم الذى يرفع مستواهم • ومن المستحيل أن يتهيب فى ذات الله بطش ذى سلطان •

سواء أكان مخوف الظلم • أو محقق العنت ••

فهو يعامل ربه قبل أن يعامل عباده أيا كانوا ••

وهو يوقن بأن الحياة والموت • والرزق والأجل • والخفض والرفع • والأمن والقلق • ترجع حتما الى مالك الملك جل شأنه • ومن المستحيل أن يجره طمع • أو يجرفه هوى • أو تغريه رغبة • أو تدنيه رهبة •

فان شأن الرسالة التى انتصب لأدائها فوق هذه الوساوس جميعا ••

والسنن العامة فى أنبياء الله قاطبة : أنهم فى نظرتهم الى جلال الله •• تتضاءل فى أعينهم شخوص المخلوقين • ويذوب ما ينسب اليهم من بأس وارهاب • قال الله جل شأنه : **« ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا • الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا »**(٧) •

---

(٧) الشيخ محمد الغزالى : مع الله — والآية من سورة الأحزاب : ٣٨ ، ٣٩

واذا كان هــذا قدر الدعاة •• فان الجمهور المفتون بالدنيــا يناوئه على الجانب الآخر •• وريـــاح المدنية على ما تشتهى سـفينـــة المنحرفين ••

يقول الندوى مصورا ذلك الداء على مستوى العالم كله :

« ليس هناك صوت يعلو ضد كل ما يجرى من عبث بكرامة الانسانية •• والاهدار لقيمها الرفيعة •• وافساد الحياة العامة — وهو ما ينهض الدعاة لمحاربته والتصدى له — انما الخلاف فيمن يتولى ادارة هــذا الجهاز ••

فكل ينادى بأعلى صوته : الينا ! الينا ! ••

يجب أن تختارونا نحن لادارة هــذا الجهاز المضطرب ••

وكأنه لا اعتراض على أن الآلة تدار فى غير وجهتها • انما الاعتراض كل الاعتراض • والنقمة كل النقمة •• على أنها لا تدار بيدنا نحن !

فالجشع والرشوة والخيانة والفسق والتحلل •• كلها سائغ مقبول لا نكر فيه ولا ضير • انما الضير كل الضير : ألا يجرى كل ذلك تحت اشرافنا • ولا يكون لنا شرف حراسته ورقابته »[٨] •

* * *

ضغوط ثقيــلة :

مما سبق •• يمكن استخلاص الضغوط المختلفة التى يتحملهــا الداعية •• وهى ضغوط من داخل نفسه •• ومن مجتمعه •

من داخل النفس :

١ — فى خوف مستمر من الله تعالى أن يقصر به عمله •

٢ — حساسية ضميره لكل ما يراه من صور الانحراف تجعله فى مستمر •

---

(٨) حديث مع الغرب ص ٦٨

٣ — يحارب فى أكثر من جبهة فصلها « ابن تيميــة »[٩] فيما يأتى :

(أ) أن بين جنبيه — كانسان — شيطانا •• ونفسا أمارة بالسوء •• يجاهدهما جهادا كبيرا •

(ب) ومن ناحية أخرى يقاوم دائما اغراء آخر : فمعصية الآخرين تزين له أن يكون مثلهم •

(جـ) بالاضافة الى ذلك : يواجه عاملين يزيدان من حدة الصراع بين جنبيه :

— فأهل المنــكر يكرهون من يعارضهم •• ونصيبه من هــذه الكراهية موفور حسب طبيعة عمله •• كشخصية غير مرغوب فيها !!

— ثم انهم يحبون من يزين لهم المعصية •• ولهم من أهل الرياسات والأهواء سند ومعين ••

من خارج النفس :

١ — قد يتعرض لسخرية الغير وايذائه •

٢ — الفرق واضح بين الدعوة والدعاية •• والرسالة والسياسة •• فالذين يتملقــون عواطف الجماهير يقيمون أفراحهم على أشــلاء الضحايا •

وعلى النقيض من ذلك يقف الدعــاة موقفا هو من خصــائص وظيفتهم التى تفتح أمامهم كل ساعة جبهة جديدة يلاقون فيها وجوها من الصدود جديدة : « يحاربون الرذيــلة أينما وجدت • ويحاربون أهلهــا • وان كانوا عشيرتهم وذوى قرباهم • ويقلبون الأوضاع الفاسدة رأسا على عقب •

---

(٩) راجع الحسبة ص ٩٧ ، ٩٨

ولا يشفع عندهم للرذيلة وبقائهـــا •• ولا يبرر وجودهـــا أن القائمين عليـــها هم أعضاء أسرتهم • أو أفراد أمتهم • وأن الفائدة ترجع الى أقربائهم أو من تربطه بهم أواصر الأخـــوة أو القرابة أو الجنسية •

انهم لا يرضون بتبدل السادة والمشرفين • انهم يلحون ويجاهدون بكل قواهم لتبديل الرذيلة بالفضيلة والكفر بالايمان »[١٠] •

٣ — ومن هنا تظهر دقة عملهم وشرفه أيضا والذى يجعل الفقر أسرع اليهم من السيول المندفعة الى سفح الوادى !

فلا تعظم ثرواتهم غالبا ••

يقول ابن خلدون : « السبب فى ذلك أن الكسب قيمة الأعمال • وأنها متفاوتة بحسب الحاجة اليها : فاذا كانت الأعمال ضرورية فى العمران • عامة البلوى بها : كانت قيمتها أعظم • وكانت الحاجة اليها أشد ••

وأهل هـــذه الصناعة الدينية لا تضطر اليهم عامة الخلق • وانما يحتاج الى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه ••

وانما يهتم باقامة مراسمهم صاحب الدولة •• فيقسم لهم حظا من الرزق على نسبة الحاجة اليهم • لا يساويهم بأهل الشركة • ولا بأهل الصنائـــع • وهم أيضا لشرف بضائعهم أعزة على الخلق •• وعند نفوسهم ••

فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق • بل لا تفرغ أوقاتهم لذلك • ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم • فهم بمعزل عن ذلك • فلذلك لم تعظم ثرواتهم فى الغالب »[١١] •

---

(١٠) المرجع والموضع السابق •
(١١) المقدمة : فصل : لمـــاذا لا تعظم ثروات المدرسين والخطباء ..

فانظر الى « الحرفيين » كيف أقبل الناس عليهم بمقدار حاجتهم اليهم : فأعمالهم أسهل تناولا •• بينما أرزاقهم أكثر حجما •

والدعاة — لأنهم يمثلون القيد الضابط — لا تقبل العامة عليهم •• ومن ثم لا يطمعون فى بضاعتهم •• فيبقى ضيق اليد — غالبا — سمة الدعاة وقدرهم أيضا •

ومفروض عليهم أن يواصلوا المسير فوق الأشواك •• مهما كانت النتائج • مغالاة بمنصب يضع أقدامهم على طريق الأنبياء والمرسلين :

« فاشتغل بدلالة عباد الله على الله • فهى حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام • وهل كان شغل الأنبياء الا معاناة • وحثهم على الخير • ونهيهم عن الشر »(١٢) •

* * *

أهميـــة الداعيـــة :

وعلى قدر أهمية الدعوة •• وثقل الضغوط فوق كواهل الدعاة •• تكون حاجتنا الى طراز فريد يرتفع الى مستوى هـــذه المسئوليـــة الضخمة •• واذا تصورنا ما آلت اليه أمور العالم اليوم •• من التنادى بالرذيلة • والتواصى بجفاء أهل الحق ••

اذا تصورنا انسان القرن العشرين المـــاضى على هواه •• مدفوعا بمزاجه المتقلب •• تساعده قوى عالميـــة •• وأجهزة اعلام توسوس له بالاثم والعدوان •• تبين لنا ضرورة أن يكون الداعية — كما قلنا — على مستوى المسئولية ••

« ان انسان القرن العشرين يؤمن بأنه حر مطلق • وهو صديق من يرخى له العنان • ويمنحه أكبر قدر من هـــذه الحرية • ويفرض عليـــه أقل مقدار من التكاليف • وقد عرفت الهيئات البشرية هـــذه

---

(١٢) ابن الجوزى : صيد الخاطر ص ٣٨

النزعة • وأنها العصا السحرية الموصلة الى القيادة • فتملقت الجماهير حين مهدت طريقها لامتاع غرائزها •

وبهذه الرشوة الخلقيـــة أفسدوا أذواق الشعوب •

أما الأنبياء وأتباعهم فطريقتهم غير ذلك :

انهم يهذبون حاجات الغرائز • ليتحقق توازن الشخصية الانسانية •• ان الأحزاب اليوم لا تقوم — فى الغالب — على ركائز خلقية •• لأنها ترضى الأوضاع القائمة •• ان القيادة العالمية قد ضلت الطريق • وما دام هـذا الوضع الشاذ • فان السرعة التى أصبحت اله العصر الحاضر — وتوفر المسائل المـادية • وتقدم العلوم الطبيعية •• لا يزيد البشرية الا بعدا عن الغاية •• وقربا من الهاوية ••

انه ما لم يتأصل الايمان بالله واليوم الآخر فى النفوس •• لا يمكن أن يتغير الموقف • ولن يحظى العالم بطراز فريد رفيع للانسانية ••

ان حاجة المجتمع اليوم هى حاجة الى تطهير النفوس من حب الجاه والمنصب والمـال • وتربيتها على الايثار والتضحية • وانكار الذات • والتفانى فى صالح الجماعة •

ولن يأتى ذلك الا عن طريق الايمان العميق المخلص »(١٣) •

وهكذا تبدو الحاجة ماسة الى الداعيـة المنقذ من هـذا الضلال المبين • الواصل بالمجتمع الشارد الى المرفأ الآمن •

❋ ❋ ❋

الخطيب والأديب :

ان الخطيب — وهو داعية — مثل الأديب كلاهما :

١ — يعايش الواقع • وينقل عنه أفكاره •

٢ — شديد الحساسية بآلام الناس وآمالهم •

---

(١٣) حديث مع الغرب ص ٦٩ — ٧٣ بتصرف .

٣ — مخزون من المعلومات يصبح كالمـولد الكهربائى مشحون بالطاقة • أو كالنحل : يمتص الرحيق •• ليتقله الى الناس شرابا طهورا •

٤ — مرآة تعكس الضوء •

ولكن الفرق بين الاثنين واضح •

فما أسهل مهمة الكاتب ازاء مهمة الداعية :

فربما جلس الكاتب على حافة النهر •• وفى ظل شجرة خضراء •• يسجل أفكاره •• فى جو يوحى بالانطلاق والحرية ••

ثم يقدم هذه الأفكار للناس •• بالواسطة •• ويقرأ الجمهور أفكاره •• لكنهم لا يشاهدونه •• ثم هو لا يكتب الا حين يعتدل مزاجه •• بالاضافة الى أنه يخاطب جمهورا متقارب المستويات على نحو ما •

وأين هذا من الخطيب الذى يواجه الناس فعلا •• متحملا تبعة هـذه المواجهة المستمرة بكل أعبائها وما يترتب عليها من تأثير فى حياته •• هذا التأثير الذى تحدث عنه عبد الملك بن مروان •• فقد كان أخوف ما يخافه مواجهة الناس من فوق المنبر •• وهو ما أسرع بالمشيب اليه !

ثم ان جمهور الداعية مختلف النزعات والغايات •• وهو مع ذلك مطالب بمخاطبته بلغة يفهمها الجميع •• ليحقق النصر فى معركة متعددة الجبهات •

وانه لمحكوم بأهداف الشرع •• ولابد أن يجىء تحركه فى الاطار الاسلامى • وصورة حية لمـا يدعو الناس اليه •

وهو بهذا المعنى زعامة دينية لها خطرها ••

واذا كان الداعية فى أذهان الناس يمثل القيد الضاغط ومن ثم يتعرض لمقاومة عنيفة منهم — فانه يحتوى هـذه المقاومـة لصالح الدعوة •• أو هكذا يجب أن يكون •

واذا مثل الأديب يوما ذلك النغم العذب الذى يشجى السامعين •• ويجذب انتباههم •• فان الخطيب يمثل الدائن المطالب بالسداد ! والذى يطرق على الناس أبوابهم ليؤدوا ما عليهم من طاعات لله تعالى ••

ولهذا تشتد مقاومته •• وتدور معركة يخوضها دائما بنجاح يحقق به سعادة الفرد والمجتمع •

بل ان بعض البرامج الاعلامية — ان لم يكن أغلبها — تمهد السبيل أمام أفكار الكاتب وتعمل على نشر أفكاره •

بينما الداعية يخاطب الناس على غير ما تشتهيه أنفسهم ••

انه يخاطب شبابا جاء اليه من بيت •• ومن قبل أسرة هيأت له وسائل الجلوس أمام « التليفزيون » ساعات رأى فيه :

(أ) الفضيلة عابسة •• والرذيلة ضاحكة مرحة •

(ب) صورة المحب الذليل راكعا أمام محبوبته يجأر بعبوديته لها ؟ !! استجلابا لرضاها !

(جـ) مدرس العربى والدين يبدو فى صورة هزيلة ينفر منها الناشىء حتى لا يكون مثله مثار السخرية •

انها الأسرة المخدوعة التى يكذب عليها كاتب فرنسى حين يدعوها الى الحياء ! ••

وهو نفسه الذى يرميها بأشكال الملابس •• وصور التبذل التى لا تبقى فى النفوس حياء !

وهو نفسه الذى حول انتباه الشباب ليتركز على نجوم الكرة •• ونجوم الفن • بينما تندب الدعوة حظها العاثر ! ••

واذا كنا نطالب المسئولين دائما بمزيد من العناية •• فان ذلك ينسينا دور المجتمع نفسه فى التمكين لهذه الأجهزة كى تقوم بدورها •

ان بعضنا مصاب بعقدة الحاكم الذى يحمله وحده مسئولية البلاغ •• ونعم هو المسئول الأول ••

ولكن واجب المجتمع يبقى حتميا •• وعليه أن يغير نظرته وتقديره للدعوة والدعاة الذين يلقون منه عنتا •• واتهاما بالتقصير •• بينما الناقد نفسه يقدم أذكى أبنائه وأقواهم للهندسة والطب •• ثم يبعث بأضعفهم الى الكليات الدينية •• حين يكون آخر الدواء الكى ! ••

ومن أين تأتى الدعوة بالممتازين من الدعاة •• وأنت أيها الناقد الغيور ضنين بولدك الذكى فلا ترصده لها ؟

كيف تطالب باصلاح وضع أنت صانعه وواضع أسسه فى البيت ؟ !

***

الاسلام لا يعيش وحده :

اذا كان هذا موقف الجمهور من الداعيـــة الذى يحول بينهم وبين شهواتهم ويأخذ بحجزهم قبل أن يسقطوا فى النار ••

اذا كانت هذه هى وظيفته التى تؤلب عليه طلاب الدنيا •• مما يشكل عقبة كأداء على طريقه ••

فان هناك عقبة أخرى •• تتمثل فى طبيعة أعداء الاسلام الذين يتسكلون أخطر الحواجز أمام المد الاسلامى الزاحف :

أعداء الدعــوة :

وربما جاز لنا أن نقول :

ان من طبيعة الدعوة •• أن يكون لها أعداء ! •• وأعداء من كل لون على قدر خصائصها التى أسلفنا الحديث عنها :

انها « عالميـــة » •• وهى بهذه الصفة تؤلب عليـــها دعاة القوميات المتعصبة الضيقة •• ولأنها واضحة •• فلابد أن يكرهها عشاق الظلام من المنافقين •• وديدنهم الغموض •• واللف والدوران ••

ثم انها انسانية تدعو الى العدل •• والوفاء •• وكل عمل صالح •• كما وأنها لا تتملق عواطف الجماهير فتقدم لهم مزيدا من المتع الحسية •• من اجل ذلك •• يعاديها الأشرار •• وتجار الملذات •• من حيث جاءت لتحاسبهم على ما اقترفت أيديهم من خطأ •• بقدر ما تفطمهم عن لذاذات مردوا عليها ••

والدعوة الاسلامية العظيمة لا ينهض بها الا أكفاؤها من العظماء •• « ان العظائم كفؤهـا العظماء » ••

ومن ثم •• فسوف يكون لها أعداء يتكلمون بلغتهـا •• ويحملون شارتهـا •• أناس يعيشون « بها » ولا يعيشون « لهـا » ••

ومن هؤلاء •• وأولئك •• تكون أعداء الاسلام منذ اللحظة التى خاطب الله تعالى به الأمة •• وكانت لهم مناهج •• وخطط •• وأساليب •• ومعرفة هذه المناهج أعون على البلوغ بالدعوة الى ما نريد لهـا من نجاح •

لا يعيش الاسلام وحده فى هـذه الدنيا ••

ان له أعداء يقعدون له بكل سبيل •• وعلى رأس كل طريق معوج •• شيطان يجذب الناس اليه ••

وفى كل مرفق من مرافق الحياة تدخلت الأصابع المـاكرة • لتفعل فعلتها فى تشويه الصورة الكريمة للحياة الانسانية ••

ويجد الاسلام نفسه فى معركة فاصلة بين صور وأوضاع لابد له من مواجهتها لاحباطها •• أو اضعاف تأثيرها على الأقل ••

وما أصدق الصورة التى يرسمها الشهيد سيد قطب لهذا المجتمع المسمى بالشرق الاسلامى فيقول : « والعاقل الواعى الذى لم يأخذه الدوار الذى يأخذ البشرية اليوم • حين ينظر الى هذه البشرية المنكودة • يراها تتخبط فى تصوراتها • وأنظمتها • وأوضاعهـا • وتقاليدهـا • وعاداتها • وحركاتها كلهـا تخبطا منكرا شنيعا :

يراها تخلع ثيابها وتمزقها كالمهووس •• وتتشنج فى حركاتها وتتخبط كالممسوس •

يراها تغير أزياءها فى الفكر والاعتقاد • كما تغير أزياءها وفق أهواء بيوت الأزياء ••

يراها تصرخ من الألم • وتجرى كالمطارد •• وتضحك كالمجنون • وتعربد كالسكير •• وتبحث عن لا شىء •• وتجرى وراء أخيلة •• وتقذف أثمن ما تملك • وتحتضن بأقذر ما تمسك به يداها من آحجار وأوضار • لعنة • لعنة • كالتى تتحدث عنها الأساطير •

وحول هذه البشرية زمرة من المنتفعين بهذه الحيرة الطاغية وهذا الشرود القاتل ••

زمرة من المرابين •• ومنتجى السينما •• وصانعى الأزياء •• والصحفيين •• والكتاب : يهتفون لها بالمزيد من الصراع والتخبط •• والدوار ••

وكلما تعبت وكلت خطاها •• زمرة تهتف لها :

التطور •• الانطلاق •• التجديد •• بلا ضوابط •• ولا حدود •

انها الجريمة •• الجريمة المنكرة فى حق البشرية كلها • وفى حق هذا الجيل المنكود »[14] •

واذن فالمسلم يواجه اليوم من صور الالحاد ما يفرض عليه مسئوليات أكبر •• ويجعل من الدعوة كما قيل بحق : فريضة شرعية •• وضرورة بشرية •

ولو كان الاسلام يعيش وحده •• ويمضى أتباعه على طريق مفروش بالورود •• لهان الأمر •• وطاب النوم •• ولكن الأمر على ما رأيت ••

---

(١٤) د . صادق أمين ــ الدعوة الاسلامية ص ٣٢ ، ٣٣

وقد يخطر ببالك أن ذلك لون من المبالغة أملاه التعصب .. أو الرجعية . وأن ما تشاهده فى الحياة من صور الجمال غير ذلك ..

ولكننا نقف بك عند آية من كتاب الله تصدق هذا الذى نقلناه :

يقول الحق سبحانه : **« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »**[١٥] .

وظهور الفساد يعنى انتشار المعاصى .. وبالتالى فساد البلاد والعباد .. الأمر الذى يجعل مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ضرورة لا تردد فيها .. حماية للحرث والنسل ..

قال أبو العاليـــة : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض . لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ..

ولهذا جاء الحديث الذى رواه أبو داوود : « لحد يقام فى الأرض أحب الى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا »[١٦] .

ان عظمة الدين لتقاس بمقدار ما يخفف من عذاب الناس .. وما يأسو من جراحاتهم .. واقامة الحق تتكفل بذلك ..

وهنا تتساوق مهمة الأمراء والعلمـــاء .. وتلتقيان على مواجهة واقع مرير .. لابد من الاشتباك معه بالحكمة والموعظة الحسنة .

* * *

---

(١٥) الروم : ٤١

(١٦) ابن كثير فى تفسيره للآية الكريمة .

أعرف عــدوك

فى بيان موقف أعداء الاسلام منه •• نقرأ قول الحق سبحانــه : **« ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعــة بغتــة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم »**[1] •

فهم أبدا •• والى أن تقوم الساعة فى شك من الحق •• وفى موقف الحذر منه •• والتربص به •

ومهما بدر من مظاهر المجاملة والتودد • الا أن ذلك لا يخفى حقيقة أن قلوبهم فى واد • وألسنتهم فى واد آخر •

واذا كان هناك من رضا متوقع •• فانه سيكون فى اللحظة التى نتبع فيها ملتهم •• أما دون ذلك فلا : **« ولن ترضى عنــك اليهــود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »**[2] •

والأمنية الوحيدة التى تجيش بها صدورهم أن تكونوا أنتم وهم ســواء •• فى المستنقع الآسن : **« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون ســواء »**[3] •

والولاء الوحيد فى قلوبهم هو : ولاؤهم لمصلحتهم وذواتهم •• لا لــكم : **« والذين كفروا بعضهم أوليــاء بعض »**[4] •

وكل محاولات التغرير بكم وان أخذت سمتا عاديا •• الا أنها تستهدف شدكم الى جهنم فى الواقع وفى نفس الأمر : **« يا أيها الذين آمنــوا ان تطيعــوا الذين كفــروا يردوكم على أعقابكم فتنقــلبوا خاسرين »**[5] •

---

(١) الحج : ٥٥
(٢) البقرة : ١٢٠
(٣) النساء : ٨٩
(٤) الأنفال : ٧٣
(٥) آل عمران : ١٤٩

وعليكم أن تكونوا فى معاملتهم على حذر ..

وعلى أهبة الاستعداد .. بكل ما تملكون من قوة ترهبون بها عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ..

ذلك بأن هذه الأمانى فى صدور القوم ستأخذ شكل العدوان المسلح عليكم . ولن تستمر فى القلوب أحلاما .. ونوايا : **« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »**(٦) . والقوم فى كل ذلك منطقيون مع أنفسهم .. يحسون بالخطر وراء الاسلام الزاحف ..

فعندما جاء الاسلام الحنيف بالكلمة الصادعة بالحق . أحدث فى عالم الأديان . والمذاهب الاجتماعية . والسياسية والاقتصادية ما يشبه الزلزال ..

وصحا الفكر المادى على صوت الحق الراعد .. والذى رأى فى مبادئه خطرا عليه .. وفى حياته .. موتا له ..

وجمع الطواغيت كلمتهم — رغم اختلاف مشاربهم ومذاهبهم — فى معركة يرمون فيها الاسلام عن قوس واحدة . وفى عملية دفاع عن النفس . ازاء خطر يرون نهايتهم جميعا على يديه ..

وقد مرت الأيام .. وتجدد الاشتباك بين الحق والباطل .. وحتى هذه الساعة .. وما زالوا يكيدون للاسلام كيدا .. لأن عقيدة الاسلام ما زالت تستقطب بقوتها الذاتية .. ومبادئها المنسجمة مع الفطرة ملايين البشر .. وهزمت فلول الشر فى ساحات البرهان .. والمصلحة .. وما زال الاسلام يحقق الانتصار مع أن أتباعه نائمون وأعداؤه متيقظون !

من أجل ذلك .. ستظل المعركة مستمرة .. تواكب الحياة . لأنها معركة بين متناقضين .. لا ينتصر واحد الا بهزيمة الآخر ..

---

(٦) البقرة : ٢١٧

ومن أجل فداحة المصير المترتب على انتشار الاسلام .. عمد الفكر المـادى الى حيلة يهز بها شجرته .. بفرع منها !

لقد حاول اعداد جيل من المسلمين .. يصطنع به ثورة من داخل الاسلام بعد أن فشل فى النيل منه عسكريا ..

جيل ضخم ينطبق عليه قوله تعالى : **« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيـا »**[7] .

وقبل أن يقذف ذلك الجيل فى « غى » جهنم .. فانه فى دنياه يضرب فى التيـه .. ويخرب بيته بيده وهو لا يعلم ما يراد به . من قبل أعداء يخططون له بدقة .. ويبيتون له بليـل .. ويتنادون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول .. لتفتيت الوحدة الاسلامية ..

* * *

شاهد على أهلـه :

والشواهد كثيرة .. وانها لتكشف عن تآمر عالمى رهيب يستهدف الاسلام وأهله .. محذرا من الخطر الناتج عن سيطرة الاسلام .. ومن تلك الجمرات المدفونة تحت الرماد ــ وما يلزم ذلك من ضرورة التكاتف .. لصد اندفاع الاسلام :

جاء فى كلمة مسئول فرنسى فى وزارة الخارجية عام ١٩٥٢ :

« ان الخطر الحقيقى الذى يهددنا تهديدا مباشرا عنيفا هو الخطر الاسلامى ..

فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربى ..

فهم يملكون تراثهم الروحى الخاص .. ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة الى

---

(٧) مريـم : ٥٩

الاستغراب : أى دون حاجة الى اذابة شخصياتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة فى الشخصية الحضارية الغربية »[8] .

والقوم هناك مستعدون للتحالف مع الشيطان .. ضد الاسلام !!

وأخوف ما يخافونه أن يهيمن على الدين كله :

« يقول لونس براون : لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة . لكننا بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ..

لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى . والخطر الأصفر باليابان وتزعمها على الصين . وبالخطر البلشفى ..

الا أن هـذا التخوف كله لم نجده كما تخيلناه . لأننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا . وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الأكبر ..

ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا أثناء الحرب العالمية الثانية ..

أما الشعوب الصـفراء فان هناك دولا ديمقراطيـة كبرى تتكفل بمقاومتها ..

ولكن الخطر الحقيقى كامن فى المسلمين .. وفى قدرتهم على التوسع .. والاخضاع وفى الحيوية المدهشة العنيفة التى يمتلكونها ..

ألا انهم السد الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى »[9] .

واذا كان واقع المسلمين اليوم يضائل من هذا الخطر المتوقع كما تصوره القوم .. فان الأذكياء منهم لا يشكون لحظة فى الخطر الكامن ..

« صرح بعضهم قائلا : ان الخطر الحقيقى انما هو الذى يمكن أن يحدثه المسلمون من تغيير فى نظام العالم . فقيل له : انهم فى شغل

---

(٨) عن كتاب : جند الله ص ١٥

(٩) المرجع السابق ص ١٦ ، ١٧

عن أن يفكروا فى هــذا بخلافاتهم ونزعاتهم . فقال : انى أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم الينا »(١٠) .

وهذا شىء تؤكده الأحاديث الشريفة التى تفيد تكفل الله تعالى بحفظ دينه على يد مصلحين يواجهون الخطر .. ويجددون الحيــاة الاسلامية ..

وقد اهتدى القوم الى سر ذلك وهو : أصالة الأخلاق الاسلامية القادرة على انهاض العالم الاسلامى من كبوته :

« ان المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم فى الدنيــا بنفس السرعة التى نشروها سابقا . اذا رجعوا الى الأخلاق التى ساروا عليها حين قاموا بدورهم الأول . لأن هــذا العالم الخاوى لا يستطيع أن يقف أمام حضارتهم »(١١) .

« ان هــذا المسلم الذكى الشجاع قد ترك لنا حيث حل آثــار علمه وفنه . وآثار مجده وفخاره ..

ان هــذا المسلم الذى نام نوما عميقا مئات السنين قد استيقظ وأخذ ينادى ها أنا ذا لم أمت . انى أعود الى الحياة . لا لأكون أداة طيعة . أو ثقلا من البشر تسيرها العواصم الكبرى . ومن يدرى ؟

قد يعود اليوم الذى تصبح فيه بلاد الافرنج مهددة بالمسلمين فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية فى الوقت المناسب . أو الزمن الموقوت »(١٢) .

ان المسلم يعيش اليوم فى حدود مصلحته الشخصية .. وضعفت صلته بالاسلام الى حد لا يعتبر معاداة الاسلام معاداة له .. والكيد له كيدا له .. والتآمر على الاسلام .. تآمرا عليــه ..

بل ربما شارك العداة .. والكائذين .. والمتآمرين ؟ !

---

(١٠) المرجع والموضع السابق . (١١) المرجع والموضع السابق .
(١٢) نفس المرجع والموضع .

وذلك ما استهدفه الاستعمار الذى أراد أن يخر علينا السقف بأيدينا نحن ! والذى لم ينس جوهر القوة فينا •• وان نسيناه نحن ! وهذا ما يشير اليه قوله سبحانه وتعالى محذرا من مثل هـذا المصير : **« وفيــكم سماعون لهم »**[13] •

« يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين »[14] •

وقد ساعدهم التفوق الحضارى على استغلال ضعف التابع المستتبع تقليــد المتبوع •• فحققوا نجاحا لا يدرك خطره الا الذين يشعرون بما آل اليــه المجتمع الاسلامى من خلل بعد هذا التقليــد الذى وصل الى حد مجاراة الخصــم فى طريقة الأكل •• والمشى •• والتشـــدق بالكلام !! [15] وفى التمكين لغريزة التقليد •• وعملية هز الشجرة بفرع منهـــا ••

« حاول الاستعمار الأوروبى ـــ فى وقت ما ـــ أن يضع يده على مخبول فى الهند • وآخر فى ايران ليصنع منهما أنبياء يكابر بهما نبوة محمد ••

وهيهات •• هيهات •• فان الأوروبيين أنفسهم احتقروا الرجل الذى صنعوه • فما تبع أحدهم نبى الهند • ولا نبى العجم • وبدأت اللعبة تتكشف • ونفر عنها المستغلون »[16] •

ولكن الاستعمار لا ييأس أبدا أن يواصل حملته المسمومة ضد الاسلام وأهله باصطناع قيادات تقوم بنفس الدور •• وصولا الى نفس الهدف • وهو تمزيق الاسلام وتشريد أهله • يقول الشيخ محمد الغزالى :

---

(١٣) التوبة : ٤٧ (١٤) آل عمران : ١٠٠

(١٥) راجع « جند الله » سعيد حوى •

(١٦) الدعوة الاسلامية للشيخ محمد الغزالى •

« الحكام الشيوعيون ولوا وجوههم شطر « الكرملين » يأخذون عنه .. والآخرين ينقلون عن الغرب ، وكلاهما صوت سيده فى عداوة الاسلام ورفض هداياته وكراهية أتباعه ..

ولما كان هؤلاء وأولئك حراصا على انتماء اسمى للاسلام مع موالاة أعدائه جميعا فقد رأينا أن نذكر هنا جملا من القرآن الكريم نصف هذا المسلم بدقة .. اننى لم أقرأ هـذه العبارة : « **ويحذركم الله نفسـه** » الا فى تناول هؤلاء الحكام لقد وردت مرتين خلال بضعة سطور من المصحف الشريف . الأولى : « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أوليـاء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقـاة ، ويحذركم الله نفسـه** »(١٧) ثم بين جل شأنـه أنه خبير بالضمائر ، وأنه يعرف من يخون الاسلام ومن يصون بيضته ، يعرف من يتصرف ضده وضد رجاله ، ومن يحنو على أمته ويمكر لهـا لا عليـها لذلك قال تعالى :

« **قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمـه الله ، ويعـلم ما فى السموات وما فى الأرض ، والله على كل شىء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينـها وبينـه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسـه** »(١٨) .

وهذه هى الثانية فى سياق الكلام عن موالاة العدو ..

والغريب أن أدعياء الاسلام هؤلاء الذين بطشوا برجاله بلغوا فى الفتك والسفك مدى يقصر عنه الكفار المجاهرون بعداوتهم ..

وقد رأيت فى أقطار شتى أن الذين قتلوا ابان الاستعمار الخارجى كانوا أقل عددا من الذين قتلوا فى ظل الاستعمار الداخلى !! ..

لذلك كان الاشتغال بالدعوة الاسلامية والسعى لاعادة الشرائع المفقودة عملا منطويا على مخاطر شداد » !!

* * *

---

(١٧) آل عمران : ٢٨ (١٨) آل عمران : ٢٩ ، ٣٠

نماذج وصــور :

وتطالعنا الأيام بصور مختلفة لمحاولات القوم •• الذين يرصدون خطى الاسلام وتحركاته •• بما يؤكد نيـاتهم المنعقدة على التمكين لدينهم •• على حساب الاسلام كما قلنا •

١ ــ لاحظ كثير من نزلاء الفنادق فى كثير من دول الغرب وجود نسخة من الانجيل فى كل حجرة •• لتكون فى استقبال النزيل الجديد ! والنسخة مطبوعة طبعا أنيقا •• جاذبا للانتباه •• دافعا للقراءة ••

٢ ــ عندما أراد وزير خارجية روسيا زيارة « الفاتيكان » أعلن المتحدث باسم البابا : أن من أهم الموضوعات التى سيتناولها البحث : وضع الأقليات المسيحية فى الاتحاد السوفييتى ••

هكذا يعلن المتحدث الرسمى بلا مجاملـة قد تفرضهـا الظروف أحيانا ••

٣ ــ دعت « اليزابث » ملكة بريطانيا أخيرا الرياضى الانجليزى المنافس للبطل المسلم « محمد على كلاى » •• دعته الى حفل غداء فى قصرها وأبدت الملكة رغبتها فى ضرورة انتصار الرياضى الانجليزى على البطل المسلم •• وتتبسط الملكة •• وتتجاهل ما تفرضه طبيعة الملك من مراسم وهالات •• انتصارا لدينها •• وتغلبها الرغبة فلا تخفى أمنيتها •• لكنها تصرح بها تصريحا تتناوله وكالات الأنباء •

ان دور الاسلام ليأخذ أهمية خاصة •• ما دام الوضع هكذا •• فليست هى المعركة التقليدية التى يرتفع غبارها يوما • ثم تضـع أوزارهـا •• ولكنها حرب تدق لها طبول •• على كل المستويات •• وبكل الوسائل •• وترصد لها أذكى العقول •• وأكبر الميزانيات ••

وهذا شاهد على ما نقول •• من واقع النشاط الدائب لحركات التبشير •• يتقاضانا مزيدا من الوعى والمعرفة بعدونا ••

المسيحية تكتسح القارة الأفريقية(١٩)

سوف تكون سنة ٢٠٠٠ سنة فخر لأفريقيا دون بقيـــة القارات الأخرى اذ يصبح أكثر سكانها من المسيحيين • لأن النسبة الحالية للارتداد الى المسيحية قد بلغت مليون نسمة سنويا باستمرار وهـــذا الاحصاء حسبما يراه كل المتحدثين المسئولين عن الكاثوليك والانجليكان فى واشنجتون عند الحديث عن وضع الارسالية ومبعوثيها فى أفريقيا •

وهذه نظرية قالها داود باريت فى الستينات •

ويؤيده فى الرأى « كانون بيرجس كار » الأمين العـــام لمؤتمر كنائس عموم أفريقيا • ولكنه تقدم خطوة أخرى فى الحديث عن « أفرقة المسيحية » بما قرره من أن نموهـــا سيكون أسرع فى الكنيسة الكاثوليكية منه فى الكنيسة البروتستانتية • من حيث يجد الأفارقة « الكاثوليكية » أكثر ملاءمة لهم •

ان الاحصاء العددى لسكان أفريقيا سنة ١٩٧٦ بما فيهم عرب الشمال بلغ ٤٣١ مليون نسمة • والكنيسة الكاثوليكية تملك مليونا ونصف مليون كنيسة فى جنوب أفريقيا وأعضاؤها يبلغون ٤٦ مليونـــا حسب احصائية قام بها الفاتيكان •

وفى السنين الأربع المـــاضية بلغ معدل من يدخل فى المسيحيـــة مليون شخص سنويا •

ويزيـــد عـــدد البروتستانتيين عن غيرهم فى الفرق المسيحيـــة بخمسة وستين مليونا • يعتبر رجال الكنائس الأمريكية أنه لا تقصير فى ازدهار المسيحية فى أفريقيا فى المظهر العالمى الذى بلغ عدد المسيحيين فيـــه أكثر من ١ر٢ بليون نسمة • فنجاح الأنجلكانيـــة واستمرارها فى مشاريع المساعدات للأفراد هنا أكثر فاعلية • وتقسيم الأعمال مبنى على أساس أن اللوثريـــة مثلا نشطة فى الاذاعة بجانب عملهـــا فى

---

(١٩) ترجمة لمقال نشرته مجلة توزى فوتيت انترناشيونال الصادرة فى بلجيكا عدد ٢٣ مايو ١٩٧٧

المناقشات التقليدية المتطورة • واعطاء المعونات الفردية للكنائس والمستشفيات وللبرامج الزراعية الأهلية • فى الحبشة يباشر العمل فى محطة الاذاعة • فصوت راديو « اذاعات الانجيل » مجهز بأشرطة التسجيل ويعمل فى كل الميادين • ويذيع فى الأستديوهات الفرعية الصغيرة فى كل من أثيوبيا وأفريقيا الجنوبية الغربية والكاميرون وامبراطورية أفريقيا الوسطى ومدغشقر ونيجيريا وجنوب أفريقيا وتنزانيا •

وقد رتبت البرامج على أن تكون باللغات الأمهرية الأثيوبية والفولادية فى الكاميرون •

أما الشئون الطبية العلاجية فتقوم بها « الادفنت » التى تملك عشر طائرات ارسالية مهمتها نقل الأطباء والمرضات لعلاج المرضى فى الأحراش •

وقد أنشأت خمسة عشر مستشفى وباشرت العمل فيها • وبلغ عدد الأسرة فيها ١٧٧٦ سريرا •

وخمسة من هذه المستشفيات خاصة للجزام • وهناك الى جانب ذلك أكثر من ١٠٩ عيادة ومخزن أدوية وهناك مائة وثلاثة وستون من بين الثلاثة أرباع المليون من الأدفنتيين يعملون فيما وراء البحار •

ان « ر • م • رينهارد » البالغ من العمر ٢٧ سنة — وهو محارب قديم أدى واجبه العسكرى فى أفريقيا ويقوم الآن بعمل أمين الصندوق المساعد للمؤتمر العام للأدفنتيت • قال :

« ان هذه المنظمة غير سياسية النزعة • وفرقتها عبر أفريقيا قوية • والمركز الرئيسى فى ساليسبورى يباشر كلا من روديسيا وجنوب أفريقيا : مالاوى وزامبيا وزائير وأفريقيا الجنوبية الغربية « ناميبيا » ورواندا وبورندى •

وعكس ذلك فان الكنيسة المسيحية المتحدة التى هى مرادفة

للكنيسة الطائفية فى جنوب أفريقيا تعتبر نفسها — سياسيا — نشطة وتساعد بقوة حركات السود ، وهى — فى نفس الوقت ضد التفرقة العنصرية » .

وقد عقدت هذه الكنيسة « محاور متحدة » بين العناصر المختلفة من الأساقفة والشيخيين والميتوديستيين بالقرب من مدينة آليس سنة ١٩٧٥ . فى الوقت الذى اتخذت حكومة جنوب أفريقيا اجراء الغائها ونقل نشاطها الى مدينة « أومتاتا » فى « ترانسكى » التى تقوم الآن بالتدريس خارج المخيمات . ويلاحظ الأب « سيمون . ى . سميث » السكتير التنفيذى لارسالية « جوسييت » فى واشنجتون والذى رجع حاليا من زائير : أن الأفارقة يجب أن ينبذوا البقية الباقية من الاستعمار » .

ولتحقيق هذا « التغيير السياسى المفاجىء » فان الارسالية فى أفريقيا يجب أن ترضى اليوم بأن يكون العمل تحت قيادة الزعماء السود .. لكى تخدم الكنيسة . وليس بقيادة جماعة من المتوحشين الظالمين . وأبلغ الأب « سميث » فى تقريره هذا أن هناك ١٥٠٠ من الجوسيثين فى أفريقيا الآن . وأن ثلث هؤلاء من السود الذين هم فى اطراد ويتولون الأعمال المصيرية الهامة . « لوريان روجا صبوا » من تنزانيا هو أول كاردينال أسود من هذه الفرقة . وهو أحد الاثنى عشر من الكرادلة الكاثوليكيين فى هذه القارة : عشرة زملائه أفريقيون . واثنان فقط من البيض .

ومن بين ٣٠٠ أسقفا كاثوليكيا فى أفريقيا يوجد ١٩٥ منهم من الأفارقة ومعظمهم من السود يخدمون فى شرق وغرب ووسط أفريقيا .

رئيس جمهورية ليبيريا « وليم . ل . توليير » يشبه رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية « جيمى كارتر » فى أنه معمدانى وعضو عامل فى الكنيسة :

ففى سنة ١٩٦٠ صار أول أسود اختير رئيسا للجمهورية فى الاتحاد المعمدانى العالمى وخدم مدة الرئاسة خمس سنوات وما زال يعمل قسا

فى الكنيسة المعمدانية فى أفريقيـا بقرب منزله فى « بيونسون ذيل » فى ضاحية « مونروفيا » والدليل على فخر المعمدانية فى أفريقيا وجود ١١١٠٠٠ محطة ارسالية فى ٣٨ بلدة ومجموع أعضائها من الوطنيين السود هو ٨٢٦٠٠٠ عضوا ٠

ولكن العلاقات المعمدانية أكثر قوة فى كل من زائير ونيجيريا ٠

والثقة تعطى أملا أكثر فى نظرية سنة ٢٠٠٠ من زيادة استقلال الكنائس الافريقية ٠

فهنـاك منذ العشر سنين المـاضية سعى الى توحيـد الفـرق البروتستانتية فى الكنائس الاتحادية مثل اتحاد كنائس زامبيـا ومالاوى والشعوب الأخرى ٠

ولكن هل يعيش الدين المنظم مع النكسات مثل التغير الوضعى الذى قام به رئيس جمهورية أوغندا « عيدى أمين » نحو المسيحيين ٠

ان رد فعل واشنجتون فى هـذا الموضوع متضارب :

ان عضو مجلس شيوخ ايداهو « غرامك شريس ثانى » العضو القوى فى لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ يشعر بأن حوادث أوغندا الحاليـة هى استعراض قبيح للضغط على حقوق الانسان ٠ ويقول ذلك العضو مستطردا :

« ان المشكلة الحساسة فى هـذه السنين هى مستقبل الارساليات المسيحية لا سيما الارساليات البيضاء فى الشعوب السوداء ٠

ان زيادة الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية هى اعتراف صريح بتقدير أعمال هـذه الكنائس ٠ وقد ينظر اليها تارة على أنها تعطى صورة عن ذكرى غير مستحسنة عن أيام الاستعمار ٠ ان الموضوع الأساسى المهدد بالخطر فى أفريقيا اليوم هو :

حقوق الانسان التى منها حرية الأديان ولكن رغم هـذه المشاكل ٠ ولأجل هـذا التقدم فان أكثر الارساليات المسيحية فى أفريقيا تريد

العودة الى القارة السوداء فالراهبة البيضاء « تريس » الكندية الفرنسية المشرفة على بيت راهبات واشنجتون فى أفريقيا لخصت الهدف العام للارسالية — وتمثلت بالقول السائر المشهور لدى كثير من المحاربين القدماء الذين حاربوا فى أفريقيا : « من شرب من مياه أفريقيا فانه سوف يعود اليها مرة أخرى » • « وثيقة محفوظة لدى رابطة العالم الاسلامى » •

* * *

كيف انتشر الاسلام ؟

لم تكن بالمسلمين حاجة الى حمل غيرهم على الاسلام حملا •• وانما هى الحقيقة تعرض •• ولا تفرض •

ان الاسلام — كما قيل بحق — نعمة كبرى • والنعم لا تفرض أبدا بالحرب • وانما ينالها من يستحقها •

ان التعصب الأعمى لدين ما •• هو الذى يحمل على استعمال القوة لفرض مبادئه • ولم يكن دعاة الاسلام متعصبين • بل كانوا نماذج حية فى باب الأخلاق والسلوك •• وفتحت الشعوب المغلوبة أعينها على هـذه النماذج الطيبة • والتى لا عهد لهم بأمثالها ••

واذا كان المغلوب مولعـا بتقليـد الغالب •• فقد حاول الشعب المغلوب أن يقلد نماذج بشرية شعارها : الرحمة بالمغلوب ••

وليس شعارها : ويل للمغلوب !

ولم يتم التقليد فى ظل قوة غاشمة مستبدة • وانما تم فى ضوء قوة أخلاقية تستمد قوتها من الايمان بالله عز وجل •

« والنفس الانسانية القوية بأخلاقها • تتسنم القمم العاليـة • ومن فوقها تفيض على الأدنى برا وعدلا ورحمة » •

والأمثلة كثيرة تؤكد الفرق بين الشعارين :

« كان التاجر الهندوكى • اذا أراد الاحسان على فقير ألقى اليـه ما يريد اعطاءه اياه بعيدا عنه •

ولم يكن يحق للفقير أن يتقدم لأخذ هـذا الاحسان المهين الا بعد

أن يبتعد السيد .. فاذا بالاسلام يجعل لهذا الفقير « حقا » فى مال الغنى يأخذه بأمر الدين وعزته . دون امتهان نفسه »[1] .

وكان المسلمون الفاتحون يصدرون عن قاعدة : الاستصلاح .. خير من الاجتياح .

« فاستصلاح العدو أحزم من استهلاكه . لأن استهلاكه ربما هيج أعظم من العداوة . التى تستريح منها »[2] .

« تسابق شاب مصرى ، مع ابن عمرو بن العاص ، فسبقه المصرى ، فعلاه ابن عمرو بالسوط يضربه ، ويقول له : أتسبق ابن الأكرمين ؟

فنشط الشاب المصرى الى عمر : أمير المؤمنين وشكا اليه الظلم الذى وقع به ، فأبقاه عمر بالمدينة ، وأرسل الى عمرو يستدعيه هو وابنه ، فقدما الى المدينة . واطمأن عمر العادل الى صدق الدعوى ، وأحضر الشاب المصرى ، وأعطاه السوط ، وقال : اضرب من ضربك ، فأخذ يضربه ، وكلما استأنى قال له : زد ابن الأكرمين ، حتى اشتفى الشاب المصرى القبطى ، ثم نحى أمير المؤمنين عمامة عمرو عن رأسه ، وقال للشاب : اضرب على صلعة عمرو ، فباسمه ضربك ، فقال الشاب : لقد ضربت من ضربنى يا أمير المؤمنين ، فالتفت الفاروق الى عمرو ، وقال له تلك الكلمة النورانية الخالدة التى يترنم بها المسلمون وغير المسلمين الى اليوم . قال : « منذ كم يا عمرو تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟ ..

ولعلهم رأوا عمر بن الخطاب يعيد اقامة حد الشرب على ابنه خشية أن يكون عمرو بن العاص قد حاباه فى اقامته بمصر ، وقد رأوا ذلك رأى العيان ، وأى عدل أعلى من هذا ؟

وهكذا .. نرى أن العدل فى ذاته دعاية قوية الى الحق ، لا توجد دعاية أقوى منه بيانا ، وأشد برهانا »[3] .

---

(١) د . حسين مؤنس — الاسلام الفاتح ص ٤٨

(٢) الثعالبى : الايجاز والاعجاز .

(٣) من بحث للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة .

ماذا فى المشهد من معان ؟

- ان الاندماج واضح بين المسلم الفاتـح •• والمصرى صاحب الأرض ! هذا الاندماج الذى وصل الى رفع الكلفة بين الغالب والمغلوب الى حد ضمهما سباق حر ••

فليست هناك غطرسة الرومان المسيحيين •• والتى أبت أن تتلاحم مع الشعب المصرى •• فجاءها الفتح الاسلامى خيرا وبركة وتعاونا على البر والتقوى •• فلما سبق المصرى •• تميز ابن القائد من الغيظ وضرب الشاب المصرى الفائز ! ولم ييأس المضروب أن يبتلع الظلم الواقع •• وسافر من مصر الى المدينة •• راكبا أهوال السفر •• مدفوعا باحساسه الحاد بالظلم ••

ولولا يقينه بالعدل فى منطق الاسلام كما رآه بعينـه فى ضوء الفتح الاسلامى ما تحمل مشاق هـذا السفر الطويل ؟

واستضافه الخليفة حتى يستدعى عمرا وابنه •• فلما تأكد من صدق قول الرجل •• أمره بالقصاص •• حتى من القائد الفاتح نفسه •• فما كان لابنه أن يشتط الا بجاه أبيه !

ولم يشفع لعمرو ولا لابنه بلاؤهما الحسن فى نشر كلمة التوحيد •• فمهمة الجيش أساسا ارساء دعائم العدل •• فاذا اهتز العدل كقيمة •• فقد ذهبت ثمرة الحرب •• ولم تكن للفتح فائدة • ولا شك أن وصول الخليفة بالعدل الى هذا المستوى العالى •• والذى أحيط المصريون به علما •• كان له الأثر الفعال فى دخول الناس فى دين الله أفواجا •• وذلك هو مربط الفرس كما يقولون ••

فلم تكن الحرب شريعة فى منطق الاسلام •• ولكنها الضرورة التى تقدر بقدرها •• ولقد سماها الاسلام « الجهاد » لتكون فى نفس الجندى المسلم معاناة ومقاومة لنوازع الانتقام •• بقدر ما هى ارهاب للعدو وتقليـم لأظافره قبل أن يخوض معركة يفر الاسلام منها •• ويضع العراقيل بين يديها حتى لا تكون •• كل ذلك •• لتجد الدعوة طريقها الواسع السهل الى قلوب الناس ••

ولتقول الأخلاق العمليـــة كلمتها •• ولا يكون هناك داع لكلمة السيف التى ان أسكتت الألسنة •• فلن تحمل القلوب على الاقتناع •

ومع هـــذا كله فقد ظل أعداء الاسلام يرمونه بدائهم وينسلون !

وتلك واحدة من تجارب الاسلام مع غيره من المذاهب الباطلة والأعلام الجاحدة ••

« لم تخل فترة من فترات التاريخ الاسلامى من قيـــام معارضة حاقدة على مثله العادلة ، وموازينه الهادفة ، وتلك سنة الطبيعة فى ايجاد دوافعها الباعثـــة على اليقظة والحذر ، ولكن العهد الأول من تاريخنـــا الزاهر قد استطاع ان يتغلب على مناوئيه ، لأنه بدأ قويـــا نزيهـــا يحرص على قيـــم الانسانيه المثالية التى خلدها كتاب الله : من حرية وعزة واخاء وعدالة ومساواة • واستطاع بهذه القيـــم الانسانية الخالدة أن يضع الموازين بالقسط وأن يرفرف علمه فى مدى قرن واحد على أرض شاسعة لم تستطع الامبراطورية الرومانية أن تبلغ مداها فى مدى ثمانية قرون ! ، وقد يخطىء كل الخطأ من يرجع فتوح الاسلام الى قوته الحربية وحدها ، فكم قوة كاسحة من قبله ومن بعده قد فعلت أكثر مما فعلته قوة الاسلام ، ثم انتقض عليـــها البناء مرة واحدة ، بحيث أصبحت فتوحاتها سرابا لا يغل غير الحسرة والالتياع ، ولكن قوة الفتوح الاسلاميـــة تكمن فى قيمة الانسانيـــة الرائعة التى جعلت نصارى تغلب — على سبيل المثال — يتركون اخوانهم فى الدين ليعملوا تحت راية الاسلام فى حروب الروم ، والتى جعلت عتاة التتار ينتصرون على الاسلام فى وقائع حاسمة ، ثم يسلمون اليه القياد عن طواعية ، فيدخل الغالبون فى دين المغلوبين ، وتلك من أعجب الخوارق النادرة فى التاريخ ! لأننا نعلم أن للغالب المنتصر بريقا لا يقاوم ، فاذا استطاع المغلوب على ضعفه الواهن أن ينتصر عليـــه بما لديـــه من قيـــم مثالية ، ومبادىء انسانية يضمها دينه الكريم ، فان عظمة هـــذا الدين لا تجحد ، ومن يتعرض لهـــا بتشكيك فانه يخالف طريق النظر الصحيح عن قصد أو عمـــاء »(٤) •

(٤) النهضة الاسلامية — د • محمد رجب البيومى •

وما تزال الحملة مستمرة للتهوين من قدرة الاسلام الذاتية على الانتشار .. وما زال بعض الباحثين يزعـم أن الاســلام قد انتشر بالسيف !

يزعمون ذلك متجاهلين تاريخ الاسلام المجيد .

هذا التاريخ الشاهد بحق أن الاسلام لم ينتصر بالسيف . ولكنه ــ كما قيــل ــ انتصر على السيف .

والفرق واضح بين الجملتين .

لقد استطاع الاســلام بقوتــه الذاتيــة أن يتخطى العقبات عبر التاريخ .

ولو تعرض دين ســواه لبعض ما تعرض له . لذاب فى دوامة المحن .

ولكنه بقى بحفظ الله اياه . وقدرتــه الخارقة على مزاملة الحيــاة المتجددة . وتطويعها بالمنهج الربانى .

وبما منح الله المسلمين من حيوية فائقة . وصلاحية للحركة المباركة .. وتمثل مبادىء الاسلام المباركة .

سأل هرقل قومه وهو فى أنطاكية حين جاؤه منهزمين أمام المسلمين :

ويلكم ! .. أخبرونى عن هؤلاء الذين يقاتلونكم .. اليسوا بشرا مثلكم ؟ .. قالوا : بلى .

قال : أفأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن . فقال : فما بالكم تنهزمون ؟ فقال له شيخ من عظمائهم :

نحن ننهزم وهم ينتصرون من أجل أنهم يقومون الليل . ويصومون النهار . ويوفون بالعهد . ويأمرون بالمعروف . وينهون عن المنكر . ويتناصفون بينهم . أما نحن : فنشرب الخمر ونزنى . ونركب الحرام . وننقض العهد ونظلم »(٥) .

* * *

---

(٥) راجع كتب السيرة .

فى رأى أحد الباحثين : تقوم العسكرية الغربية على مبدأ : كثير من السلاح ٠٠ وقليل من الأرواح ٠

بينما المبدأ فى دول الكتلة الشرقية : كثير من الأرواح ٠٠ وقليل من السلاح ٠

وأصحاب المبدأين منطقيون مع أنفسهم :

فبلاد الغرب :

(أ) غنيــة ٠

(ب) تصنع السلاح ٠

(جـ) وللفرد هناك كرامته ٠

ومن ثم تسرف فى السلاح ٠ وتضن بالأرواح ٠

بينما الأمر على العكس فى دول الكتلة الشرقية ٠٠ الفقيرة فى العتاد ٠٠ الكثيرة فى الأفراد ٠

أما فى الاســلام :

بالنسبة للسلاح : يحض على الاعداد ٠٠ بل على اعداد أقصى ما يستطاع منها ٠

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيــل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيــل الله يوف اليــكم وأنتم لا تظلمون »(١) ٠

---

(١) الانفال : ٦٠.

ويلاحظ أن الاعداد المـأمور به فى الآيـة الكريمة يراد به : الارهاب ••

ارهاب العدو ومن وراءه ممن يزينون له الشر •• حتى يخاف ويرتدع •• ولا تكون حرب بالمرة ••

اذن فهو يعد السلاح ليحفظ الأرواح • من الجانبين على سواء !

فعسى الله أن يخرج من أصلاب الأعداء من يعبد الله تعالى وهو ما حدث بالفعل ••

فاذا جنح الأعداء للسلم • فهى الفرصة التى ينتهزها المسلمون والتى يتقاضـاهم اسـلامهم أن يذعنوا لهـا وذلك قوله عز وجل : **« وان جنحوا للسـلم فاجنح لهـا وتوكل على الله ، انه هو السميـع العليـم • وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين •• »**(٢) •

فاذا وقع الصدام فعلا • فان الاسلام لا يتخلى أبدا عن مبادئه السامية • وتقديره لكرامة الانسان ••

وما يزال المسلم مرتبطا بهدفه الذى حدده الاسلام لا يشرد عنه وراء نزوة • يقول سبحانه وتعـالى : **« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيـاة الدنيـا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتـل أو يغلب فسوف نؤتيـه أجرا عظيما »**(٣) •

انه قتال محكوم بهدفه وهو : « فى سبيل الله » لا فى سبيل الهوى •

ثم هو القتال المفروض على الأمة الاسلامية كرد فعل لتعسف القوى المعتدية المدلة بقوتها وعتادهـا •• وهو بهذا المعنى آخر الدواء •• ولا دواء سواه ••

---

(٢) الانفال : ٦١ ، ٦٢ (٣) النساء : ٧٤

يقول الحق سبحانه : **« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »**(٤) •

ان القتال هنا لم يكن بسبب نزوة طرأت فى صدور المسلمين •• أو شهوة منهم لسفك الدماء بلا سبب •• وانما هو الاذن الصادر اليهم من جهة أعلى : **« أذن •• »** •

ثم هو قتال لا يأخذ شكلا هجوميا •• وانما هو قتال للدفاع عن النفس ضد الذين أعلنوا عليهم الحرب فعلا : **« للذين يقاتلون •• »** بفتح التاء ، وكان المتوقع أن تصرح الآية الكريمة بالمأذون فيه • فتقول مثلا : أذن للذين يقاتلون •• بالقتال ••

ولكن السياق طوى القتال زهدا فيه •• ليحل محله سببه وهو أنهم **« ظلموا »** تعجيلا بالسبب • وكسبا لتأييد المعترضين على رد العدوان الظانين بالمسلمين ظن السوء •• حتى لا تكون القضية : هل قاتل المسلمون أم لا •• ولكن القضية : أنهم مظلومون •• وهذا هو المطلوب احاطة المستمع به علما •

ولا يحسبن أحد أن قلة عدد المسلمين • وندرة عتادهم مانعة لهم من النصر ليظل المشركون فرسان الحلبة •• كلا فالله معهم بحوله وطوله : **« وان الله على نصرهم لقدير •• »** •

وكيف يستغرب أن يهب المسلمون للدفاع عن أنفسهم •• وقد : **« أخرجوا من ديارهم بغير حق •• »** •

---

(٤) الحج : ٣٩ ــ ٤١

ولم يكتب عليهم الجلاء من وطنهم لجريمة ارتكبوها ••

ولم يكن هناك من سبب **« الا أن يقولوا ربنا الله »** •

أى أن « المقتضى » لخروجهم فى نظر الوثنيين كان ينبغى أن يكون « مانعا » من هذا الخروج ••

واذا كان ولابد من جــلاء •• فليبق الموحــدون •• وليرحــل المشركون ! بيد أن ذلك كله يتم طبق سنة من سنن الله تعالى فى المجتمع البشرى •• ليبقى الأصلح دائما بهذا التدافع وحتى لا ينفرد المبطلون بالبقاء ولتظل كلمة التوحيد باقيــة على مدار الزمان : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيــها اسم الله كثيرا •• »** •

وسوف يمد الله بنصره من يدفع الثمن من عباده جهادا فى سبيله : **« ان الله لقوى عــزيز •• »** •

وسوف تنتصر القيم الشريفة بهذا التأييد الالهى : **« الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة »** •

يقول المرحوم الدكتور مصطفى السباعى تعليقا على هذه الآيات الكريمة(٥) :

« وما دام المؤمنون كانوا لا يملكون حرية الاعتقاد • فالقتال الذى شرع انما هو لتأمين هــذه الحرية • التى هى أغلى ما يعتز به الانسان من قيــم هــذه الحياة •

ثم بين الله تعالى أن هذا القتال الذى شرعه للمؤمنين ليست فائدته فى تأمين الحريــة الدينية لهم وحدهم • بل يستفيد منها أتباع الأديان السماوية الأخرى • وهى اليهودية والنصرانية ••

فان المسلمين كانوا يومئذ يقاتلون وثنيين لا دين لهم •

---

(٥) السيرة النبوية ص ١١٠ ، ١١١

فاذا قويت شوكتهم استطاعوا أن يحموا أماكن العبادة لليهود والنصارى مع حمايتهم للمساجد • كي لا يستعلى الوثنيون والملحدون فيحاربوا الديانات الالهية • ويغلقون أماكن العبادة لها • وذلك واضح فى قوله تعالى فى تلك الآية : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ٠٠ »** الآيـــة •

والصوامع : هى أماكن الخلوة للرهبان • وتسمى الأديرة •

والبيـــع : هى كنائس النصارى • والصلوات هى كنائس اليهود •

وبذلك يتبين بوضوح أن القتال فى الاسلام ليس لمحو الديانات السماوية وهدم معابدهـــا • بل لحماية هـــذه الديانات من استـــعلاء الملحدين والوثنيين عليـــها • وتمكنهم من تدميرها واغلاقها •

وفى الآية الثالثة تصريح بالنتائج التى تترتب على انتصار المؤمنين فى هـــذا القتال المشروع •

فهى ليست استعمار الشعوب • ولا أكل خيراتها • ولا انتهاب ثرواتها • ولا اذلال كراماتها •

وانما هى نتائج فى مصلحة الانسانية ولفوائد المجتمعات ٠٠ فهى :

(أ) لنشر الســـمو الروحى فى العـــالم عن طريق العـــبادة : **« أقاموا الصلاة ٠٠ »** •

(ب) ولنشر العدالة الاجتماعيـــة بين الشعوب عن طريق الزكاة : **« وآتـــوا الزكاة ٠٠ »** •

(جـ) ولتحقيق التعاون على خير المجتمع وكرامتـــه ورقيـــه : **« وأمروا بالمعروف ٠٠ »** •

(د) وللتعـــاون على مكافحة الشر والجريـــمة والفســـاد : **« ونهوا عن المنكر ٠٠ »** •

وحتى فى قمة الانتصارات العسكرية لم تسكر خمرة النصر جنود الاسلام • وفتح مكة شاهد على ما نقول •• وهو يؤكد حرص الاسلام على الدماء أن تراق ••

بل كان ذلك الفتح مبينا •• ضرب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أروع الأمثال فى العفو عند المقدرة ••

وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء •• » •

ولم يشأ أن يفرض كلمة التوحيد فرضا فى ظل هذا النصر المؤزر ••

لكنه أطلق النفوس •• لتجىء اليه فى اليوم التالى بقرار الايمان طواعية واختيارا ••

وسار الخلفاء الراشدون من بعده على هداه : « لما دخل المسلمون بيت المقدس فى الشروق الاسلامى الأول • كانت العاصمة العتيقة فى أيدى الرومان وكان دخولها محرما على اليهود •

وأقبل أمير المؤمنين عمر من جوف الصحراء • يتألق جبينه بشعاع الوحى الخاتم • وتمشى فى خطاه معالم التوحيد الحق •

قال التاريخ : كان التواضع المذهل يكسو موكبه الساذج • وكان الرجل الذى قوض صرح الدولتين العظيمتين فى العالم يتحرك مطرق الطرف خاشعا لله • فوق رحل رث • وبين حاشية مستكينة يقول بصوت رهيب : كنا نحن العرب أذل الناس • حتى أعزنا الله بالاسلام • فمهما ابتغينا العز فى غيره أذلنا الله •

ولم يقل عمر : الويل للمغلوب !

بل أمن النصارى على كنيستهم • وقرر حرية العبادة • ثم شرع يرسى قواعد الدولة الجديدة على التقوى والعدالة • والمرحمة »[٦] •

---

(٦) الشيخ محمد الغزالى ــ هموم داعية ص ٣٩ ، ٤٠ .

والغريب أن الكتاب الغربيين المغرضين يعرفون هــذه الحقائق •• وفى نفس الوقت يروون ما فعل الصليبيون حينما دخلوا بيت المسجد •• من فظائع تقشعر لهــا الجلود •• بلغت فى بعض صورهــا أن تجاوزت جثث المسلمين الأبرياء أبنية المنازل فى ارتفاعها ••

وسالت الدماء أنهارا •• كما اعترفوا هم بذلك • ومع ذلك يقولون انتشر الاسلام بالسيف • ولكن اذا لم تستح فاصنع ما شئت •• وقل ما شئت !! ••

والمسلم يقاتل وملء عينيه الآخرة •• وما يفرضه ذلك من قيود على حركته لتظل محكومة بهدى الاســلام • حتى فى أحرج لحظات المواجهة ••

« **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليــوم الآخــر** »[7] •

« **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنــة ويكون الدين كله لله** »[8] •

« **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونــكم ولا تعتدوا** »[9] •

وقد تكفلت الوقائع • ببيان حكمة الاسلام فى المجال العسكرى • والتى تؤكد أن القتال لم يكن هدفا فى ذاتــه • ولكنه تأمين لحركة الدعوة[10] • يتوج فى النهاية بحضارة لا عهد للمغلوب بمثلها عدلا وأمنا •

---

(٧) التوبة : ٢٩ (٨) الأنفال : ٣٩

(٩) البقرة : ١٩٠

(١٠) يقول ابن رشد فى مقدماته على مدونة الامام مالك : « اذا حميت أطراف المسلمين . وسدت ثغورهم سقط فرض الجهاد عن سائر المسلمين » ص ٢٦٣ مقدمات ابن رشد . ويقول الشربينى فى مغنى المحتاج ج ٤ ص ٢١٠ : « ويحصل فرض الكفايــة بأن يشحن الامام الثغور بمكافئين للكفار . مع احكام الحصون والخنادق . وتقليد الأمراء » .

ويقول العز بن عبد السلام فى قواعد الأحكام ج ١ ص ١١٢ : « ان الجهــاد لا يتقرب به الى الله من جهة كونه افسادا . وانما يتقرب به من جهة كونه وسيلة الى درء المفاسد وجلب المصالح ، ولو كان باعث القتال فى الاسلام هو كفر الأعداء لمــا استثنى الشيوخ والأجراء والنساء .. مع أنهم كفار » .

وكتب السيرة وأبواب الجهـاد فى كتب الفقه حافلة بقواعد الجهـاد الضابطة لحركة المقاتل المسلم حتى لا يشتط به المزار ولتبقى للكلمة الطيبة والقدوة الحسنة فصل الخطاب فى دخول الناس فى دين الله أمواجـا ..

وننقل هنا تعليقا للمرحوم الدكتور مصطفى السباعى يبين فيـه آداب الاسلام العسكرية بصبغتها الانسانية العالية . يقول : « ولا شك فى أن النهى عن قتل الضعفاء . أو الذين لم يشتركوا فى القتال . كالرهبان والنساء . والشيوخ والأطفال . أو الذين أجبروا على القتال كالفلاحين والأجراء — العمال — شىء تفرد به الاسـلام فى تاريـخ الحروب فى العالم .

فما عهد قبل الاسلام ولا بعده حتى اليوم مثل هـذا التشريع الفريد . الملىء بالرحمة والانسانية .

فلقد كان من المعهود والمسلم به عند جميع الشعوب : أن الحروب تبيح للأمة المحاربة قتـل جميع فئات الشعب من أعدائها المحاربين بلا استثناء . وفى هـذا العصر الذى أعلنت فيه حقوق الانسان . وقامت أكبر هيئة دوليـة عالميـة لمنع العدوان . ومساندة الشعوب المستضعفة كما يقولون . لم يبلغ الضمير الانسانى من السمو والنبل حدا يعلن فيه تحريم قتل تلك الفئات من الناس . وعهدنا بالحربين العالميتين الأولى والثانية تدمير المدن فوق سكانها . واستباحة تقتيل من فيها تقتيلا جماعيا .

كما كان عهدنا بالحروب الاستعمارية ضد ثورات الشعوب التى تطالب بحقها فى الحياة والكرامة .

ان المستعمرين يستبيحون فى سبيل اخماد تلك الثورات تخريب المدن والقرى وقتل سكانها بالآلاف وعشرات الآلاف .

كما فعلت فرنسا أكثر من مرة فى الجزائر . وكما فعلت انجلترا فى أكثر من مستعمرة .. وكما تفعل اليوم البرتغال فى مستعمراتها فى أفريقيـا .

كما أننا لم نعهد قط في تاريخ شعب من شعوب العالم القديم والحديث النهى عن قتل العمال والفلاحين • الذين يجبرون على الحرب جبرا ••

ولكن الاسلام جاء قبل أربعة عشر قرنا بالنهى الصريح عن قتلهم •

ولم يقتصر الأمر على مجرد النهى تشريعا • بل كان ذلك حقيقة وواقعا :

فهنا في معركة حنين ترى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو صاحب الشريعة ومبلغها عن الله الى الناس يغضب لقتل امرأة ويرسل الى بعض قواده ألا يتعرض للنساء والأطفال والأجراء • وحين جهز جيش أسامة لقتال الروم — قبل وفاته بأيام — كان مما أوصاهم به : الامتناع عن قتل النساء والأطفال والعجزة • والرهبان الذين لا يقاتلون • أو لا يعينون على قتال •

وكذلك فعل خليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه • حين أنفذ بعث أسامة • وحين كان يوجه الجيوش للقتال في سبيل الله • وكذلك فعل سيف الله خالد بن الوليد رضى الله عنه في فتوحه بالعراق : فلم يتعرض للأكارين — الفلاحين — العاكفين على زراعة الأرض بسوء •

وهكذا أصبح من تقاليد الجيش الاسلامى في كل مكان • وفي مختلف العصور هـذه المبادىء الانسانية النبيلة • التى لم يعرفها تاريخ جيش من جيوش الأرض • ويدلك على حرص الجيش الاسلامى على هذه التقاليد معاملة صلاح الدين للصليبيين بعد أن انتصر عليهم • واسترد منهم بيت المقدس :

فقد أعطى الأمان للشيوخ • ورجال الدين • والنساء والأطفال بل وللمحاربين الأشداء • فأوصلهم الى جماعاتهم بحراسة الجيش الاسلامى • لم يمسسهم بسوء • بينما كان موقف الصليبيين حين فتحوا بيت المقدس يتجلى فيه الغدر والخسة والوحشية والدناءة •

فقد أمن الصليبيون سكان بيت المقدس المسلمين على أرواحهم وأموالهم • اذا رفعوا الراية البيضاء فوق المسجد الأقصا • فاحتشد فيه المسلمون مخدوعين بهذا العهد ••

فلما دخل الصليبيون بيت المقدس ذبحوا كل من التجأ الى المسجد الأقصا تذبيحا عاما • وقد بلغ من ذبحوا فيه سبعين ألفا من العلمـاء • والزهاد والنساء والأطفال •

حتى أن كاتبا صليبيا رفع البشارة بهذا الفتح المبين الى البابا وقال فيه مباهيا : لقد سالت الدمـاء فى الشوارع حتى كان فرسان الصليبيين يخوضون فى الدماء الى قوائم خيولهم •

اننـا لا نقول اليوم هـذا للمفاخرة والمباهاة بتاريخ فتوحاتنا وقوادنا وجيوشنا • التى قال فيها « لوبون » : « ما عرف التاريخ فاتحا أرحم ولا أعدل من العرب » •

وانما نقول هـذا لننبه الى أننا كنا أرحم بالانسانية وأبر بها من هؤلاء الغربيين وهم فى القرن العشرين والى أن هؤلاء الغربيين حين يتحدثون الينـا عن حقوق الانسـان • ويوم الأطفال • ويوم الأمهات • تدليلا منهم على سمو حضارتهم انما لا يخدعوننا نحن • بل يخدعون السذج والسخفاء • وفاقدى الثقة بأمتهم وتاريخهم ممن يزعمون أنهم أبناؤنا ومثقفونا »(١١) •

فاذا لم تنجح الكلمة الطيبة فى استنقاذ أناس من ضلالهم •• وأصروا واستكبروا استكبارا دفعهم الى حمل السلاح فان من الحكمة والموعظة الحسنة أيضا أن يكون السلاح هو الرد الطبيعى •• ولا يفل الحديد الا الحديـد !! يقول المرحوم الأسـتاذ البهى الخولى(١٢) : « لابد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها • وتصرف اليها قوتها وعلمها • فما هـذه الرسالة ؟ ••

---

(١١) السيرة النبوية للسباعى ص ١٤٦
(١٢) تذكرة الدعاة ص ٤٢ ، ٤٣

هل هى اتساع الملك • وكثرة المستعمرات • والاستيلاء على أراضى الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك أن تكون هـذه اللصوصية وهـذا الفساد فى الأرض رسالة مجيدة ؟ ••

ان علم الله أرفع من يسخر لمثل هـذه المخازى والمـآسى • وان الله عز وجل أرفع من أن يرسم لأوليائه مثـل هـذه الغاية الشريرة الآثمة ••

ان الغاية الفاضلة التى يجب أن تعيش لهـا الدولة الفاضلة •• وتعمل جاهدة لتحقيقها غير ناظرة الى شىء سواها هى :

توحيد الله عز وجل • وجمع الناس على الايمان به وحده • وتطهير الأرض من كل رجس وشرك • حتى تكون كلمة الله هى العليـا • ويكون الدين كله لله •• يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل ••

يجب اقامة النظم السياسية والتشريعية • والعملية التى تكفل استقرار الناس فى ظلال هـذه الغاية •

فان استقر ذلك بالتى هى أحسن • فبها ونعمت •

وان استعصى الأمر على الوسائل السلمية •• فلنتذرع بالتى هى أحسن أيضا •• وليس أحسن فى هـذه الحالة من القوة المسلحة •

فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا : له ما لنا • وعليـه ما علينا • والا فلن نكف عن أعداء الله • حتى تطهر الأرض من رجسهم •

تلك هى الغاية التى يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة •

وقد أثنى الله على المسلمين • وشهد لهم أنهم عاشوا لها •

لتطهير الأرض من الرجس • ولتثبيت دعائم الايمان بالله •

فقال عز شأنه : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** »(١٣) •

---

(١٣) آل عمران : ١١٠

وأثنى على القائد الصالح القوى • صاحب سورة الكهف الذى آتـــاه من كل شىء سببا • أثنى عليـــه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر • وتشجيع أهل الايمان ومعونتهم : « **قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا** »[١٤] •

فوضع لقوته دستورا صالحا • يعذب عليـــه أو يثيب : « **أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا • وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا** »[١٥] •

* * *

---

(١٤) الكهف : ٨٦

(١٥) الكهف : ٨٧ ، ٨٨

الاسلام ينتصر بقوتــه الذاتيــة

قلنا ان المسلمين لم تكن بهم حاجة الى فرض الاسلام بالقوة .. فالاسلام دين الفطرة . التى تستجيب له طواعية لو خلى بينها وبينه . ولولا عوائق البيئـــة والأسرة لكان الناس أمة واحدة على دين الاسلام .. ثم ان مبادئه القويمة مقارنة بغيره من الأديان الأخرى تزرى بكل ما يعتنق الناس من أديان ومذاهب ..

فهو بسيط .. يصون كرامة الانسان .. ويلبى كل حاجاته العقلية والنفسية .. فى الوقت الذى لا يكلف أتباعه شيئا .. فلا يرهقهم من أمرهم عسرا ..

والتاريخ القديم والحديث يؤكد هــذه الحقيقة .. والشواهد عليها أكثر من أن تحصى .

ويمكن القول : ان الاسلام شق طريقه بنفسه .. وما زال سحره الحلال يأخذ بالألباب .. وربما خذله أتباعه زمنا .. فانتصر بقوته الذاتية .. ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أن الحق سبحانه وتعـــالى حين يتحدث عن المعارك بين الحق والباطل يضيف النصر الى نفسه .. ويحدد الدور الحقيقى للجندى المسلم . الذى هو سلاح من أسلحة القدر فى ميدان المعركة .. وواحد من الأسباب التى يحقق الله بها النصر المبين .. والا .. فان النصر أولا وأخيرا هبة من عند الله .. يفهم ذلك من مثل قوله تعـــالى : **« وما النصر الا من عند الله ، ان الله عزيز حكيم »**[1] .

« فــلم تقتــلوهم ولكن الله قتــلهم ، وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »[2] .

« اذا جاء نصر الله والفتح .. »[3] .

---

(١) الانفال : ١٠ (٢) الانفال : ١٧

(٣) النصر : ١

وقد علمنا سبحانه وتعالى أن نستنزل النصر منه سبحانــه : **« .. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »**[٤] .

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين »[٥] .

يقول الدكتور حسين مؤنس :

« أعدت النظر فى المصور الجغرافى لأرى ما فتحنا بجهادنا . وما فتح الاسلام بنفسه بالحكمة والموعظة الحسنة فخشعت نفسى . لأننى وجدت أن الاسلام قد فتح بنفسه أضعاف ما فتحنا ، وأن دعوة الحق فى تاريخنا كانت أمضى من كل سلاح . حتى البلاد التى خضنا المعارك لندخلها كان الاسلام هو الذى فتح قلوب أهلها .. واستقر فيــها .. وجعل بلادهم دياره ، ورأيت الاسلام منذ أكرم الله الأرض به فاتحا مظفرا . يجد طريقه الى القلوب كما ينساب المــاء الطيب فى الأرض فيحييها . فتخضر . ويخرج ثمرا زكيا »[٦] ..

ان الاسلام الفاتح لا يحجبك عن الله تعالى .. ويكفى أن تنطق بالشهادتين لتكون بعد ذلك مسلما .. وتنخرط فى سلك الجماعة الاسلامية لك ما لهــا . وعليك ما عليها .

أما فى الأديان الأخرى . فان سيلا من الأتاوات يرهق الانسان : « فهو يؤدى مالا اذا تزوج . ويؤدى مالا كلما أنجب ولدا . ويؤدى مالا ليعمد الطفل الوليد . ثم مالا آخر ليثبته فى الجماعة المسيحية . بل يؤدى مالا اذا مات له ميت لكى تصلى عليــه الجنازة ..

وبالاضافة الى ذلك يظل الرجل منهم طول عمره تابعا لرجل الدين فى كل ما يتصل بعلاقته بالله سبحانه وتعالى ، فاذا أراد الصلاة . صلى عنه القسيس . ووقف وهو يسمع ولا يملك الا أن يقول : آمين »[٧] .

---

(٤) البقرة : ٢٨٦ (٥) آل عمران : ١٤٧
(٦) الاسلام الفاتح ص ٤ (٧) المرجع السابق ص ١٧ ، ١٨

وأين هذا من موقف المسلم الكريم على ربه حين يدعوه بلا واسطة ويتقرب اليه بلا شفيع •• الا عمله الصالح ••

وفى قوله تعالى : « **وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب ••** »[8] يلاحظ حذف فعل الأمر : قل •• أى : قل لهم انى قريب •• فدل ذلك على أن الصلة بين العبد وربه متاحة ولا تتحمل حتى وضع كلمة : قل •• لتقف حاجزا بين العبد وربه !

وهذا هو المعنى الذى أحس به الداخلون فى الاسلام •• وهو ما افتقدوه فى أديانهم فلم يجدوه ••

« سألت واحدا من هؤلاء المؤمنين الألمـــان فى أحد مساجد برلين : ودينك القديم •• أما كان يجلب الى نفسك هـــذه الراحة • وهو فيما أعلم دين سماوى يعبد أهله الله ؟

قال : أجل •• كنت قبل أن أدخل الاسلام أعبد الله • ولكنى كنت بعيدا عنه • كنت لا أصل اليه الا عن طريق القس • أما الآن •• فانى مع الله حيثما كنت • وهو سبحانه معى حيثما أكون • أستغفره •• وأحمده •• وأشكو اليه همى وألمى • وأحس أنه قريب منى • فتطمئن نفسى وتهدأ • وأجد راحة كبرى •

قلت له : أما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قال ذلك فى محكم كلامه ؟ اسمع هـــذه الآية : « **وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** »[9] •

وقد شهد أعداء الاسلام أنفسهم بهـــذه الحقيقة الشـــاهدة بأن المسلمين فى دعوتهم لم يلجأوا الى العنف •• اعتمادا على جاذبية الاسلام وقوة اندفاعه ونبالة مقاصده •• واذا كانوا يصبغون هذا الاعتراف بشىء من التحريف • فان ذلك لا يغير الحقيقة ••

---

(٨) البقرة : ١٨٦

(٩) المرجع السابق ــ والآية من سورة البقرة : ١٨٦

قال « يولوج » الراهب القرطبى المبغض للاسلام • تعليقا على انتشار الاسلام المذهل فى بلاد الأندلس : « فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون بدخول الناس فى الاسلام • فتطلعت نفوس الناس الى ذلك الاسلام • وودوا لو يتعرفون عليـــه • لعلهم يعرفون السبب فى اختصاص العرب أنفسهم به • وضنهم به على غيرهم • فما زالوا يفعلون ذلك • ويسألون عن الاسلام • ويستفسرون • حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن يدروا » •

وعلى أية حال فشهادة هذا القس تحسب للاسلام •• لا عليه ••

فقد أثبت هنا أن الدخول فى الاسلام كان طواعية واختيارا •• وسواء أكان موقف العرب هنا « مكرا » كما يزعم القس •• أو كان حكمة وثقة بعظمة الاسلام كما نقول نحن •• فالنتيجة واحدة •• وهى : أن الاسلام لم يفرض نفسه بقوة السلاح !

وهو نفسه المعنى الذى قرره زميل له هو القس « يوحنا النقبوس » الذى كان متأسفا لأن العرب لم يلجأوا الى القوة فى فرض الاسلام • اذ لو أنهم فعلوا ذلك لزاد تمسك المسيحيين بعقيدتهم • على مذهب العناد • واباء كل ما يفرض بالقوة •

وقد وعى الدعاة المسلمون هذا المعنى جيدا •• فكانوا على قدر كبير من المرونة فى الدعوة الى الاسلام •• تأسيا برسول الله صلى الله عليـــه وسلم •• الذى لم يكن يساوم أبدا على العقيدة ••

أما فى ما يتعلق بغيرها من الأمور •• وفى مجال العادات والمعاملات •• كانت الحكمة النبوية داخلة بالناس فى دين الله أفواجا ••

فقد قبل صلى الله عليه وسلم أن يصنع له خاتم نقش فيه : محمد رسول الله •• وقبل أن يستقبل الوفود الأجنبية فى حلة غالية الثمن[١٠] استجابة لمـــا تفرضـــه العلاقات الدوليـــة •• المنتهية حتما بما يحقق مصلحة الدعوة ••

---

(١٠) راجع السيرة النبوية . فى هذا الموضوع .

أما حين طلب منه وفد ثقيف أن يبقى لهم « اللات » مدة من الزمن بعد اسلامهم .. حتى لا يصدموا النساء والأطفال فى معبودهم !! .. عندئذ رفض الرسول صلى الله عليــه وسلم أنصاف الحلول .. وأن تكون هناك مساومة على العقيدة .. وما أباح لهم بقاءه لحظات !

وقد يسمح صلى الله عليه وسلم لرجل أن يؤخر اسلامه الى أن تتجمع الظروف ليتخذ قراره بدخول الاسلام — كما فعل مع صفوان ابن أميــة — الذى سأل الرسول أن يمهله شهرين ليفكر فى شأن اسلامه . فوافقه صلى الله عليــه وسلم وزاد على الأجل المضروب مثله .. فسمح له فى أربعة شهور !! ..

انه لم يدخل فى الاسلام بعد .. وهو حر فى أن يدخل أو لا يدخل . أما عندما تعلن ثقيف اسلامهــا ثم تستبقى الوثن مع ذلك .. فذلك ما لا يكون !! ..

وقصة انتشار الاسلام فى الصين راجعة الى مثل هــذه المرونة فى عرض حقائق الاسلام :

فقد درس الدعاة المسلمون أحوال المجتمع الصينى .. وتأكد لهم أن الصينيين يتميزون بكراهة العناصر الأخرى ..

ثم هم ينفرون ممن لم يأخذ بعاداتهم اليومية ..

فماذا فعل الدعاة حينئذ .. وبعد هذه الدراسة اللازمة ؟ :

١ — قرر المسلمون الدعاة أن يسكنوا فى أحيــاء مستقلة حتى لا يطلع الصينيون على أحوالهم فينفرون منهم .

٢ — لم يعلوا المــآذن فرارا من غضب الكهان .

٣ — وحتى المساجد .. فقد بنوها على الطراز الصينى .

٤ — وأكثر من ذلك .. استجابوا لتقليد صارم يقضى بتعليق لافتــة .. فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .. وهو وثنى !! وعلقوها فى جدار المسجد !!

وبعد هذا المدخل الحكيم •• وجد الاسلام طريقه بعد أن مهده الدعاة تمهيــدا ••

ان الاسلام دين « طيار » كما عبر بعض الباحثين •• وهو يطير فى الآفاق بقوته الذاتية كما قلنا ••

واذ يرصد أعداؤه البارود •• والمدافع •• والصواريخ لتفرض مذاهبهم بالعنف والدمار •• واذ يختزنون هــذا الويل انتظارا للحظة الانقضاض •• فان سلاح الاسلام •• غير قابل « للتخزين » •• وانما هو مطلق الحرية •• نافذ المشيئة •• ينطلق عبر القارات •• فوق الحواجز والسدود •• ان سلاحه الكلمة الطيبة •• والكلمة الطيبة تفرض مشيئتها •• وتؤتى أكلها كل حين •• باذن ربها •

* * *

تهمــة باطلــة :

ذكر الشيخ محمد الغزالى فى كتابه — مع الله — « فصل كيف انتشر الاسلام » ما ذهب اليه « أرنولد » من أن هناك عبر التاريخ اضطهادات اسلامية • ناقلا بطبيعة الحال عن غيره من الحاقدين ••

ولا تعدم الخرقاء علة •• كما يقول المثل العربى ••

كذلك لم تعوز الأدلة « أرنولد » حين اتخذ من « الحاكم بأمر الله •• مثلا على هذه الفرية المزعومة ••

ناسيا أن الحاكم اضطهد الكل •• حتى المسلمين •• وقتل أخيرا لسفهه •• فليس اذن حجة على الاسلام •• ولا معبرا عن مبادئه ••

والبحث العلمى النزيــه يفرض على صاحبه تمحيص المواقف •• وتحديدها ليصح الحكم وبخاصة فى قضية من أخطر القضايا •• تهم ملايين المسلمين عبر القرون •

والغريب — وهو ما نلفت النظر اليه — أن ذلك المستشرق وهو يدلل على رأيه يلجأ الى التمويــه •• ليسهل تقبل السم حين يمزج بالعسل ! •• يقول فى نفس المرجع :

« ان الاسلام فى هـذا ــ أى فى لجوئه للاضطهاد أحيانا ــ كالنصرانية • وان التأريخ للدعوات يجب أن ينظر فيه الى مسلك أصحابها الفاقهين لروحها • لا الى نزق بعض الحكام » •

وهـذه الشبهة مردودة بما يلى :

١ ــ تناقض مع نفسه حين اتخذ « الحاكم بأمر الله » مثلا يعبر عن مسلك الاسلام •• مع أن يقرر الآن ضرورة النظر الى الفاقهين من الدعاة عند التأريخ للدعوات •• ولم يكن الحاكم منهم •

٢ ــ يلجأ الى الجمع بين الاسلام والنصرانية فى سلك واحد •• ايهاما للانصاف المفتعل !

٣ ــ تاريخ الاسلام شاهد على تسامح الاسلام •• مما لا يفوت مثله على باحث فى الدعوة مثل « أرنولد » •

(أ) ان دولة الاسلام الأولى تميزت بسلوكها الملتزم وسياستها الحكيمة •• وخلال المعارك الدائرة بينها وبين أعدائها حينئذ لم يسقط من قتلى الطرفين المتحاربين على مدى ثلاث وعشرين سنة سوى ١٤٠٠ شهيد وقتيل •• فكيف يقال ان الاسلام متعطش للدماء ؟ [١١] •

(ب) لم يكن بالمسلمين جوع يحملهم على الاغتصاب والسرقة •• عن طريق القتـل والغزو •• فان مواردهم ومعادنهم المدفونة تحت الأرض كفيلة لهم بحياة أفضل •• فى الوقت الذى كانت الدول الاستعمارية تقاتل فيه سرقة وغصبا لأن مواردها لا تكفى ••

وكانت انجلترا لا يكفيها الغذاء لعدة أسابيع[١٢] •

(ج) من حقائق الدين الاسلامى ما يشير اليه قولـه تعـالى :

---

(١١) راجع « الاسلام اليوم » للمودودى •
(١٢) مع الله ص ١٥٠

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليــهم ، ان الله يحب المقسطين »(١٣) •

ــ فالله سبحانه وتعالى أحل لنا بر المخالفين لديننا ••

ــ شريطة ألا يتخذوا منا موقفا عدائيا •• ولم تكن بيننا وبينهم ذكريات مرة •• فلم يقاتلونا •• ولم يخرجونا ••

ــ وعلينا أن نبرهم ونعدل فى معاملتهم ••

ــ وذلك أمر تبدو أهميته حين يربطه سبحانه وتعالى بمحبتــه ترغيبا فيه وحضا عليــه : **« ان الله يحب المقسطين »** •

ــ ولا يخفى أن الموقف هنا فيه من العزة ما فيــه •• هذه العزة التى تقف بالمسلم « فوق » ليكون صاحب اليد العليــا فيعطى غيره من مكانه العالى •• لا أن يكون ذليلا يستجدى غيره •• فيذل دينه معه •

أما الذين قاتلونا وأخرجونا •• فلنحدد موقفنا منهم على ما ترسمه الآية الكريمة بعد ذلك : **« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئــك هم الظالمون »**(١٤) •

وقد تكفل التطبيق الاسلامى بتحديد معالم هــذه العلاقة على نحو ما ورد فى كتاب « خالد » رضى الله عنه لأهل الحيرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم •• هذا كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة • أمير خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق رضى الله عنه ••

أمرنى أن أسير بعد منصرفى من أهل اليمامة الى أهل العراق من العرب والعجم بأن أدعوهم الى الله جل ثناؤه والى رسوله عليــه الصلاة

---

(١٣) المتحنــة : ٨ (١٤) المتحنــة : ٩

والسلام • وأبشرهم بالجنــة وأنذرهم من النــار فان أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وأنى انتهيت الى الحيرة فخرج الى اياس بن قبيصة الطائى فى أناس من أهل الحيرة من رؤسائهم • وانى دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا فعرضت عليهم الجزيــة أو الحرب فقالوا : لا حاجة لنا بحربك ولكن صالحنا على ما صالحت عليــه غيرنا من أهل الكتاب فى اعطاء الجزيــة وانى نظرت فى عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ثم ميزتهم فوجدت من كان به زمانــة ألف رجل فأخرجتهم من العدة فصار من وقعت عليــه الجزية ستة آلاف فصالحونى على ستين ألفا • وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذه « على أهل التوراة والانجيل ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أخذه • أشد ما أخذه على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة ••

فان هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان •• وان هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما لهم »(١٥) •

فلم يحمل المسلم السلاح ـــ اذن ـــ رغبة منه فى اراقة مزيد من الدماء •• وترويع الآمنين ••

وذلك بأن القتال فى الاسلام يختلف عن مثله فى الأمم الأخرى •• بدوافعه وغاياته معا :

فغايتــه : التمكين لدين الله فى الأرض واقامة شريعــة العدل بين النــاس : **« الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة »**(١٦) • الآيــة ••

ودوافع المسلم الى خوض غمرات القتال شريفة لا حظ للنفس فيها •• انه يذهب لا يبالى قتل ـــ بفتح القاف ـــ أم قتل ـــ بضمها ـــ •• لا يهاب موتا يسلمه فى النهاية الى مرضاة ربه •• والتمكين لدينه فى الأرض ••

---

(١٥) الخراج لأبى يوسف ص ١٤٣ ، ١٤٤
(١٦) الحج : ٤١

« لا فرق بين القاتل والمقتول فى الفضل والمثوبة عند الله عز وجل . اذ كل منهما فى سبيله : لا حبا فى سفك الدماء . ولا رغبة فى اغتنام الأموال ولا توسلا الى ظلم العباد كما يفعل عباد الدنيا »[١٧] .

فالمجاهد فى سبيل الله يذهب الى المعركة مدفوعا بنية طيبة . الى هدف طيب .. يحقن الله به الدماء من الطرفين معا .. ويمهد السبيل للدعوة الاسلامية أن تنشر ظلها فى الأرض .. قبل أن تقع المجتمعات فريسة للظالمين الذين لا يؤمنون بالآخرة :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. »[١٨] .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .. »[١٩] .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا .. »[٢٠] .

وفى مقال للمرحوم الدكتور محمد الغمراوى بيان كاف يتضح به الفرق الهائل بين الاسلام وغيره فى هـذا المجال ..

« أساس الحياة فى الاسلام أن الملك لله وحده وأن الحكم لله لا لأحد من خلقه وأن الدنيـا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فلا يصح لمسلم أن يطلبها لذاتهـا ، ولا أن يعصى الله فيـها بظلم نفسـه أو بظلم غيره . فالاستعمار بمعناه المعروف باطل من أساسه فى نظر الاسلام لأنه اخضاع للناس لغير الله ، فردا كان أو أمة ، وتناحر وتقاتل فى سبيل المـال والتجارة والدنيـا ، لا فى سبيل الله ، وحكم للنـاس بالقوانين الوضعية لا بقوانين الله ودين الله .

والحاكم الاسلامى أى الذى يحكم بالاسلام وللاسلام فرد من الناس ليس له فضل عليهم الا بتقوى الله ، فهو يحكمهم باسم الله لأنه من أبصرهم بدين الله وأقدرهم على التزام حدود الله فى نفسـه وعلى تنفيذهـا فى غيره ، وهذا وحده كاف للحيلولة بينه وبين استعباد خلق الله بالظلم والهضم والاذلال .

---

(١٧) المنـار .
(١٨) التوبة : ٢٩
(١٩) الأنفال : ٣٩
(٢٠) البقرة : ١٩٠ .

والحاكم الاسلامى له الطاعة على الناس ما أطاع الله ، فاذا عصاه فلا طاعة له على الناس فيما عصى الله فيه أى الناس فى حكومة الاسلام فى حل من عصيان الامام الحاكم فيما يخالف الدين لأنهم مأمورين ألا يطيعوا غير الله وهم انما أمروا بطاعة الحاكم لأنه القوام على تنفيذ الدين وأحكامه فى نفسه وأهله ، وفى غيرهم من الناس ، وهذا أقصى حدود تحرير النفس البشرية من كل سلطان غير سلطان الله •

ولا خوف من أن يؤدى هذا المبدأ الاسلامى الى الفوضى لأن حدود الاسلام ومعالمه معروفة بينة بالكتاب والسنة والحكم بمخالفة الحاكم للكتاب والسنة فى أمر من الأمور ليس الى فرد ولكن الى أهل الحل والعقد من المسلمين وأهل الحل والعقد ليسوا فى الاسلام أكثر الناس مالا ولكن أكثرهم علما وأتقاهم وأطوعهم لله ، فالحكومة الاسلامية هى اقامة لدين الله فى الأرض قانونها كتاب الله وسنة رسوله ، ولا قيمة فيها لما خالفهما من آراء الناس وقوانين الناس مهما عظمت أو عظموا فى رأى العين •

ومن هذا ينتج أن الاستعمار بالمعنى المعروف ليس موجودا فى الاسلام وان وجد فى تاريخ المسلمين • لأن الغرض من حكم الغير فى الاسلام هو اقامة حكم الله فى أرض الله التى يسكنها ذلك الغير فاذا تعهد ذلك الغير بأن يقيم حكم الله فى أرضه ترك وشأنه فى بلاده ما دام قائما بذلك التنفيذ وهو لن يقوم به طبعا الا ذلك الذى أسلم لله ودخل فى الاسلام ، وهذا بعض السر فى أن الدعوة للاسلام كانت تسبق القتال دائما فى الحروب الاسلامية فى العصر الأول ، فاذا أسلم العدو ترك وشأنه فى دياره لا يدخلها جيش المسلمين ليقيم فيها أو ليحكمها لأن تلك الديار باسلام أهلها تكون قد دخلت فى الوطن الاسلامى ، وفى الأخوة الاسلامية العظيمة التى غايتها اقامة دين الله فى الأرض ، والتى شعارها « اسلام الوجه والقلب لله » والأمثلة على هذا فى تاريخ الفتوح الاسلامية الأولى كثيرة ، وليرجع الى ابن الأثير فى تاريخ فتح فارس فى موقعة القادسية ان شاء •

والعمل الذى جرى عليه المسلمون فى الفتوح مبنى على عمل الرسول صلى الله عليه وسلم حين كتب الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ،

فان كتبه — صلى الله عليه وسلم — ناطقة بأن الملك أو الأمير المخاطب اذا أسلم أقر على ملكه أو امارته ، وان لم يسلم فعليه اثم رعيته ، وهذا واضح فى أن اسلامه الذى دعى اليه ليس المقصود منه اسلام شخص فقط ولكن العمل بالاسلام فى الناس ولن يتم هذا طبعا حتى يسلم . فاقامة دين الله فى الأرض بين قوم تستلزم اعتراف هؤلاء القوم بدين الله ، ودخولهم فيه ، وعندئذ تسلم لهم أرضهم وديارهم كما كانوا قبل الاسلام ، ثم يتغير فيها قانونها وطريقة الحكم فيها ، وهو تغير لمصلحة الناس أفرادا وجماعات ، اذ شتان بين حكم الفرد أو الجماعة بالعقل أو بالهوى ، أو بالمصلحة المؤقتة ، وبين حكم الله طبق سننه سبحانه التى فطر عليها الخلق ، المتمثلة فيما أنزل سبحانه فى الاسلام من أحكام . أما اذا لم يدخل الناس فى الاسلام كما دخل ملكهم أو أميرهم الذى أقره الاسلام عليهم ، ولم يخرجوا على الملك أو الأمير من أجل ذلك فانه يحكمهم بدين الله ، ويكونون هم فى ذمة الاسلام لا يظلمون ولا يهضمون ، أحرارا فى خاصة دينهم وعبادتهم الا أن يكونوا وثنيين ، فان الاسلام لا يقر الوثنية بحال ، لأنها منتهى الضلال عن الله ، أما ما زاد على الاعتقاد والعبادة الخاصة من أمور المعاملة فالحكم فيها لله طبق شريعة الاسلام ، أى طبق ما يعامل المسلمون به أنفسهم على أن يؤدوا مبلغا صغيرا يطيقونه فى غير ارهاق لهم ، يفرض على كل فرد منهم مقابل حمايته وحماية بلاده وحماية عرضه وماله من كل من يريد الاعتداء عليه وعلى المسلمين أجمعين حكومة وأفرادا أن يحموه من ذلك كما يحمون أنفسهم ويبذلون فى سبيل ذلك ما يبذلون لأنفسهم لأنهم فى ذمة الله وذمة الاسلام وذمة المسلمين ومن أجل ذلك سمى « ذميا » .

فلقب الذمى لقب تشريف وتأمين لا لقب تعيير وتحقير ، اذ لو كان المراد منه التحقير ما كان حكمه فى الاسلام أن « له ما لنا وعليه ما علينا » أى التسوية التامة بينه وبين المسلمين ودفعه الجزية — كما يسمى ذلك المبلغ القليل الذى يدفعه — لا ينقص تلك التسوية لأنه دفع فى مقابل : هو يدفع المال القليل ، والمسلم يدفع عنه ولو ببذل نفسه من غير أن يتكلف الذمى غير المسلم فى سبيل الدفاع شيئا .

وهذا أمر فى التشريع الاسلامى عجيب وفرق بين الاستعمارين :

الاسلامى والأوروبى عظيم • لأن الاسلام يحتم على المسلم أن يدافع عن الذمى ويحميه ولو ببذل نفسه من غير أن يتعرض الذمى لخطر أو لقتال ومن غير أن يرزأ الا ذلك القليـــل من المـــال • وشتان بين هـــذا وبين ما يفعله الغرب من تجنيد أهل المستعمرات وتعريضهم للأخطار وحملهم على القتال دفاعا عن حاكمهم ومستعمرى بلادهم •

فالاستعمار الأوروبى يضحى بالقادرين من أهل مستعمراته دفاعا عن نفسه وليبق أهل المستعمرات خاضعين له فهو يذلهم ويرغمهم على بذل نفوسهم فى سبيل دوام ذلهم وهذا منتهى الظلم البين •

أما الاستعمار الاسلامى — اذا صح أن يسمى الحكم بين الناس بدين الله استعمارا — فيسوى بين المحكومين والحاكمين فى الحقوق والواجبات لا يعرضهم لخطر ولا لقتال ، ولكن يدفع عنهم الأخطار مقابل قليـــل من المـــال يأخذه منهم كل عام ، يستعد به لذلك الدفاع عنهم ، وليستعين به أيضا على اقامة حدود الله بينهم ، وأن ينشر بينهم العدل والرحمة طبق دين الله •

والمهم فى كل ذلك هو أن الاسلام يوجب على المسلم أن يحكم نفسه وغيره بدين الله فهو حين يخضع الذمى لله انما يسوى بين الذمى وبين نفســـه فى ذلك ، لأن الناس كلهم حاكمين ومحكومين يجب أن يكونوا خاضعين لله لأنهم عباده وخلقه ، يعيشون فى أرضه ، وأقل ما ينبغى لله عليـــهم أن ينفذ فيـــهم حكمه ، فان لم يطيعوه ويسلموا له بقلوبهم وهم عباده ، فلا أقل من أن يحملوا ولو كرهـــا على أن يطيعوه فى ظاهرهم لمصلحتهم هم ، ولاستتباب السلام والأمن والصلاح والعدل فى الأرض •

وهـــذا هو السر فى أمر الله بقتال من لم يخضع لحكمه سبحانه وتعالى فى آية التوبة : **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزيـــة عن يد وهم صاغرون »**(٢١) •

---

(٢١) التوبة : ٢٩

فالغرض من قتالهم حتى يعطوا الجزيــة هو اقامة دين الله ، وحكمه بينهم ، وتحريم ما حرم الله فيــهم ، لا اذلالهم لذاتهم ولا أخذ أموالهم لتنفق فيما تمليــه الشهوات • فالغرض الأول والآخــر فى الحكومة الاسلامية هو اقامة حكم الله فى الأرض لصلاح الأرض وصلاح الناس ، فاذا لم يخضعوا لحكم الله قوتلوا حتى يصغروا ويخضعوا لله ، وهــذا هو عين ما يفعله المسلم بأخيــه المسلم اذا لم يخضع لحكم الله ، كما هو ظاهر آية الحجرات : « **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين** »(٢٢) •

فالغاية العليــا فى الاسلام وحكومته هى اقامة حكم الله فى الأرض بين المسلمين وبين غير المسلمين على السواء • فاذا دخل أهل أرض ما فى الاسلام قنع الاســلام منهم بأن يقيموه بينهم ، وتركوا وشأنهم فى بلادهم ، لا يزاحمهم فيــها أحد ولا يرزأهم أحد شيئــا ، فان لم يقيموه قوتلوا على اقامتــه حتى يفيئوا الى أمر الله ، أما اذا لم يسلموا فالاســلام لا يرضى منهم الا باقامــة حكم الله فيــهم ولمــا كانوا لا يستطيعون أن يقيموه وهم كفار به ، أقامه المسلم فيــهم فاذا رضوا بذلك سوى بينهم وبين المسلمين فى كل شىء ، وأخذ منهم الجزيــة ، ودفع عنهم من غير أن يعرضهم لخطر فى سبيل ذلك ، وكلف المسلم أن يدفع عنهم ولو بنفسه ، وأن يحميهم وأعراضهم مما يحمى منه نفسه وعرضه ، أما اذا لم يرضوا بذلك ، فان المسلمين يقاتلونهم حتى يرضوا ، وحتى يكون الحكم فى بلاد الله لله •

وفى الحرب كما فى السلم لا يخرج المسلم عما شرع الله له فى القتال ، فان خرج فهو آثم ، وآداب القتال فى سبيل الله معروفة مشروحة فى كتب الدين ، منها « ألا يقاتل المسلم الا من قاتله » ، ومنها أن يدعى العدو الى الله قبل القتال ، ومنها « ألا يقتل طفل ، ولا امرأة ولا شيخ ، ولا غلام ، ومنها ألا يؤخذ برىء بجريرة مذنب ، وألا تزر وازرة وزر أخرى ، ومنها أن يوفى المسلمون بعهودهم التى يعطونهــا ،

---

(٢٢) الحجرات : ٩

وأن يوفوا بالعهد الذى يصدر من أحدهم ، فاذا أمن أحدهم قوما أو أحدا ، كان على بقيــة المسلمين أن يوفوا بذلك ، ولا يخفروا أخاهم المسلم فى ذمتــه : « المسلمون تتكافأ دماؤهم يجير أدناهم على أعلاهم ، وهم يد على من سواهم » .

فمدار الحكم فى هــذه المسألة كلها هو : هل الاسلام دين الله أنزله على محمد رسوله ؟

اذا كان كذلك — وانه لكذلك — لم يكن هناك استعمار اسلامى ، ولكن استعمار الهى ، أى اقامة لحكم الله فى الأرض ، وتسوية فى ذلك بين الناس أجمعين ، حاكمهم ومحكومهم . وفى ذلك صلاح الناس ، لا صلاح لهم الا به ، وفيه تحريرهم من كل سلطان غير سلطان الله »[٢٣] .

* * *

الاسلام فى أفريقيــا :

نشرت الصحف[٢٤] أخيرا نبأ اعتناق أحد عشر قسيسا سودانيا الاسلام وعلى رأسهم : **جيمس نجيب سليمان . والذى كان من أمره أن ظروفه لم تمكنه من اتمام تعليمه فى الصغر . « وهو ينتمى لأبوين مسلمين » ولمــا وجد فرصة التعلم مواتية فى مدارس التبشير . التحق** بها . وقد عزلتــه ادارة المدرسة — ضمن خطتها المحكمة — عن غيره من الأطفال المسيحيين .. لتنشئته على نحو يقتلع من نفســه جذور الاسلام .

وكانت النتيجة أن تنصر ..

بل توغل فى النصرانية حتى نجح فى تنصير أربعة عشر ألفا . وزين له هــذا النجاح أن يمضى فى خطة التنصير ليصل بالعدد الى خمسة وعشرين ألفا يصل بهم — فى زعمهم — الى مرتبة الرسل .. ويحق له أن يمنح صكوك الغفران !

---

(٢٣) د . محمد أحمد الغمراوى — مجلة الثقافة — يناير ١٩٤٣ .
(٢٤) اخبار العالم الاسلامى — شعبان ١٤٠٢ .

لكنه أسلم بعد هذه الرحلة المضنية مع زملائه •• بعد حوار مع علمـاء مسلمين أعانوه على أمر الله •• فانكشف عنه غطاؤه •• وتبين له الحق المركوز فى فطرته •• والذى أريد له أن يغيب فى زحام الأضاليل •

وفى محاولة الوقوف على دلالات هذا الخبر تبرز أمامنا الحقائق التاليـة :

١ ـــ التخطيط الذكى المـاكر لتنصير المسلمين •

٢ ـــ الميزانيات الضخمة المرصودة لتحقيق ذلك الهدف حين تتيح فرصة التعلم المستوعبة لهذه المناطق الشاسعة بلا مقابل •

٣ ـــ الآثار الضارة المترتبة على استمرار هـذا المخطط •

٤ ـــ ما يمكن أن يحققه الحوار المقنع ـــ والذى يتحمل مسئوليته الحكام والعلماء ـــ من ثمرات طيبة •

* * *

تفسير هـذه الظاهرة :

وفى محاولة تفسير ظاهرة تقبل الاسلام وشيوع مبادئه فى أفريقيا نقرر ما يلى :

١ ـــ وجد الافريقيون أنفسهم أمام ديانة سهلة : فى أداء شعائرها •• بسيطة : فى أماكن اقام الصلاة • وفوق ذلك فانها ملائمة لكل فرد فى كل زمان ومكان •

٢ ـــ اختلاطهم بالفاتحين المسلمين أتـاح لهم فرصـة الممارسة العمليـة لفضائل الاسلام ممثلة فى هؤلاء الغزاة •

٣ ـــ اذا سـلمنا باعتبار العامل الاجتماعى مبررا لدخولهم فى الاسلام وصولا الى أوضاع اجتماعية أفضل •• فان ذلك لا ينسينا حقيقة بارزة فى حيـاة الوثنى •• والتى وجدت فى الاسلام غايتهـا المنشودة : « ان زنوج افريقية الوثنيين رأوا فى قواعد الاسلام وتعاليمه أهم أسباب تقدم المسلمين وتفوقهم عليـهم فى مناحى الحياة المختلفة •

فبدأ يتضح لهم قوة اله المسلمين وقدرته •

وليس أيسر على الوثنى من تغيير عبادته •• فكثيرا ما بدلت قبائل منهم آلهتهم بمجرد ظهور اله أقوى فى القبائل المتاخمة • وهكذا تركوا معبوداتهم القديمة ودخلوا فى دين الله • حيث يرجون الخير والنفع الكبير فى الدنيا والآخرة »[٢٥] •

وفى تعليل هـذه الظاهرة تبدو الأمور الآتيـة :

(أ) عجزت آلهتهم عن تحقيق رغباتهم •

(ب) ثم قصرت فى درء الشر عنهم •

(جـ) ثبات هـذه الآلهة فى مكان معين • لا يمكن الانسان من القيـام بواجباته تجاهها الا فى مكان نصبها •

(د) اذا حملتهم ظروف الحياة على الهجرة •• ترتب على ذلك اغفال أمرها •• ثم نسيانها •

(هـ) يضاف الى ذلك •• بل وقبل ذلك — كما يقول بعض الباحثين أن الانسان لا يعيش طويلا بلا ديانة •• واذا فرضت عليه مسئوليات العيش أن يحيا بلا دين فان ذلك طارىء يزول بزوال سببه •• ليبدأ البحث الجدى عن اله يعبد •• فاذا لم يهتد اليه •• اخترعه !

٤ — سهولة تعلم اللغة العربية مهد السبيل لوجود عامل مهم تيسر به التفاهم •• ثم التلاحم •

يقول باحث غربى[٢٦] :

على الرغم من جهود المبشرين المسيحيين فى أفريقيا اليوم • وعلى رغم الأموال الطائلة التى تنفق لتنصير الأفريقيين •• فانهم أقل حماسة للدخول فى المسيحية منهم فى الاسلام •• ان دخول أفريقى فى المسيحية يقابله دخول ٨٧ من زملائه فى الاسلام •

---

(٢٥) مجلة الأزهر — المحرم ١٣٠٢ .

(٢٦) عن مجلة — الكريستيان سائنيس مذتيور — بتصرف . بقلم قسيس زار افريقيا لمدة طويلة .

ويرجع ذلك للأسباب الآتية :

١ ــ المسيحيــة هى ديانة الرجل الأبيض ــ الذى يستعمره ويعامله بقسوة •

٢ ــ عزلة رجال الدين المسيحى عن الحياة الاجتماعية للأفريقيين • فلا يكادون يندمجون فيهم الا بمقدار العمل الوظيفى فقط •

٣ ــ المسيحيون الداعون الى المسيحية هم أبعد الناس عن تطبيق مبادئهــا من العدل والمساواة والرحمة •

٤ ــ اصطدام تعاليم المسيحية أحيانا بتقاليد الافريقيين القديمة •

٥ ــ ينظر الافريقيون الى الاسلام على أنه :

(أ) دين الشرق المسالم • الذى لا يستعمر بلدا •

(ب) الدين الذى يتلاءم مع تقاليدهم فى سهولة ويسر ينتهى باحتواء هــذه التقاليد لصالح الدعوة •

٦ ــ الدعوة الى الاسلام هناك تتم عن طريق اخوانهم الأفريقيين •• ومن ثم ففرصة القبول أكبر • لأنهم من جنسهم •

٧ ــ الى جانب معاهد التعليم ــ كالأزهر ــ والتى ينزح اليــها الأفريقيون •• وهى على حد تعبير الباحث :

« مصانع تنتج الدعاة الاسلاميين المزودين بمنطق عاطفى • يكون له بين مواطنيهم فعل السحر حين يعودون اليهم » •

***

شاهد على أهلــه :

ورغم وضوح الأسباب الآنفة • المفسرة لانتشار الاســلام فى أفريقيــا •• وأيضا فيما سواها من أقطار الأرض ••

رغم هذا .. فما تزال هناك أقلام مغرضة تعزو هـذا الانتصار الى فرية لا تصبر على النقد الصحيح ..

وهى أن الاسلام انتصر بالسيف .

ومن تدبير الله تعالى لنصرة دينه أن يقيض له باحثين من الأجانب يتولون الدفاع عن الاسلام . مثبتين بما لا يدع مجالا للشك كذب هـذه الفرية . مؤكدين ما سبقت الاشارة اليه .. من اندفاعه بقوته الذاتية .

* * *

رأى الأستاذ « مونتيـه » :

وفى محاضرة للباحث « ادوار مونتيـه » مدير جامعـة جنيف يقول[٢٧] : « لقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة . وقلما توجد ديانات كانت تنتشر ولا تزال تنتشر بمثل هذا الانتشار .. وأن ما صادفه من النجاح من أول عهده كان عظيما وباهرا . حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التى وطدت سلطة محمد — صلى الله عليـه وسلم — واصلاحه بعيدا عن حدود العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون الى الآن : أن نجاح العقيدة الاسلامية يرجع الى العنف . والى قوة السيف فى عهد محمد وعهد الخلفاء الأولين .

لكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع .. فهى لا تضع موضع الاعتبار العناصر المراد حلها . والوقوف على حقيقتها . ويلوح لى أن لا شك فى أن الاصلاح الاسلامى كان فى أول عهده دينيا محضا . ومحمد — عليـه الصلاة والسلام — كان نبيا بالمعنى الذى كان يعرفه العبرانيون القدمـاء .

ولقد كان بدافع عقيدة خالصة أن قطع كل صلة بالوثنية ، وأخذ يسعى لانتشال مواطنيه من ديانة جافة . لا اعتبار لها بالمرة ، وليخرجهم

---

(٢٧) كان ذلك عام ١٩١٠ — عن مجلة الأزهر — رجب ١٣٥١

من حالة من الأخلاق والمدنية المنحطة كل الانحطاط . ولا يمكن أن نشك لا فى اخلاصه . ولا فى الحميـــة الدينية التى كان قلبه مفعما بها .

فتلك هى الأفكار والعواطف التى أثارت فى نفسه حب الدعوة الى الاصلاح التى قام بها فى مكة ثم فى المدينة .. وقد ظن البعض أن انتشـــار الاسلام بمثـــل تلك القوة يرجع الى مهاجرة الجنس العربى أخيرا للخروج من بلاده التى لم يجد فيها جميع الأسباب متوافرة لرقيه وتقدمه . ويزيد البعض الآخر على هـــذه الاعتبارات زاعمين أن السبب الأول لمهاجرة العرب أدى فى القرن السابع المسيحى الى اعتناق قســـم كبير من الشرق للدين الاسلامى زاعمين أن السبب الأول لابد وأن يبحث عنه فى التحول البطىء لبلاد العرب فى خلال آلاف السنين .

ذاك التحول الذى كان من نتيجته الجفاف التدريجى لشبه جزيرة العرب التى تعادل مساحتها ثلاثة أرباع أوروبا » .

واذا كان لنا تحفظ على بعض ما قاله الباحث من مثل قوله : « الأفكار والعواطف التى أثارت فى نفسه حب الدعوة الى الاصلاح » مما يعبر عن اعتقاد الباحث بأن الدعوة الاسلامية قرار ذاتى وليست وحيـــا يوحى .. اذا كنا لا نسلم بهذا القول فاننا لا نخفى اعجابنا بدفاعه المخلص عن سبب انتشار الاسلام ــ والذى يرد فى نفس الوقت مزاعم المبطلين من قومه .

ولا شك أن للدفاع أهميته وله أيضا وجاهته اذا هز الشجرة فرع منها .. كما تقول الأمثال .

وهذا المعنى نفسه هو الذى يشجعنا على المضى مع هـــذا الباحث المنصف والذى يزيده وضوحا وجلاء . فى احدى محاضراته(٢٨) :

« لنتحدث الآن عن العامل الدينى ، ولنتساءل عما اذا كان فى الاسلام ، كما فى المسيحية ، مبشرون . ان الدعوة الى المسيحية فى الخارج

---

(٢٨) مجلة الأزهر ــ جمادى الأولى ١٣٦٦

تقوم على أكتاف المبشرين والارساليات الدينية سواء فى ذلك الكثلكه والبروتستانتية ، فهل فى الاسلام ما يماثل هذا النظام ؟

الجواب : نعم ، ولا .

الجواب نعم اذا نظرنا الى هؤلاء الدراويش المنتشرين فى بقاع الأرض وخاصة فى المغرب والذين نستطيع أن نعتبرهم مبشرين حقيقيين . والجواب نعم أيضا اذا نظرنا الى تلك الجماعات الدينية التى من أغراضها الدعوة الى الدين الاسلامى .

بيد أن الاسلام فى الواقع انما ينتشر بنفسه ، فكل مسلم فى أى بلد مشرك هو أولا وقبل كل شيء داعية لدينه ورسوله وان كان لا يلبس المسوح .

والمسلم فى الغالب مؤمن بدينه شديد الايمان به . ومما يمتاز به الدين الاسلامى أنه يستولى على مشاعر المؤمن وحواسه كلها ، ولئن كنا نرى اليوم بعض المسلمين يهملون فى دينهم أو لا يعيرونه اهتماما فهذا لا يمنعنا من القول بأن التحمس من خواص الاسلام الأولى . لذا أكرر أن المسلم بفطرته مبشر وداعية . انه يدعو الى دينه كلما عنت له الفرصة . انه يدعو اليه أثناء تجارته أو سياحته أو صناعته . انه يدعو اليه سواء أكان فى قافلة أو فى ركب أو فى مكان مستقر .

ودعاة الاسلام ، فى حميا التبشير به ، يطرقون للوصول الى غايتهم سبلا قد تكون مختلفة أشد الاختلاف ولكنها تنسجم دائما مع حال الأمم وبيئة الأقاليم التى يقومون فيها بنشر دعوتهم . وهنا نرى جليا العوامل الاجتماعية والاقتصادية بجانب العامل الدينى تناصره وتؤازره وتؤيده . فأنشأ دعاة الاسلام تلك القرى الصغيرة التى عمروها بمن فتح الله قلبه وبصره للدين الجديد فآمن به . وانتهزوا فرصة تلك المجاعات الهائلة التى حلت ببلاد الزنجبار فعرضوا دينهم على الأهالى فى لباس من الرحمة والاحسان . واتخذوا تحرير العبيد سبيلا الى نشر الاسلام ، كما فعل محمد بن على السنوسى الذى اشترى قافلة بأسرها من الرقيق وجاء بهم الى زاويته فثقفهم وعلمهم ، فلما أن

اطمأن الى صلاحيتهم للقيام بمهمة التبشير حررهم وسرحهم الى بلادهم معززين مكرمين لينشروا فيها الاسلام •

أما فى البلدان المتحضرة والشعوب ذات الثقافة والمدنية ، فدعاة الاسلام يسلكون وسيلة أخرى تختلف كل الاختلاف عما ذكرناه من وسائل : انهم يعملون جاهدين على اعداد أنفسهم اعدادا طيبا فيما يتعلق بالثقافة الممتازة : فيكتسبون بذلك ثقة سراة المجتمع الذى يحلون به ، وعن طريق هؤلاء يؤثرون على عامة الشعب ، وقد يلجأون الى نوع من التسامح المـــاهر كى يوفقوا بين الاسلام وبين التقاليد الشعبية والشعائر السائدة •

لذلك نرى مســـلمى الصين ، وهم يطمحون الى أعلى المناصب الادارية ويحتلون كثيرا منها ، يتحاشون أن يبنوا مسجدا يفوق فى ارتفاعه المعابد الأخرى ، ويتحاشون أن يقيموا فوقه المــآذن العالية الرانية نحو السماء • وهم يوصون الأشياع الجدد بموالاة الظهور فى الأعياد العامة رغم أنها تتسم دائما بالطابع الدينى الشعبى • بل انهم لا يترددون ، حينما يشغلون المناصب العامة فى قضاء الطقوس الدينية التى يفرضها الدستور • ومع هذا فانهم حينما يجادلون أرباب الثقافات الممتازة ، يعرضون الاسلام فى صورة الدين الفطرى البسيط المطهر من كل الابتداعات التى يعيبها عليه الكنفيشيوسيون •

وهناك وسيلة أخرى عظيمة الأثر فى ذيوع الاسلام ، تلك هى المدرسة • وان أول ما يعنى به المسلمون ، حينما يلقون عصا التسيار فى بلد من البلدان ، هو أن يبنوا مسجدا ويرفقون به مدرسة ، فلا يلبث حتى يظهر تفوقهم جليـــا ساطعا ، فيتسابق من يحيط بهم الى المدرسة بغية الوصول الى مثل ثقافتهم وتهذيبهم ومدنيتهم •

واذا علمنا أن المرأة فى بعض الأمم القاطنة بين النيل الأزرق والمرتفعات للهضبة الحبشية هى التى تهيمن على النشاط الفكرى دون الرجال ، فليس بعجيب أن نرى دعاة الاسلام هناك يعنون خاصة بتثقيف المرأة وتعليمها • وكذلك يفعل السنوسيون فيما يتعلق بنساء « التوبو » • هـــذا مع أننا نرى قلة ما يعيره المسلمون فى بلادهم من اهتمام بتعليم المرأة وتثقيفها •

والاسلام ينتشر أيضا بالزواج ، ومن اليسير على المسلم أن يصاهر أناسا من غير ملتــه ولا جنسه ، فهكذا يفعل أهل آفريقيا والصين • ولئن كان المسلمون فى الصين يكثرون من نكاح الصينيات ، فانهم يأبون أن يزوجوا بناتهم من غير أهل ملتهم •

زد على ذلك أن الاسلام يقوى ويكثر أتباعه بما يشتريه المسلمون من أولاد المشركين الذين ينشئونهم على الدين الحنيف • ولقد رأينا بعض مسلمى الصين ، فى تحمسهم الدينى ، يشترون ما يبلغ عشرة آلاف طفل بثمن باهظ ، وذلك أيام كانت المجاعات تجتاح « بلاد التشان تونج » •

أردنا فيما سبق أن نتحدث عن العوامل الدينية فى انتشار الاسلام ، بيد أننا دخلنا فى محيط العوامل الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية • ذلك أن كل هذه العوامل متماسكة أشد التماسك مرتبطة أشد الارتباط ، وكل شىء فى الاسلام يتسم بالطابع الدينى ، والمسلم ينظر الى كل شىء من خلال معتقداته وآرائه الدينية •

لنلق نظرة الآن على العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولنبدأ ببعض ملاحظات عامة تبدو لنا ذات أهمية عظيمة :

ان الاسلام فى أفريقيــا يتمثل فى صورة نظام اجتماعى واقتصادى ممتاز ، وهو لذلك عامل من أقوى عوامل التقدم فى هــذه القارة • والاسلام ، مثله فى ذلك مثل المسيحية ، هو حضارة ، بل حضارة عريقة قديمة ، أى أنه قد مرت عليــه عصور طويلة انتشر فيها وتطور تطورا بطيئا • وقد بلغت حضارته أوجها قديما فى ربوع الشرق والغرب ، ثم أبلاها الزمن فذبلت وانكمشت ، ولكنها لم تمح قط من الوجود • وهاهى اليوم تحاول أن تستجمع قواها وتداوى جراحها •

غزت هذه الحضارة أفريقيا فظهر للناس جميعا تفوقها فى ميادين الادارة والاجتماع ، كما ظهر لهم تفوقها فى محيط الثقافة والأخلاق والدين ، وقد حدا هذا التفوق بعض الباحثين العادلين الى انصــاف الاسلام فى مقارنة عقدها بين أثر الاسلام وأثر المسيحية فى المغرب ، فقـــال :

« ان المقارنة بين آثار الاسلام وآثار المسيحية سواء نظرنا الى الجماعات أو الى الأفراد ، تظهر فى وضوح تفوق الاسلام وامتيازه • انها تظهر تفوقه لا فى ناحية عدد الأشياع الذين اكتسبهم فحسب ، بل فى الأثر الثقافى والأخلاقى والدينى الذى نشره الاسلام فى تلك الأقاليـــم » •

واذا قلنا ان الاسلام بتفوقه ترك أثرا جليلا فى أفريقيا فيجب علينا أن نلاحظ — وهذه ثانية ملاحظاتنـــا العامة — أن فيـــه قابليـــة عظيمة للانسجام مع ما فطرت عليـــه الشعوب الافريقية •

ان ما يمتاز به الاسلام البساطة ، تلك البساطة التى تثير اعجابنا ودهشتنا اذ نراها مجسمة لدى الكثير من المسلمين الافريقيين • انها قوة تجذب للاسلام الآخرين ، وهى قوة للمسلم تحمله على التعلم وتنمى فيه الشجاعة والحزم •

بساطة الاسلام ! بساطة المسلمين ! •• انها تكاد تكون تحقيقا تاما لتلك الحياة المثلى التى عرضها علينا أخيرا بعض أجلاء المسيحيين فى أوروبا وأمريكا » •

وفى هذا الحديث الصادق ترى الدعاة المسلمين فى هـــذه البيئات الغربية يحققون انتصارات منقطعة النظير بشهادة الباحثين الأجانب ••

وانك لتلمح روح الاسلام السمح بادية فى منهج الدعوة كما يرسمه هؤلاء الدعاة •• وانه ليتلخص فى النقاط الآتية :

١ — كل مسلم •• مهما كان موقعه •• داع الى الله •

٢ — لئن كان الاسلام ينتشر بقوته الذاتية •• الا أن المسلم يرتفع الى مستواه فيعد نفسه لأداء مهمته •• ايمانا وحماسا •• ودأبا يدفعه الى الدعوة كلما حانت له فرصة •

٣ — دخلت العوامل الاقتصادية والاجتماعية فى نسيج المنهج :

(أ) أنشأوا القرى •• يأوى اليها المؤمنين الجدد •

(ب) تحرير العبيد •• ليتحولوا بعد الحرية الى دعاة •

(جـ) اطعام الجائعين •

(د) انشاء المدارس •

(هـ) البعد عن الصدام مع تقاليد البلاد الأجنبية •

(و) بل •• لا بأس من مسايرة الأوضاع القائمة أحيانا — مجاملة وليس على حساب الدعوة — فى محاولة للاحتواء • ثم الاعلاء •

(ز) الاعداد للنفس بالثقافة الواسعة ليواجهوا التجمعات ذات الثقافة العالية •

ويتم ذلك كله بروح طيبة سمحة لا تستغل الجوع أو المرض أو الجهل لفرض ارادتها ••

بيد أنها تعالج وتنهض بالانسان •• ليرى بنفسه حقيقة الاسلام ويدخل — بعد سقوط هذه الحواجز — فى رحابه مختارا •

وشهادة الحق هذه من المستشرق « مونتيه » تدعونا الى التريث قبل أن نشجب آراء المستشرقين جميعا •• فمنهم الذين يصدقون القول فى حديثهم عن الاسلام •• وشهادة أحدهم بالحق تفيد الدعوة كثيرا •• ولقد كان لـ « مونتيه » زملاء منصفون أعطوا الاسلام حقه دفاعا عنه وردا لفرية انتشاره بالسيف •

* * *

من أقوال المنصفين :

قال « جوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : « سيرى القارىء حين نبحث فى فتوح العرب وأسباب انتصارهم : أن القوة لم تكن عاملا فى انتشار القرآن •• فقد ترك العرب الفاتحون المغلوبين أحرارا فى دينهم •

فاذا حدث أن اعتنق أقوام من النصارى الاسلام .. واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما رآه من عدل العرب الغالبين ، مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التى لم يعرفوها من قبل ، والتاريخ أثبت أن الأديان لا تثبت بالقوة ، فانه لما قهر النصارى عرب الأندلس ، فضل هؤلاء الطرد والقتل عن آخرهم على ترك الاسلام ، ان الاسلام لم ينتشر بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدها » .

وقال « ويفانج لنجرميش » : « ان القرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ، ما دام أهلها يحسنون المعاملة ، ويدفعون الجزية ، ولا شك فى أن حروبا قد نشبت بين المسلمين وغيرهم وفى بعض الأحيان كان سبب ذلك أن أهل الديانات الأخرى أصروا على القتال » .

وقال « السير رتشارد وود » : « ان من أكبر بواعث سوء التفاهم بين أوروبا والاسلام ، هو انتشار الظن فى أوروبا بأن الاسلام دين القوة والسيف ، ولكن هذا الظن مخالف فى الواقع لما جاء فى القرآن : **« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا »**(٢٩) .

وقال « ريفونيت » : « انه من الحماقة أن نظن أن الاسلام قام بحد السيف وحده ، لأن هذا الدين الذى يهدى للتى هى أقوم ، يحرم سفك الدماء ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر » .

وقال « بروفيسورليك » : « حياة محمد التاريخية ، لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفه الله نفسه بألفاظ قليلة ، بين فيها خلق النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »**(٣٠) .

ان يتيم « آمنة » العظيم ، قد برهن بنفسه على أنه أعظم الرحمات لكل ضعيف ، ولكن محتاج الى المساعدة » .

---

(٢٩) البقرة : ١٩٠   (٣٠) الانبياء : ١٠٧

وقال « اين بول » : « ان كثيرا من كتاب التراجم والسير الأوروبيين •• الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد عليـه السلام • لم يتعففـوا عن أن يشوهوا هـذه السيرة • بما أدخلـوه عليـها من افتراءات وادعاءات كاتهامهم له بالقسوة • فان تهمته غير جديرة بالاعتبار ••

لأننا اذا رجعنا الى التاريخ وحكمناه فى هـذه المسألة • لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد • وذلك بدليل معاملته للأسرى بعد موقعة بدر • وتسامحه مع أعدائه • وصبره على أذاهم • وعطفه على الأطفال والمرضى • وحقنه للدماء • وعفوه عن أولئك الذين قضوا فى محاربته ثمانية عشر عاما • وأظهروا له فيها كل صنوف العداء • وأذاقوه فى خلالها كل أنواع الجور والاضطهاد والظلم »(٣١) •

ويجدر بنا أن نفصل هذا الاجمال فى كلام المستشرق نضرب به الأمثال للناس لعلهم يفقهون •

* * *

مثل من حياة الرسول :

وعلى كثرة النماذج الدالة على رحمة الاسلام وحرصه على دم الانسان أن يراق فى معترك الحروب • نختار فتح مكة شاهدا يؤكد ذلك المعنى •• ذلك بأن لحظة الانتصار — وخاصة بعد طول الانتظار — ربما سولت للقائد التشفى والانتقام •• لا سيما وهو يمتلك ناصية أعداء لهم معه سوابق مرة ••

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم يمثل الاسلام الرحيم أصدق تمثيل حين يدخل مكة خاشعا خاضعا لله تعالى •• مؤكدا بهذا التواضع منهج الاسلام فى غزو القلوب بالأخلاق •• لا بالدم المراق !

يقول الشيخ الندوى(٣٢) : « دخول خاشع متواضع ، لا دخول فاتح متعال ••

---

(٣١) منقول عن مجلة رابطة العالم الاسلامى — رمضان ١٤٠١
(٣٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٥٥٤

ودخل رسول الله صلى الله عليـــه وسلم مكة • وهو واضع رأسه تواضعا لله — حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح — حتى ان ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل •

ودخل وهو يقرأ سورة الفتح ! ••

وفى دخوله مكة فاتحا — وهى قلب جزيرة العرب ومركزها الروحى والسياسى — رفع كل شعار من شعائر العدل • والمساواة • والتواضع والخضوع • فأردف أسامة بن زيد • وهو ابن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ولم يردف أحدا من أبناء هاشم وأبناء أشراف قريش • وهم كثير •• وكلمه رجل يوم الفتح • فأخذته الرعدة فقال : « هون عليك • فانى لست بملك • وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد »[٣٣] •

ولقد كانت أذنه صلى الله عليه وسلم •• وكان كذلك قلبه فى متابعة يقظة لجنوده الفاتحين حتى لا تبدر من أحدهم بادرة تخدش جلال الموقف فى نشوة الانتصار ••

يقول الندوى أيضا بعد ذلك : « مرحمة لا ملحمة » :

« ولمـــا مر سعد بن عبادة بأبى سفيان فى كتيبة الأنصار قال له : اليوم يوم الملحمة •• اليوم تستحل الحرمة •• اليوم أذل الله قريشا •

فلما حاذاه رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فى كتيبته شكا اليه أبو سفيان قال : يا رسول الله •• ألم تسمع ما قال سعد ؟

قال : وما قال ؟

قال : كذا وكذا ••

فاستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة سعد وقال : « بل اليوم يوم المرحمة • اليوم يعز الله قريشا • ويعظم الله الكعبة • وأرسل

---

(٣٣) صحيح البخارى — كتاب المغازى .

الى سعد فنزع منه اللواء . ودفعه الى قيس ابنه ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد اذ صار الى ابنه .

ولم يزد الرسول الملهم أن أبدل حرفا بحرف . وأبا بابن . فعالج نفس أبى سفيان المكلومة . من غير أن يسىء الى سعد صاحب السوابق فى الاسلام » .

* * *

أسوة للدعــاة :

ان سعد بن عبادة حامل لواء الأنصار .. الذى أبلى بلاء حسنا صار به النصر حقيقة واقعة ..

ثم هو زعيمهم الذى تمثلت فيه فضائل الأنصار من النبل والفداء والايثار .. والرحمة ..

ولقد رصد عمره ليمكن لهذه الفضائل فى قلوب الناس .. ولكن . ما هو الحل اذا تعرضت هذه الفضائل لريح عاصف لحظة النصر .. تريد أن ترفع أعلامه فوق جماجم الضحايا ؟

ان النصر المبين قد تم فعلا ..

وأذعنت قريش .. وبالذات أذعن أبو سفيان ورفع الراية البيضاء مسلما مذعنا ..

ولقد أصدر أوامره لأتباعه أن يلقوا السلاح ويدخلوا فى دين الله أفواجا .. فما هى الفائدة العملية اذا سال الأبطح دماء .. نحن فى حاجة اليها لنشر الاسلام ؟

وكم هو حجم الخسارة لو قتل رجل كعكرمة بن أبى جهل مثلا ؟ هذا الفتى الشارد .. والذى وسعه قلب الرسول الرؤوف الرحيم .. فحمل سلاحه ومضى ليكفر عن سيئاته وليعطى الاسلام أضعاف ما أخذ منه ؟ !

واذن •• فقد جانب الحق سعد بن عبادة حين أعلن الثورة الدموية ! لكنه مع ذلك •• قائد له فى نصرة الاسلام قدم راسخة •• ومن ورائه ولده قيس •• خليفته فى حمل اللواء ••

ولابد من اجراء فورى حكيم يحفظ التوازن •• ويضع الموازين القسط •• ليقيس المسلمون أوضاعهم عليها ••

وهذا ما فعله صلى الله عليه وسلم حين علمنا أن نضرب مجموعة من العصافير بحجر واحد :

(أ) الجزاء الرادع •• قسوة حازمة يتحقق بها الانضباط •

(ب) الاحتفاظ بأصحاب المكارم حيث هم فى قمتــهم العليــا بلا تجريح يكثر به القيل والقال •

(جـ) تأليف القلوب •• ليستمر الباب مفتوحاً أمام كل راغب فى الاسلام •

(د) العفو عند المقدرة شيمة العظماء •

(هـ) اذا كان الحق فى جانبك •• فان قوته ووضوحه وهيمنتــه كافية فى الزام الخصم واخضاعه بعيدا عن التحرش الذى لا يفيد •

* * *

العفو عند المقدرة :

بل لقد كان قلبه صلى الله عليــه وسلم بحرا لا ساحل له •• لقد وسع عفوه الذين وضعهم « فى القائمة السوداء » •

وأباح دماءهم السالف جرمهم مع الاسلام ••

وقد حقق بهذا العفو ما لا تحققه أعظم الانتصارات العسكرية ••

هند بنت عتبة •• التى شقت بطن حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه •• ولاكت كبده ••

ثم : وحشى •• قاتله ••

وأبو سفيان : الذى مثل بجثته تمثيلا ••

وعكرمة بن أبى جهل ••

وصفوان بن أميـــة ••

ولقد حاولا — مع فتية من قريش — احباط النصر • بالاضافة الى ماضيهما الكئيب مع الحق وأهله ••

وعبد الله بن أبى سرح •• يشكل جهاز دعاية مضادة بعد ارتداده فأثار الغبار •• وكثر العثار ••

وهكذا يمتحن الرسول صلى الله عليـــه وسلم ••

فماذا فعل ؟

لقد نسى حظ نفسه •• وعفا عنهم جميعا •• لمـــاذا ؟

لأن مصلحة الدعوة ومستقبلها منوط بهذا العفو •• ولا سيما اذا كان عند المقدرة ••

والسؤال الذى يفرض نفسه : ماذا حقق الرسول من مكاسب وراء هذا العفو ؟

لقد أثمر العفو فى قلب « هند بنت عتبة » شخصية جديدة تماما •• لقد قالت للرسول صلى الله عليه وسلم : « والله يا رسول الله •• ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب الى أن يذلوا من أهل خبائك •• ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب الى أن يعزوا من أهل خبائك » ••

ولمـــا رجعت الى بيتها حطمت صنمها بيدها قائلة : « لقد كنا معك فى غرور » !

ويا للثمرة اليانعة : حين تنشىء الحافز فى ضمير الفرد ليمارس وجوده فيحدث التغيير الخطير •• انه ليحطم الصنم بيده هو ••

ولست فى حاجة أنت كداعية أن تحطمة بيدك فتثير حفيظته ..
بل ان هندا تعلن عن هذا التغيير فى كلمة باقية : لقد كنا معك فى غرور !

و « وحشى » قاتل حمزة .. يدخر حربته التى قتل بها سيد الشهداء ليقتل بها مسيلمة الكذاب .. وليكفر بهذا القتل عن سابقته !

وعبد الله بن أبى سرح .. يفتح الله به بلاد النوبة .. وأفريقيا ..

وعكرمة بن أبى جهل .. قائد المقاومة المشركة يوم الفتح ..

وزميله صفوان بن أمية .. ينخرطان فى صفوف الكتيبة المسلمة .. فى حنين .

ولقد كان صفوان على شركه يوم المعركة .. حين عفا عنه الرسول ولم يفرض عليه الاسلام .

فخرج بنفسه ليقاتل مع المسلمين .. بل تبرع للجيش الاسلامى بمعونة عسكرية : مائة درع كاملة !

ولما لاحت هزيمة المسلمين فى حنين سمع صفوان من يقول : الآن بطل السحر .. يقصد هزيمة المسلمين ..

فنهره صفوان قائلا : « اسكت فض الله فاك .. والله لئن يسودنى رجل من قريش خير من أن يسودنى رجل من هوازن » .

وبعد .. فماذا نقول ؟

لقد كانت خسارة الاسلام جسيمة لو أن الرسول قتل هؤلاء الرجال .. ولكن الرسول بالعفو .. غير الوجهة .. وساق النفوس من حلمه سائق وصل بها الى ما لم يكن يخطر على بال ..

« هذا ولسنا هنا فى حاجة الى اضافة شىء ما على ما سبق من أثر الشريعة الاسلامية فى الحضارة الانسانية ومفاهيمها غير حدث واحد

هو من أعظم شواهد التاريخ فى آثارها فى المفهوم الحضارى من : « الناحية التشريعية » حتى اليوم •

ويتلخص هـذا الحادث فى خبر شكوى دويلة صغيرة هى دولة سمرقند كما ذكرها البلاذرى فى فتوح البلدان ، وكان الاسلام قد حررها فى حروبه الظافرة من الاحتلال الأجنبى لبلادها ، ولم يكره أهلها فى مقابل ذلك على الاسلام ، بل ترك لهم حق الخيار عملا بشريعة القرآن الكريم التى تقول : ((**لا اكراه فى الدين** ••)) وقد اختاروا البقاء على دينهم ، ولكنهم عقدوا صلحا مع المسلمين على حكم أنفســهم بأنفسهم ودفع جزيــة الحمايــة للجيش الاسلامى لقاء حمايتهم من عودة المحتل الى بلادهم ، مع اشتراطهم على الجيش الظافر على بيزانس وفارس عدم بقائه فى بلادهم ، وكذلك فعل الجيش بعد تحريرهم وهم الضعفاء •

غير أن الجيش الاسلامى لم يلبث بعد أكثر من نصف قرن أن دخل البلاد رغما من معاهدة الصلح ، متلمسا بعض المبررات التى لم يوافق عليــها أهل البلاد المغلوبة ، وما كان من أهل هــذه البلاد الا أن أوفدوا وفدا الى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز فى دمشق وشكوا اليه احتلال الجيش الاسلامى خلافا لميثاق الصلح ، ولم يكن لديهم لدعم شكواهم غير صحيفة الصلح الباليــة منذ عهد الخليفة عمــر ابن الخطاب وقد مضى عليــها عهود بضعة من الخلفاء ، وما أن سمع الخليفة الشكوى ورأى ميثاق الصلح حتى أمر بتأليف محكمة تسمع دعوى البلاد المغلوبة على الجيش الفاتح ، وكذلك كان وحكمت المحكمة الاسلامية وقاضيها المسلم على الجيش الاسلامى الفاتح بالجلاء عملا بنصوص ميثاق الصلح ، ويؤسفنا أن هذه المحكمة الدوليــة الاسلامية فى شئون الحرب لم يستطع عالمنــا الحديث الوصول الى مثلهــا حتى اليوم ، على الرغم من منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها العالميــة التى لا تزال حتى الآن عاجزة عن مجازاة الاسلام فى هــذه العدالة الدولية عن طريق القضاء ، وخاصة فى الحكم على الجيش الاسلامى القاهر لمصلحة الشاكين المقهورين ، وفى ظل أعظم عهود الخلافة الاسلامية قوة وسلطانا •• وهذا ما يبرىء الحروب الاسلامية فى عهد سلطان الاسلام على نفوس المسلمين من أن تكون حروب فتح ، واستيلاء وتوسعة لرقعة الملك ، وقهر للمغلوبين ، وانما كانت فقط حروبا لتأدية رسالة الهيــة

عالميـــة انسانية ، ولتحرير الانسان من استغلال أخيه الانسان ، ولحماية حريـــة دعوة الخير التى جـــاء بها الاسلام مصداقا لقوله تعـــالى : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** •

وفى ذلك يقول دوزى على لغة الفاتحين كلمته المشهورة : « ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب » ••

والحمد لله على شهادات المنصفين »[٣٤] •

وبمثل هذه الروح السمحة الكريمة انتشر الاسلام فى كل ربوع الدنيا • وحقق ما لم يحققه دين من قبله ••

ان معظم الذين غيروا وجه التاريخ من عظماء الأمم قد ظهروا فى أحد المراكز الحضارية فى العالم والتى تساعد على صنع القيادة ••

ومع ذلك فان دعواتهم لم تعمر طويلا •

بيد أن محمدا صلى الله عليـــه وسلم ظهر فى أمة أمية • وفى قلب صحراء جرداء ••

ومع ذلك •• صنع أمة عظيمة •• وغرس أعواد دعوة عالميـــة باقية الى يوم الدين •• والواقع التاريخى شاهد بذلك ••

ان البعثات الأمريكية التبشيرية قضت فى الصين مائة وخمسين عاما •• ولم تفعل شيئا •• وفوق ذلك : غزت الشيوعية الصين فى ثلاثين عاما !

ويبقى للاسلام دوره البارز وقدرته الفائقة على الذيوع والانتشار •

يقول المرحوم فريد وجدى[٣٥] :

« ان الذى يتأمل فى طول المسافة بين بلاد العرب والصين ••

---

(٣٤) البعث الاسلامى — جمادى الأولى ١٤٠١

(٣٥) من مقال بمجلة الأزهر .

لا يسعه الا أن يكبر تلك الروح التى كانت تدفع المسلمين الى تجشم هـذه المتاعب لنشر دينهم • وتثبيت أعلامه فى الخافقين •

ويدرك أنه بمثل هذه القلوب الكبيرة تعز الأمم وترقى • وتبنى لنفسها ولأخلاقها مجدا يخلد خلود الدهر •

وقد عجز دعـاة الأديـان أن يصلوا الى الصين الا فى القرون المتأخرة ••

وعجزت المدنية الأوروبية على ما فيها من الفواتن والجواذب أن تتعدى السواحل الشرقية للصين الى آخر القرن التاسع عشر • لايصاد تلك الامبراطوريات الضخمة أبوابها فى وجهها •

ولكن المسلمين لم يجتازوا حدود السـواحل فحسب • ولكنهم استطاعوا نشر ديانتهم وثقافتهم فيـها أيضا •

وهذا أعجب ما يسجله التاريخ من نشاط أمة •• وجواذب ديانة » •

وهذا الذى يقرره المرحوم فريد وجدى فضل شهدت به الأعداء • وهذا قوله فى نفس المقال :

« لقد اعترف دعاة المسيحية أنفسهم بأنهم قد يلبثون فى الأقطار النائية عشرات السنين فلا ينجحون الا فى كسب أفراد يأوون اليـهم طلبا لرفه العيش •

حتى اذا قدم الى هذه النواحى بعض تجار المسلمين وشرح للناس ما عليـه الاسلام من السماحة •• دخلوا فى الاسلام أفواجا •

وسرعان ما يكتسح بدعوته الجماعات التى تتصل به • مع أن هؤلاء التجار لم يتخرجوا فى أساليب الدعوة • ولم يملكوا من الفواتن بعض ما لأولئـك الدعاة الفنيين • حتى كتب الكاردينال « فيجرى » الفرنسى منذ أمد قريب :

ان الدعوة المسيحية قد فشلت فى أفريقيا بمزاحمة الاسلام لها ••

وأن الاسلام قد ربح فى القرن الماضى نحو ستين مليونا من الأتباع الصادقين • وهذا كله يرجع الى طبيعة الاسلام نفسه • من سلامة العقائد • وارتكازها على العقل » •

وهذه الطبيعة حملها تجار قد يكونون أميين •• ومع ذلك فقد حققوا فى مجال الدعوة نجاحا منقطع النظير •• لأنهم تعاملوا مع الناس باللغة العالمية •• اللغة التى يفهمها كل انسان •• وهى : لغة الفضائل !

لقد كانوا أمثلة عملية لكل ما دعا اليه الاسلام •• فأسهموا فى هذا الانجاز العظيم •• فى ربح ستين مليونا من المسلمين الصادقين !! وفى قرن واحد !

فاذا علمت أن هؤلاء المسلمين الجدد كانوا من قبل وثنيين أو بوذيين •• وأضفت الى ذلك فشل بعض دعاة اليوم فى جذب بعض شباب الاسلام الى التدين السليم •• أدركت الفرق بين الجهدين !

وأدركت أيضا أن نفور بعض الناس من دعوة الحق لا يشكل عزوفا عنها بقدر ما يعبر عن حقيقة هذا العزوف • والكامنة فى أن هؤلاء الدعاة أحيانا يكونون فى حاجة مثلنا •• الى الموعظة ؟ !

« حين نتابع أوصاف المسلمين الفاتحين — كما شرحها بعض المنصفين من المستشرقين — تجد أن الجماهير رمقت حملة العقيدة الظافرة بشىء من الدهشة ، ورأت فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل ، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم عليها !!

أجل •• زاحموهم عليها ، ونافسوهم فيها ، واعتنقوها ليعملوا بها مثل أو أجل من أصحابها الذين نقلوها ، مصداق قول الرسول الكريم : « رب مبلغ أوعى من سامع » ، « رب حامل فقه الى من هو أفقه منه » ••

الاعجاب بالاسلام فى أحوال الفرد ، والاعجاب بالاسلام فى أحوال الدولة ، هو وحده السبب الفعال فى تراحم الخاصة والعامة على هذا الاسلام ، وارتضائهم له ..

والاعجاب لا ينبت فى النفس خبط عشواء . أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول الخرفة ؟ ..

أتظن الأخلاق الرضية تعجب بالأخلاق الرديئة ؟ ..

أتظن المتقدم فى أفكاره ومشاعره يعجب بالمتخلف فى هذه وتلك ؟

كلا .. كلا ..

ان المسلمين استحقوا أن يتأسى الناس بهم ، وأن ينسجوا على منوالهم ، وأن يقلدوهم فى أقوالهم وأعمالهم ، وأن يهجروا لغاتهم الأصلية الى اللغة العربية الوافدة ، لأن المسلمين كانوا يمثلون فى العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة .

والمعجب بك قد يذوب فيك ، وذلكم هو ما حدث فى « المستعمرات » التابعة للشرق والغرب ، أعنى : لفارس والروم ، يوم زحف عليـــها الاسلام ، وانساب فى جنباتها .

ان من الغباء البالغ أن تنتظر أحدا يؤمن بك عقب انتصار فى معركة جدل ، أو انتصار فى ميدان حرب .

ان المقهور فى أحد الميدانين قد يستسلم راضيا أو ساخطا . بيد أنه لن يتبعك عن اخلاص ، ولن يشاركك الشعور والفكر أبدا .

ومن ثم نرى لزاما علينا التوكيد بأن القدوة وحدهـــا ، وما يبعث على الاقتداء من اعزاز واعجاب ، هما السبيل الممهدة لنشر الدعوة فى أوسع نطاق » .

« ولعلنا لم ننس قصة المهندس الذى أشرف على بناء جسر السلطان أبى العلاء ، وكان أجنبيا .

فانه لمـا رأى عمله لم يصل الى درجة الكمال التى ينشدها ، رمى بنفسه من فوق الجسر العالى ، فهوى بين أمواج النيل ، وكاد اليم يبتلعه لولا اسعاف المنقذين •

لقد أحس غضاضة من أن يعيش بعد ما فشل فى احسان العمل الذى كلف به ••

وانما أثبت هذه القصة لأنى أعرف أناسا مثله ، وقعوا فى شر من تفريطه وخرج العمل من بين أيدهم مبتورا مشوها ، فلما عوتبوا شرع كل منهم يتنصل ويعتذر أو يهز كتفيه ملقيا التبعة على غيره ••

ولعله بعد ذلك جلس الى مكتبه يجرع القهوة فى كبرياء !

أيصلح هؤلاء أمثلة للاسلام ؟؟ ••

قل لى بالله : كيف يهوى سلوك الفرد منا الى هـذا الحد ثم ينتظر أن يحترم الناس الاسلام ويقبلوا عليـه ؟ ••

ان الدعوة الى الاسـلام تكون أولا بعرض ثمـاره فى الأخلاق والأحوال ، أعنى : ثماره فى أتباعه المؤمنين به ، ويومئذ ترجى الاجابة ، ويرتقب الاهتداء ••

ولنعد الى أسباب انتشار الاسلام أيام السلف الصالحين ••

ان « خلق » الدولة ، وصلاح أنظمتها وكفالتها أكبر حظ من العدالة والسعادة للأفراد ، كان الباعث الأعظم على دخول الناس فى دين الله أفواجا ، وقبولهم عن طيب خاطر الانضواء تحت راية الاسلام »(٣٦) •

* * *

---

(٣٦) الشيخ محمد الغزالى ــ مجلة الأزهر •

بين الأمس ٠٠ واليوم :

نشرت جريدة الأهرام[٣٧] بحثا مترجما عن جريدة « الصنداى تيمز » الانجليزية بعنوان : « كادت بريطانيا تصبح امارة اسلامية » ٠٠

وقد بدأت « الصنداى تيمز » بحثها بعبارة : كشف تاريخى فريد ٠٠ أثبت أن بريطانيا أوشكت ذات مرة أن تتحول الى امارة عربية تابعة لسلطان المغرب والأندلس « محمد الناصر » أوائل القرن الثالث عشر ٠ طواعية وباختيار الملك « جون الأول » ٠٠ الذى عرض أن يعتنق الاسلام هو ورجال بلاطه وشعبه ٠٠ وأن يكون تابعا مخلصا للسلطان ٠٠ فقط ٠ اذا قبل السلطان أن يبسط عليه حمايته ٠

وقد تعهد ملك انجلترا بدفع الجزيـــة ٠٠

ولكن السلطان الناصر رفض هذا العرض وقال لرسل الملك : « انى عليم ببواطن الأمور ٠٠ ان ملككم بدأ يخرف بتأثير الشيخوخة ٠٠ وهو غير جدير بتحالفى معه ٠٠ أغربوا عنى ! ٠٠ ان فضائح ملككم قد زكمت أنفى » !!

ولم تكن هذه هى محاولة التقارب الوحيدة بين العرب وانجلترا ٠٠ والتى رفضها سلطان المسلمين من موطن العزة ٠٠

بل ان اتصالا آخر قد جرى بين « جورج الثانى » ملك انجلترا ٠ وبين هشام الثالث خليفة المسلمين فى الأندلس ٠٠

فقد بلغت الدولة الاسلامية حينئذ فى العلم والثقافة مبلغا عظيما ٠ دعا « جورج » ملك انجلترا الى التوسل لدى خليفة المسلمين ليقبل وفادة بعثة من بنات أشراف انجلترا لتلقى العلم فى بلاد الأندلس ٠

وكتب ملك انجلترا للخليفة يقول :

« من جورج الثانى ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج ٠

---

(٣٧) ١١ / ١١ / ١٩٧٨

الى خليفة المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة • هشام الثالث الجليل المقام •

بعد التعظيم والتوقير ••

فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة • فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هـذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم ••

لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحتاطها الجهل من أركانها الأربعة • وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة « دوبانت » على رأس بعثة من بنات أشراف الانجليز • لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف • ولتكون مع زميلاتها موضع عنايــة عظمتكم • وحماية الحاشية الكريمة • وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ••• أرجو التكرم بقبولها •• مع التعظيم والحب الخالص » ••

خادمكم « جورج »

واستجاب الخليفة •• وحقق الرغبة فأمر بتعليم البنات على نفقة بيت مال المسلمين »[٣٨] •

وقد علق المحرر على هذا الموقف التاريخى بقوله :

« اذا كانت الملكة « اليزابث » ملكة بريطانيا قد قبلت هدية من أرض فلسطين • فى منطقة « الجليل » •• قدمها اليها اليهود • بمناسبة عيــد زواجها الفضى •• فقد كان على الملكة البريطانية أن تدرك أن أول شرط لقبول الهدية أن تكون ممن يملك الاهداء ••

فاذا جاءت ممن لا يملكه •• فان أبسط وصف لمن يقبلها : أنه شريك فى السرقة والاغتصاب !

وبعيدا عن الاحتجاجات السياسية •• فقد كان خليقا بملكة قصر

---

(٣٨) من مقال بجريدة الجمهورية •

« بكنجهام » فى لندن أن تقدر جميل العرب •• لا على الشعب البريطانى فقط •• بل على بنات وأميرات الأسرة المـالكة البريطانية نفسهـا • ولو أنها عرفت الجميل •• لترددت كثيرا قبل أن تقبل الهديـة ••

ولفكرت أكثر من مرة •• قبل أن توجه تلك اللطمة الى العلاقات العربية البريطانية ••

ولا بأس أن تعرف الملكة اليزابث جانبا من هذا الجميل العربى •• على ألا يكون الكلام من عندنا •• بل كلام واحد من أجدادها هو : الملك جورج الثانى •

ومهما يكن من أمر فان هذا الموقف ونظيره شاهدان بما وصلت اليه الأمة الاسلامية — حين طبقت شريعة الله — الى قمة الكمال فى المجالات العلمية والعملية •• الى حد حمل ملوك أكبر الدول على التوسل •• وارسال البعثات لتلقى العـلم • وأصول اصناعة •• وما كان من اباء خليفة المسلمين •• ثم ما كان من تقبل هشام الثالث للبعثة الأجنبية وتزويدها بما تريد من فنون المعرفة ••

ولئن انقلبت الأوضاع الآن فصار المسلمون يتوسلون •• ويذهبون لتلقى العـلم •• وتلمس المساعدات فى مجال الصناعات • فان ذلك لا يخفى حقيقة القدرة الاسلامية على استعادة هـذا المجد •• اذا رجعنا الى الله تعالى • وعادت الينا تلك الهمة العالية •• التى تتمثل مبادىء الاسلام قولا وعملا •• وتفرض بذلك احترامها على الدول ••

لقد بلغ اخلاص السلطان الناصر لدعوته أن رفض رغبة « جون الأول » الدخول فى الاسلام •• لأنها لم تكن على المستوى المطلوب : تفهما للاسلام وشوقا خالصا لاعتناقه ••

بل كانت وليدة ظروف اضطرارية أملاها الضعف وفساد الأوضاع •• وليس من طبع الخليفة أن يكثر السواد • وأن يوسع رقعة دولته •• على حساب دعوته • وفى نفس الوقت يلبى هشام الثالث دعوة « جورج

الثانى » فى محاولة يغزو فيها بالعلم قلب أوروبا فى شخص أولى الأمر فيها .. بسطا لسلطان الاسلام .. واشاعة لمبادئه العالية .

* * *

من أوروبا الغربية الى أوروبا الشرقية :

واذا كان للاسلام هذا الدور الأساسى على ساحة أوروبا الغربية .. فقد كان له دور آخر فى أوروبا الشرقية !!

نشرا للدعوة .. وحماية للأقليات الاسلامية .. وغرسا لمبادىء الوحى الالهى فى هذه الأصقاع البعيدة ..

وقد كان للوفود الاسلامية أثرها الكبير أيام الخليفة العباسى « المقتدر بالله » .

والذى يستلفت النظر : أن هذه الوفود لم تكن سياسية محضة ..

وانما كانت بالدرجة الأولى دينية تستهدف نشر مبادىء الاسلام . وانها كانت تعمل فى أصعب الظروف .. وفى مدة قد تطول وتطول .. ولكن الولاء للاسلام كان أقوى من هذه الظروف ..

وكان نجاح المهمة قاضيا على كل ما تخلفه هذه الأسفار من آثار وتضحيات .

وفى مقال للدكتور سامى الدهان[٣٩] نعيش هذا الموقف العجيب والذى يحكى قصة أول سفارة للعرب لدى الروس منذ عشرة قرون .

أول سفارة للعرب لدى الروس منذ عشرة قرون
ملك الصقالبة يطلب عون الخليفة وحمايته ونصرته !

لم يفقد العرب عنصر الجرأة والمغامرة والانطلاق فى ميادين الاكتشاف والرحلة والسياسة وانما كانوا فى فتوح مستمرة على العصور ،

---

(٣٩) مجلة العربى ١٩٥٩

كما كانوا حين الفتح الاسلامى الأول • فاتصلوا بجيرانهم من الأمم ، وخرجوا من اتصالهم بآراء وأفكار وآداب وثقافة لم يتناولها البحث العلمى الصحيح عندنا • بل انهم اتصلوا بغـــير جيرانهم فأبعدوا فى المسافة وفى الخيال ، حتى صعب على العقل أن يصدق ما فعلوا غالبا • ولكن النصوص التى بلغت الينـــا تؤكد هذه الهمة الجبارة فى السعى وراء المجهول ، وفى الانتصار على الصعاب واقتحام المخاطر • وأتتنا أخبار رحلاتهم فى أقطار بعيدة الشقة شديـــدة الخطورة ، فأعجبنـــا بالرحالين والمسافرين الى أقصى الأرض من شرق وغرب •

فقد فكر الخليفة العباسى المقتدر بالله ، أن يتصل بأقصى الأصقاع من الشمال ، وأن يبلغ بصلاته الدينية والسياسية والاقتصادية الى بلاد نهر الفولجا ، عند الروسيا ، الى مستوى الخط الذى يوازى « موسكو » اليوم ، استجابة لدعوة مليكها لعقد معاهدة للصداقة يمده فيها الخليفة بالمـــال والعون ، والحماية والنصرة •

فأرسل الخليفة من يسفر بينه وبين ذلك الملك فى وفد رسمى ، على بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، وقلة وسائل السفر فى ذلك الزمان ، مما قد يستكثره بعضنا لهذه الأيام الحاضرة ، على وجود « الكوميت » الطائرة !

وقد تألف هذا الوفد برئاسة عالم من علماء المسلمين هو « أحمد ابن فضلان » وكان أشبه ببعثة دينية سياسية ، ضمت فيما ضمت أحد الروس وآخر من الترك وثالثا من الصقالبة « السلاف » ، كان ملك الصقالبة قد بعث به ليكون فى صحبة الوفد ، وفى ارشاده بالمسالك والدروب •

رحلة العجائب والغرائب :

وغادر بغداد فى ١١ صفر ٣٠٩ هـ (٩٢١ للميـــلاد) الى بلاد الفولجا ، وعاد بعد أن قضى قرابة عام كامل فى رحلته • ثم وضع عنها رسالة مطولة أشبه بالتقارير التى يكتبها السفراء اليوم • فجاءت تحفة رائعة ، فى أسلوب بديع ممتع ، ينبض بالحياة ، ويسيل بالغرائب ،

وثيقة تاريخية ، ترفع للعرب شأنا فى التأليف والوصف ، وذخيرة من ذخائرنا المدهشة النافعة ، يزيد فى قيمتها أنك لا تجد ما يقابلها فى كتب الروس والثقالبة من أثر لذلك العهد السعيد !

اليهود دائمــا :

وقد افتتح « ابن فضلان » رسالته هــذه بقوله : « أن بلطوار ملك الصقالبة » سأل أمير المؤمنين المقتدر أن يبعث اليه « من يفقهه فى الدين ، ويعرفه شرائع الاسلام ، ويبنى له مسجداً ، وينصب له منبراً ليقيم عليــه الدعوة له فى بلده وجميع مملكته •• وسأله كذلك « بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له » •

وهؤلاء الأعداء هم ملوك الخزر اليهود ، قد استذلوا الصقالبة من المسلمين ، واستعبدوهم ، وفرضوا عليهم الاتاوات والرسوم •• وأخافوهم بكل سبيل ، فنهض المسلمون لنصرتهم ••

مــال •• وهدايــا •• وأدويــة :

فالدعوة جاءت من جانب هؤلاء الصقالبة الذين كانوا يسكنون حول نهر الفولجا ، ويمتد ملكهم حتى يبلغ قرب « قازان » وهى اليــوم بلد على نهر الفولجا على حذاء موسكو • أرادوا أن يفهموا الاسلام على حقيقتــه ، بعد أن اعتنقه كثير منهم ، وأن يدعوا للسلطان على منابرهم ، وأن يتخذوا عملته بينهم ، وأن يكونوا حلفاء له ، على أن يعينهم الخليفة العباسى عونا عسكريا ضد خصومهم • فأجاب المقتدر الى ذلك ، وأرسل هــذه البعثة ، وحملها مالا وجراية تنفق فى هــذا السبيل ، وأعطاها هدايا وأدوية تسلم اليهم ، فدلنا ذلك على غنى العباسيين ، وسعة دعايتهم ، وانتشار حضارتهم ، حتى تتوافر عندهم الأموال والأدوية والهدايا لعون أوربة الشرقية آنذاك ••

واجتاز الوفد رحلته شرقا الى بلاد فارس ، فمر بالنهروان ، فالدسكرة ، فحلوان ، فقرميسين ، فهمذان ، فالرى ، فالدامغــان ، فنبســابور ، فمرو ، وحط رحاله ببخارى • وهى من أزبكستان اليــوم

— احدى الولايات السوفييتية — تضج بالسعى والحركة ، كما عمرت من قبل بالعلماء والمحدثين والأدباء .

شتاء .. وزمهرير !

وطالت اقامة الوفد فى « بخارى » ثمانية وعشرين يوما ، ثم قصد بعدها الى خوارزم فالجرجانيه ، وجمد نهر جيحون ، واشتد الشتاء ، فلبث الوفد ينتظر انتهاءه ، حتى قضى فى انتظاره ثمانية شهور .

وابن فضلان يصف البرد هناك فيقول :

وقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو ، حتى يطوف الانسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحدا ، ولا يستقبله انسان ولقد كنت أخرج من الحمام ، فاذا دخلت الى البيت نظرت الى لحيتى وهى قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها الى النار . ولقد كنت أنام فى بيت جوف بيت ، وفيه قبة لبود تركية ، وأنا مدثر بالأكسية والفراء ، فربما التصق خدى على المخدة » ..

ثم يصف حال الطبيعة المخيفة فيقول :

« ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد ، وأن وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق نصفين لذلك » .

وهكذا قاست البعثة الى غايتها مصاعب ومخاطر ، أقلها البرد ، الذى ازداد شدة حتى قال ابن فضلان بعد ذلك : « ان البرد الذى قاسيناه من قبل يعد كالصف لمـــا يمر بنا الآن » !!

* * *

جهود تؤتى أكلها :

ولم تذهب تلك الجهود عبثا . بل انها جعلت من أوروبا خلقا جديدا .. بما بعثت فيه من روح الحضارة التى يدل بها اليوم علينا .. متناسيا أنها بضاعتنا ردت الينا !

لقد كان الفتح العربى خيرا على الدول الغربية بشهادة الباحثين الغربيين أنفسهم ..

ونثبت هنا بعض هـذه الشهادات المنصفة دليلا على أن الاسلام لم ينتشر بالسيف •• وانما كما قيل : انتشر على السيف ••

وان هـذه الفريـة ألصق بمن أطلقها من الباحثين المدلسين •• الذين أرادوا ــ كما فعل قسيس الأندلس ــ أن يغطوا فشلهم فى مجال الدعوة بمحاولة الصاق تهمة انتشار الاسلام بالقوة •• وليس أولى بهذه الفريـة منهم !

نشرت مجلة البعث الاسلامى[٤٠] بحثا نقتطف منه ما يلى :

من منن الاسلام على أوروبا أن المسلمين ــ لأول مرة ــ عرفوا الغرب بصنعة القرطاس ، وفى اللغة الانجليزية لها شهادة لغويـة وهى أن لفظ « ريـم » الانجليزى الذى أخذ من اللغة الفرنسية القديمة « ريام » وأخذ هذا عن اللغة الاسبانية « ريسما » وهو أخذ من اللغة العربية وهى « رزمة » •

وأول من قدم نظرية نشوء التاريخ أمام العالم ، هو عبد الرحمن ابن خلدون الأندلسى ، وهو أول من حاول مجهودات مكثفة فى تدوين التاريخ فى أسباب رقى الشعوب والأمم وانحطاطهم ، ولذلك لا غرو اذا قلنا : انه من مؤسسى العلوم العمرانية على الأقل[٤١] •

وهـذه كلها كان بفضل الاسلام وتعاليمه الخالدة ، من طريق الأندلس الاسلامية ، ولذلك لـما حدث جلاء المسلمين من الأندلس لم يبق للعلوم والفنون عين ولا أثر ، يقول « لين بول » : فى كتابه وهو يشير الى هذه الحقيقة الناصعة :

« حدث جلاء المسلمين من أرض الأندلس فى سنة ١٠١٧ هـ لكن أرض الأندلس المنجبة للرجال والعباقرة والمنتجة للعـلوم والمعارف أصبحت خرابا يبابا وعادت سيرتها الأولى ••

من المعترف لدى الجميع أن « كولمبس » ــ المكتشف الشهير ــ

---

(٤٠) جمادى الأولى ١٤٠١ (٤١) نفس المصدر ص ١٧٤

هو الذى قام بأسفار بحرية ومر بأخطار جسيمة أثناء رحلته البحرية ، ونال صيتا ذائعا حينما اكتشف أمريكا « العالم الجديد » ولذلك عزا المؤرخون هذا الاكتشاف الى « كولمبس » ولقبوه بمكتشف أمريكا . لكن الأمر عكس ذلك ، بل نزل المسلمون فى تلك الأرض المكتشفه قبل نزول كولمبس بقرنين ، ولهذه الدعوى دليل قاطع ووثائق أثرية عثر عليـــها أحد علماء الأثريات ، يقول الأستاذ كرد على :

« بحث بعض علماء الأمريكيين والانجليز فى لغات الهنود فى أمريكا فوقعوا على كلمات عربية ترجع الى سنة ١٢٩٠ م أى الى قرنين قبل وصول كولمبس الى أمريكا ، وقد يكون أصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين ، وهناك مستعمرات عربية وجدت بين سنة ١١٥٠ و ١٢٠٠ م ، وقد شوهدت آثار عربية فى شاطىء الخليج المكسيكى خاصة ، وكان العرب يتجرون مع أمريكا قبل كولمبس بزمان طويل ، وثبت أن سفن العرب أقلعت من جزيرة كناريا . ومن هناك الى ازوارد فى وسط الأطلنطى ، ونزلت ايرلنـــدا ، وجزائر انجلترا الغربيـــة ، وفى هـــذه الناحيـــة من تلك الجزائر بئر تسمى بئر عباس ، يستدل بها أن العرب استعمروا تلك الناحية ، وكان فى لشبونة مصور بلاد أمريكا مما صنعته أيدى العرب ، ولنا أن نقول :

ان التجارة بين العرب وهنود أمريكا كانت قبل موافاة « كولمبس » لهـــا بخمسة قرون ، ولمـــا أبحر « كولمبس » من أوروبا كان متزودا بمصورات وخرائط للعرب ، وبها اهتدى الى تلك الأرض ، واستصحب رجلين من العرب كانا عبرا أمريكا قبل ذلك وعرفا الطريق ، وعثر أحد علمـــاء الأثريات على ألواح مكتوبة بحروف عربية ولغة عربية »[٤٢] .

* * *

(٤٢) الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٥٥٢

لمحـــة تاريخيـــة :

بدأ اتصال الاسلام بالغرب والشرق عن طريق رسائله صلى الله عليـــه وسلم الى الملوك والأمراء • والتى دعاهم فيها الى الاسلام •

وقد بدت خطورة الدعوة الجديدة فيما تضمنته من تحميل الملوك مسئولية اسلام شعوبهم •

فلم يكن يكفى أن يعلن الأمير اسلامه لينتهى دوره •• بل لابد أن يكون اسلامه مدخلا الى ايمان شعبه ••

فاذا هو رفض الايمان • فقد تحمل اثم رعيته ••

وعندما امتدت رقعـــة الاسلام عبر الحـــدود • بدا للامبراطور الرومانى أن يعرقل مسيرته بتحريض فريقين :

١ ـــ نصارى الحدود •

٢ ـــ الفلول الهاربة من اليهود •• بعد استقرار أوضاع المسلمين بالمدينـــة •

وكانت هذه المحاولات هى رقصة الطائر الذبيح ••

مجرد محاولات يائسة •• تأكد بعدها أن المستقبل لهذا الدين الذى أكرم الله تعالى البشرية به •

وتبلور الصراع بعد ذلك •• حين أخذ شكل المواجهة العسكرية فى غزوات : مؤتة •• وتبوك •• واليرموك •

وكان أن غادر « هرقل »الشام قائلا : « سلام عليك يا سوريا •• سلاما لا لقاء بعده »[1] •

---

(١) بتصرف عن مقال للدكتور عبد الجليل شلبى ـــ الأهرام ١٩٨٠

وبدأت مرحلة من الحقد على الاسلام الذى قلم أظافر الطغيان •• وقد أخذت صورة الصراع الفكرى بالقلم واللسان ••

هذا الصراع المحكوم بالتعصب من جهة •• والجهل بحقائق الدين من جهة أخرى ••

وعلى طريقة القواد العسكريين حين يغيرون خططهم على ضوء التغيرات الجديدة فى المواقف •• كان أعداء الاسلام يغيرون أيضـا خططهم :

فتخلوا عن كثير من اتهاماتهم التى لم تكن لتروج بين جمهور المسلمين لتبين عوارها •• واتخذوا فى عداوتهم طرائق أكثر مرونة ودهـاء ••

وقد تحمل « المستشرقون » عبء الخطة الجديدة •• وساعد على تذليل العقبات أمامهم ما كان من تقدم الغرب فى المضمار الصناعى والحربى •• واعتقد الكثير من المسلمين السطحيين أن تقدم الغرب فى المدنيـة دليل على تفوقه أيضـا فى باب الاجتماعيات •• فقلدوه •• واتبعوه شبرا بشبر •• وذراعا بذراع ! ••

وفى أزمة الثقة بالنفس حقق المستشرقون عن طريق الغزو الفكرى نجاحا ملحوظا ••

* * *

من أسباب الغزو الفكرى :

مما سبق نتبين بوضوح أن عقدة الخوف من قوة الاسلام الذاتية من وراء خطط القوم ••

وانها لتشكل سبب الأسباب فى حملته المستمرة كيدا للاسلام وعرقلة مسارة ••

واذا ما حاولنا تجليـة هذه الأسباب وجدناها فى تحليل القوم لهذه القـوة الذاتيـة المخوفة •• والتى لخصها واحد منهم[٢] فى أمور :

١ ــ يسكن الاسلام منطقة لها أهميتها البالغة فى نظام التجارة العالميـة •• بما تستطيعه من التحكم فى الأسعار عن طريق زيـادة الرسوم مثلا •

٢ ــ الخصوبة البشرية فى منطقة الشرق الاسلامى تمكنهم من التفوق •

٣ ــ ما يملكه المسلمون من ثروات ومواد خام •

٤ ــ ما فى الاسلام نفسه من قدرة على توحيد كافة المسلمين مهما تناءت بهم الديار •

* * *

وسائل الاستشراق :

تتلخص وسائل الاستشراق فى نقاط منها :

١ ــ التشكيك فى نسبة القرآن الكريم الى الحق سبحانه وتعالى •• والتركيز على أنه من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم •

٢ ــ الهجوم على شخص الرسول بغيـة زعزعة الثقة به •• وبالتالى اضعاف ارتباط المسلمين به •

٣ ــ وضع منظار ملون على عين المسلم ليرى حقائق الاسلام على غير صورتها الحقيقية •

٤ ــ محاولة ايجاد صلة بين التشريع الاسلامى والفقه الرومانى •

---

(٢) باول شمتز فى كتابه ــ الاسلام قوة الغد العالميـة ــ ترجمة د . محمد شامه .

٥ — محاولة صياغة جيل مسلم مقطوع الصلة بربه ودينه ليسلم زمامه الى قيادة أخرى شرقية أو غربية •

٦ — مع تسليمهم بالاسلام كدين من حقه أن يعيش • فانه لا شأن له بالحياة المتحركة الصاخبة — وانما مكانه هناك فى المسجد ولا شأن له بهذه الحيـــاة المـــاضية على هوى المنحرفين ••

٧ — ومن وراء ذلك كله : تفريغ المسلم من كل عناصر القـــوة فيـــه •• ليخلو لهم الجو •• فيبيضون ويصفرون ••

ويلخص بعضهم موقف القوم بوجهتهم تلك • وما تمليـــه عليـــهم من بهتان فيقول : « لا يعرف العقل ولا المنطق حـــدا لمـــا يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الاسلامى • وتشويه لمبادىء الاسلام وثقافتـــه • واعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله •

يجاهدون بكل الوسائل لينقصوا من الدور الذى لعبه الاسلام فى تاريخ الثقافة الانسانية • واذا قام الاستشراق على أكتاف الرهبان والمبشرين فى أول الأمر •• ثم اتصل بعد ذلك بالمستعمرين • فانه ما زال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك •

ولو أن أكثرهم يكرهون أن تنكشف حقيقتهم • ويؤثرون أن يختفوا وراء مختلف العناوين والأسماء »[٣] •

* * *

الطريق الى تحقيق الهدف :

وهذا كلام مجمل • لابد من تفصيله الى حد ما • وعلى نحو يكشف ألاعيب القوم :

ان الخط الرئيسى فى هذه المعركة •• أنها معركة لا تستخدم السيف • فلا دماء فيها ولا أشلاء ••

---

(٣) رسالة « المبشرون والمستشرقون » .

انها تستهدف الذبح •• ولكن بغير سكين !

بالأستاذ الذى يفسد الفكر •

والكتاب الذى يزرع الشك •

والعلم الذى يمرض اليقين •

والصحيفة التى تنشر الرذيلة •

والقلم الذى يزين الفاحشة •

والربا الذى يخرب البيوت •

والحشيش الذى يهدم الصحة •

والممثلة التى تمثل الفجور •

والراقصة التى تغرى بالتخنث •

وبالمهازل التى تقتل الجد والشهامة •

بالخمرة التى تذهب بالدين والمال والعقل •

بالشهوات التى تفسد الرجولة •

بالكماليات التى تثقل الحياة •

والعادات التى تناقض الفطرة •

بالمعانى الكافرة •• التى تطرد المعانى المؤمنة »[٤] ••

وعلى هذا الخط الرئيسى محاور عدة •• يتحرك عليها القوم ••

---

(٤) محمد بشير الابراهيمى — البعث الاسلامى ١٣٩٦ •

فى محاولات مكرورة لعزل المسلمين عن مصــدر قوتهــم ومنعتــهم : الاسلام ..

* * *

تزييف دلالات الأسماء :

يلجأ القائد العسكرى أحيانا الى اطلاق سحب من الدخان تعمى وجهته حتى لا يكتشفها العدو .. ومن ثم يمضى فى سبيله .. والى نفس الخطة لجأ المستشرقون وكان من حيلهم :

تزييف دلالات الأسماء .. خدمة لأغراضهم :

وضعوا مثلا للمعانى الرديئة حللا براقة تغرى السامعين .. على أن تتولى أجهزة الاعــلام تكرار هــذه الكلمات لتأخذ طريقهــا الى القلوب .. ثم يتحقق التغير المطلوب فى قلب المسلم . كما تعمدوا اطلاق أسماء معينة على أزمنة وأمكنة تحمل الطابع العربى الاسلامى . طمسا لمعالم لغتنا وديننا وهما سر قوتنــا ..

ولا يخفى ما للأسماء من جاذبية وظلال تترك آثارها حتما علــى نظرة الانسان لمــا حوله ..

وقد غير الرسول صلى الله عليه وسلم أسماء كثير من المسلمين .. من القبيح الى الحسن .. لمــا رآه صلى الله عليه وسلم من أثر الاسم فى شخصية المسمى ..

وعلى أساس من هــذا .. عمد أعداء الاسلام الى نفس المسلك . مستهدفين خلق انطباعات عامة لدى المسلمين . تخفى ما يضمرون من نوايــــا :

وقد وقف الذكاء وراء محاولات التزييف هــذه .. لتحقيق الغرض منها .. وعلى المدى الطويل ..

* * *

مثال ٠٠ من التاريخ :

كان المسلمون اذا ألقى اليهم الرسول صلى الله عليـــه وســـلم « شيئا من العلم يقولون : راعنا يا رسول الله ٠٠

أى راقبنا ٠ وانتظرنا ٠ وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه ٠٠ وكانت لليهود كلمة عبرانيـــة أو سريانية يسابون بهـــا فيما بينهم وهى : « راعنـــا » ٠٠

قيل معناها : اسمع ٠٠ لا سمعت ٠

فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترصوه واتخذوه ذريعـــة الى مقصدهم ٠ فجعلوا يخاطبون به النبى صلى الله عليـــه وسلم ٠ يعنون به تلك المسبة ٠ ونسبته عليـــه الصلاة والسلام الى الرعن وهو الحمق والهوج ٠

روى أن سعد بن معاذ رضى الله عنه سمعها منهم وكان يعرف لغتهم ٠ فقال : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ٠

والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليـــه وسلم لآخذن عنقه ٠

قالوا : أو لستم تقولونها ؟ !

فنزلت الآيـــة ونهى فيها المؤمنون عن ذلك ٠ قطعا لألسنة اليهود عن التدليس وأمروا بما فى معناها ولا يقبل التلبيس فقيل : **« لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا »**(٥) ٠

ويطالعنا هـــذا الموقف بما يأتى :

١ — استغلال الكلمة الخادعة للنيل منه صلى الله عليه وسلم ٠

---

(٥) حاشية الجمل : تفسيرا للآيـــة الكريمة — والآيـــة من سورة البقرة : ١٠٤

٢ — معرفة ســعد بن معاذ للغــة القوم كشف الخدعة ووقى المسلمين من آثارها •

٣ — محاولة اليهود التضليل بقولهم : أو لستم تقولونها ؟ مع تأكدهم من سقوط هذا المنطق وزيفه •

٤ — لو لم تكن للكلمة آثارها لمــا نزل الأمر بتغييرهــا الى سواهــــا •

٥ — ضرورة اليقظة لمثل هــذه المحاولات التى تبدو للوهلــة الأولى عابرة •• بينما هى فى الواقع ذات خطر ••

***

نماذج وصور — رجل الكنيسة :

سموه « مبشرا » كأنما جاء بالبشرى •• فالفجر يشرق بالضياء والحركة !

مع أن وظيفته فى صميمها عدوان على كرامة الانسان بتجريده من معتقده وقبسه • وحمله على اعتناق دينه رغبا أم رهبا •

الاســتعمار :

يقول الحق سبحانه : **« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليــه »**[٦] •

فالمراد بالاستعمار هنا أن يتحول المسلم الى عامل من عوامل الازدهار والرخاء • بما يحققه فى الواقع من صور التقدم والرقى المــادى والأدبى ••

على أن يتوج هــذا الاستعمار بالعودة الى الحق سبحانه وتعالى :

(٦) هود : ٦١

يستغفره ويتوب اليه •• ليبدو بذلك كله فى أرقى صور العبادة لربه سبحانه : رحمة مهداة ونعمة مسداه •• للبشر جميعا •• ولكن الاستعمار الأوروبى يختلس الكلمة •• بكل انطباعاتها الخيرة •• ليجعلها عنوانا لنشاطه المعادى •• المدمر لكرامة الانسان •• وقد وصل هذا التحريف المقصود الى أسماء الزعماء الأفارقة ــ ومعظم قادة أفريقيا السوداء من العرب ــ ! بالاضافة الى كونهم مسلمين ••

يقول أحد الباحثين :

« من واجبنا أن نبدأ فى كتابة أسماء زعماء أفريقيا على حقيقتها ••

من عجب أن معظم قادة أفريقيا السوداء من المسلمين ••

ومن عجب أيضا أن أسماءهم جميعا أسماء عربية ••

ولكن التحريف المقصود لحق هذه الأسماء وأعطاها صورة جديدة لا تمت للأصل بسبب أو صلة •

ــ « سيكوتورى » مثلا اسمه « شيخ الطريقة » والمفتش الفرنسى فى غينيا من زمن طويل نطق كلمة شيخ على أنها « سيك » ثم تحولت كلمة طريقة فأصبحت « تورى » وأصبح أحمد شيخ الطريقة : « سيكوتورى » •

ــ « سيفولا ديالل » مثلا وهو رئيس الجمعية الوطنية فى غينيا اسمه « سيف الله ضياء الله » •• ثم تطور الاسم تحت الحكم الفرنسى « سيف الله » أصبحت « سيفولا » وضياء الله أصبحت : « ديالل » •

ــ « أبو بكر بالبوا » مثلا وهو رئيس وزراء الحكومة الفيدرالية فى نيجيريا اسمه الأصلى « أبو بكر أبو عليوه » ثم أصبحت أبو عليوه تحت الحكم الانجليزى هى : « بالبوا » •

ــ « ماما دوديا » وهو رئيس وزراء السنغال اسمه الحقيقى « محمد ضيا » ثم أصبحت « محمد ضيا » تحت الحكم الفرنسى : « ماما دوديا » •

— « آمدو سردونا » وهو رئيس وزراء نيجيريـــا الشمالية اسمه الحقيقى « أحمد سر الدين » ثم أصبحت سر الدين على لسان الانجليز : « آمدو سردونا » .

— « موديبوكيتـــا » رئيس جمهورية « مالى » اسمه الحقيقى « مؤدب كيتـــا » ثم تحولت كلمة « مؤدب » تحت الحكم الفرنسى لتصبح : « مديبو » .

وهكذا .. وهكذا .. لقد أرادوا أن تنطمس الحقيقة .. وأن يضيع الأصل .. وأن تفقد فروع الشجرة صلتها بالجذور » !

* * *

وفى المجال السياسى :

مجد المغرضون — وصولا بالحملة الى ذروتها — كلمات الوطنيـــة والاستقلال .. والقوميـــة .. والحرية ..

ثم سلطوا الأضواء على هـــذه الكلمات فصار لها بريق .. وللبريق جاذبية أغرت الفراش الحائر فتساقط عليها !

والقصد من وراء ذلك هو الوقوف بآمال الناس وكفاحهم الى ما يسمى بمرحلة الاستقلال الوطنى .. بعيدا عن قيم الدين .. وآدابه .

مع أن الدين لا يقف بآمال الناس عند هذا الحد — وهو ما يخشاه الأعداء — وبقليل من الذكاء ندرك كيف نجح هؤلاء القوم فى الضحك على بعض الذقون !

فكثير من الدول التى حصلت على استقلالها أخيرا : تتحكم فعلا فى ترابها .. وترفع فى السماء أعلامها .. ولها الى جانب ذلك صوت فى الأمم المتحدة . وفى المجتمع الدولى ..

ولكنها ما تزال مرتبطة بالمستعمر القديم فى اقتصادها .. وأسلحتها .. وأهدافها العامة .. بل وأقطارها كذلك ..

وأرصدتها مكنوزة هناك فى البنوك الأجنبية •• ليستغلوها بالقانون ! وهكذا — وفى خضم الهالـــة المصنوعة — تدق طبول الاســـتقلال •• ولا استقلال هناك ! ولا حرية !

ولو ترك المسلمون الى دينهم يستلهمونه صورة الحياة ومناهجها •• لوقفوا بهذه الأسماء عند حجمها الطبيعى •• وبقى الولاء للدين بكل ما يوحى به من تقدم ورقى •• لا يقف عند حد ••

ولكنه الاغراء الكاذب •• والتركيز المستمر على كل ما يجعل الشخصية الاسلامية باهتـــة •• بلا معالم بارزة ••

ولقد جذبتنا كلمات « الفلسفة » ، « والبطولة » ، « والعبقرية » فقلنا : « الفلسفة القرآنية » كأنما أحطنا خبرا بكل ما وراء الآيـــات من أسرار ••

ثم شكرنا المستشرقون الذين « تفضلوا علينـــا » باطلاق صفة العبقرية على نبينا عليـــه الصلاة والسلام ••

وقلنا معهم : بطل الأبطال •• وعبقرى ••

وما قصارى هذا القول ؟ ••

غاية ما يرمز اليه أن محمدا صلى الله عليه وسلم صنف نادر من البشر •• لكنه على أى حال •• واحد من جماعة مثله •• فى دولـــة العباقرة ! — وبمرور الزمن — يصبح رجلا عاديا •• وسوف يجود الزمان بالعباقرة من مثله عبر القرون ••

واذن •• فهو كغيره يؤخذ ويرد عليـــه •• وينقد •• وتوضع آراؤه تحت الاختبار !!

بل ان مكر القوم ليدق ليصير أحد من الشعرة حين يؤكدون أن محمدا صلى الله عليـــه وسلم لم يكن أميا •• ولكنه كان كاتبا قارئا ••

وعلى حد تعبير بعض العلماء : يقدمون ذلك رشوة ! لمـــاذا ؟ ليعمقوا هذا القول فى القلوب بحجة أن ذلك شرف للرسول .. وفرار به من وصمة الأميـــة ؟

والنتيجة ؟ !

مع مرور الزمن أيضا : يثبت فى الأذهان أنه كان قارئا .. كاتبا .. اذن فقد أخذ القرآن عن غيره .. بحكم علمه بالكتابة ..

وتثبت التهمة التى يحاولون عبر التاريخ فرضها فرضا ..

ولكننا باسم الاسلام : نرفض ما وراء الصـ‍ات .. من نيات .. ونؤمن بما ذكره القرآن صريحا فى قوله تعالى :

« وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذن لارتاب المبطلون »(٧) .

« قال ابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعى : قال البغوى فى التهذيب : هل كان النبى صلى الله عليـــه وسلم يحسن الخط ولا يكتب . ويحسن الشعر ولا يقوله ؟ .. أم لا ؟ والأصح أنه كان لا يحسنهما ؟ ولكن كان يميز بين الشعر ورديئه »(٨) .

ان الحقيقة أعز علينـــا ــ كما يقولون ــ مما يفرضون ويقترحون ! والحقيقة هنا أنه كان أميا ..

ثم ان الأميـــة هى اللفظ الذى اختاره منزل القرآن سبحانـــه وتعالى .. ونحن ملتزمون بايثار حكم القرآن لأنه أعدل .. ولفظ القرآن لأنه أدق ..

ولنا أسوة فيما قرره ابن القيم شرحا لقوله تعالى :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »(٩) .

---

(٧) العنكبوت : ٤٨

(٨) حاشية الجمل .

(٩) الحديد : ٢٥

قال : والميزان يراد به العدل • والآلــة التى يعرف بها العدل وما يضاده والقياس الصحيح هو الميزان ••

والأولى تسميته بالاسم الذى سماه الله به •• بخلاف اســم « القياس » فانه ينقسم الى حق وباطل • وممدوح ومذموم • وصحيح وفاسد • والصحيح هو الميزان الذى أنزله الله مع كتابه »(١٠) •

❋ ❋ ❋

الشرق الأوسط :

لأن الشرق الاسلامى له صبغته العربية •• الاسلامية •• فقد زين ذلك لهم طمس معالمه •• تخلصا من كل ما يوحى بالقوة والأصالة •• وقالوا : انها منطقة الشرق الأوسط ••

ثم مهدوا لهذه التسمية المفتعلة بمبررات تمكن لهم من فرض الصبغة الجديدة •

قالوا :

١ ــ انه أقاليم تضم أديانا متعددة •• اسلاميــة •• نصرانية •• يهوديــة •• ولا بأس أن يسموا الفرق الاسلامية أديانا أيضا •• فقالوا : الدين الزيدى •• والدين الشيعى •• والدين البهائى !

٢ ــ لهجات السكان متعددة •

٣ ــ وفى مجال السياسة نرى : النظم الملكيــة •• والجمهورية •• والديمقراطية •• والديكتاتورية ••

٤ ــ بالاضافة الى تعدد الثقافات على أرض المنطقة من شرقية الى غربية ••

---

(١٠) أعلام الموقعين جـ ١ ص ١٣٣ عن كتاب فقه الزكاة للدكتور القرضاوى .

٥ — من الناحية الاجتماعية : تضم المنطقة أشتاتا من العادات •• تختلف الى حد التناقض •

٦ — وفى المجال الاقتصادى أيضا نرى : النظام الاشتراكى •• والنظام الرأسمالى •• من أجل ذلك كله فليس هناك دين أولى باطلاق أسمه على المنطقة من دين آخر •• ولا جنس أولى من جنس !! (١١) •

والغريب أنهم هم الذين فرقوا أمم الشرق الى شيع وأحزاب •• وهم الذين يتخذون من ذلك اليوم ذريعة الى قفزة أخرى للقضاء على البقيـــة الباقيـــة من الصبغة العربية والاسلامية !

وقد بلغت الجرأة على الحق حدا سموا فيه عصر الخلفاء والتابعين •• وعصور الأمويين والعباسيين •• سموا ذلك كله بالعصور المظلمة ؟ ! تماما — كما حاولوا وصف « الانسان الأول » بالجهل والتخبط •• وما الانسان الأول الا آدم عليـــه السلام •• والقارىء(١٢) لسورة المـــائدة يشعر بالقيـــم التى عاشها ذلك الانسان الأول •• وأنها لأثقل فى الميزان من هذا العصر الذى نعيشه !!

ولكن محاولة الأعداء مستمرة • لقطع كل صلة للأرض بالسماء •• لتبقى كما يشتهون غابة يتحكم فيها الأقوياء •• بلا معارض أو منازع •

* * *

شعائر •• أم تقاليد :

فى كتاب « مع الله » للشيخ محمد الغزالى •• نقل المؤلف حوارا دار بين الكاتب الأستاذ محمد زكى عبد القادر وبين سيدة تعمل فى شركة طيران جاء فيه :

---

(١١) ملخص مقال د . فهمى الشناوى — المختار الاسلامى محرم ١٤٠٠ .
(١٢) من قوله تعالى : « **واتل عليهم نبأ ابنى آدم ••** » (المـــائدة : ٢٧) .

انها عندما أخبرته بموعد الحجز على الطائرة شكرها قائلا : ان شاء الله ..

ولكن السيدة الأمريكية تعجبت من كلمة لم تسمعها .. وكان مما جاء على لسان الكاتب مجيبا على تساؤلها :

هذا تقليد جميل من تقاليد الشرق !!

وتأملت الرد السريع المقتضب .. وقلت : لقد كانت فرصة يعلن فيها الاسلام عن نفسه بهذه الكلمة البسيطة البليغة معا ..

انها ليست « تقليدا » ولكنها .. شريعة وأدب .. كما أنها لا تنسب الى « الشرق » ولكنها بنت الاسلام !

بل انها لتمثل جانبا حيويا من جوانبه . ونظرته الايجابية الى والكون والحياة ..

فما دام الانسان لا يملك مفاتح الغيب ..

وما دام هو عاجزا عن تغيير الواقع الذى يعيشه فليرض بما قسم الله .. بعد أن يكون قد بذل ما فى وسعه ..

وبذلك يتحقق نوع من الرضا والانسجام . يربطه ببيئته ومجتمعه متحملا ما يلقاه من حوادث الدهر ..

انه يواجهه بما يملك من حيلة وطاقة ..

فان استطاع التغلب عليها .. فبها ونعمت ..

والا .. فليسلم الأمر لله ولا يحاول الصدام مع ما لا يعلم نتائجه .. ولا يملك أسباب تغييره .. وبذلك يبدو المسلم فى ضوء هذه الشعيرة أوفر سعادة من زميله الغربى الذى لا يسلم الأمر لله . ولا يربط حياته بمشيئته عز وجل .. ومن ثم يصارع الأحداث بجهده المحدود ولا يصل الى ما يريد :

كناطح صخـــرة يومــا ليوهنهـــا
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل !

ومن شأن هذه اللمحات أن تغيب عن البال ..

وكان من الممكن أن يترك الحوار أثرا عميقا .. وأن يكون دعاية ميسرة للدين وأهله .. ولكنه ذكر على أنه « تقليد » .. مجرد عادة .. وجزء من مجاملات يوميـــة .. لا جذور لهـــا .. ولا قداسة الا بمقدار ما تحمل من معنى قريب .. اصطلح المجتمع على استعماله ..

ولكن المشكلة أبعد من ذلك :

فبدل أن نشد الرجل الغربى الى ما فى الاسلام من حقائق على هـــذا المستوى الرفيع .. يشدنا هو فيفرض علينا استعمال كلمة : « تقاليد شرقية » .. مستبعدا صبغتها الدينية لحاجات فى نفسه سبق أن وضحناها !

ولا نكون مبالغين اذا قررنا أن ذلك خيط فى الشرك المنصوب .. وقعنا فيه فعلا ..

يقول الدكتور محمد سعيد البوطى واضعا النقاط على الحروف فى هـــذه الناحية :

« جميع ما اعتاده الناس من أنماط الحياة فى مجتمعاتهم : من مظاهر اللهو فى أفراحهم ، والحداد فى مآسيهم وأحزانهم .. مما حاكته عوامل التوارث القديم .. يسمى فى اصطلاح الله وعلم الاجتماع : « تقاليـــد » ..

اذا علمت هذا ، أدركت أن الاسلام لا يمكن أن ينطوى على شىء مما يسمى بالتقاليد ، سواء ما كان منها متعلقا بالعقيدة ، أو مختلف النظم والأحكام ..

اذ العقيدة قائمة على أساس العقل والمنطق ..

والأحكام قائمة على أساس المصالح الدنيويـــة والأخروية .. وهى مصالح تدرك بالتفكير والتدبير الذاتى ، وان قصر عن ادراكها بعض العقول لبعض العوارض والأسباب .

واذا تبين لك هذا • أدركت مدى خطورة الخطيئة التى يقع فيها من يطلقون كلمة « التقاليد الاسلامية » على مختلف ما يتضمنه الاسلام من العبادات والأحكام التشريعية والأخلاقية •

اذ من شأن هذه التسمية الظالمة وترويجها • أن توحى الى الأذهان ان قيمة السلوك والخلق الاسلامى ليست بسبب كونه مبدأ الهيا يكمن فيه سر سعادة البشر — كما هو الحق — وانما بسبب أن كلا من النظام والخلق الاسلامى انما هو عادات موروثة من الآباء والأجداد • ولا ريب أن النتيجة القطعية لهذا الايحاء أن يضيق أكثر الناس ذرعا بهذا الميراث القديم الذى يراد فرضه على المجتمع • فى عصر كل ما فيــه متطور ومتقدم وجديد •

والواقع أن اطلاق هــذا الشعار على الأحكام الاسلامية ليس فى مصدره خطيئة عفوية • وانما هو حلقــة فى سلسلة حرب الاســلام بالشعارات الباطلة المدسوسة ••

فالغرض الأول من ترويج كلمة « التقاليد الاسلامية » هى أن يؤتى بمعظم نظم الاسلام وأحكامها • ويسدل فوقها شعار « التقاليد » حتى اذا مر على ذلك زمن • وارتبط معنى التقاليد بنظم الاسلام وأحكامه فى أذهان الناس •• ونسوا أن هذه النظم انما هى فى حقيقتها مبادىء قائمة على أساس ما يقتضيه العقل والبحث السليم — أصبح من السهل على أعداء الاسلام أن يحاربوه من النقطة التى تنفذ منــها حرابهم وسهامهم •

اذ لا ريب أن المسلمين اذا استفاقوا ليجدوا معظم مبادىء الاسلام وأحكامه : كشئون الزواج والطلاق • وحجاب المرأة وصيانتها •• وعامة قضايا السلوك والأخلاق قد أسبل فوقها رداء « التقاليد » فان من الطبيعى أن يجدوا بعد ذلك من يدعو الى نبذ التقاليد والخروج من اسارها وكسر قيدها • خصوصا فى هــذا العصر الذى أصبحت السيادة فيه لحرية الرأى والتفكير ••

ولكن الحقيقة أن الاسلام لا تقاليد فيه ••

انه الدين الذى جاء لتخليص العقل من براثن التقليد »[١٣] •

* * *

---

(١٣) فقه السيرة ص ٨٢ ، ٨٣

من أساليب المكر السيء :

يحاول المستشرق أن يقنع القارىء بالتزامه بآداب البحث العلمى خداعا وتمويها ..

وفى سبيل الوصول الى أغراضه لا يمل من التركيز على هذا المعنى .. وقد يفرض عليــه الولاء لخطته أن يقرر بعض الحقائق فى ديننا .. ولكن لحساب مواقف أخرى يتخذها ليطمس معالم أساسية فى الاسلام .. ومع هــذا .. فهناك أمور لابد من الاشارة اليها سلفا .. والتى تكشف النقاب عن ضعف موقف أعداء الاسلام .. وتعيننا فى نفس الوقت على أسباب ضلالهم فى أحكامهم ..

ومن هــذه الأمور :

١ — المستشرق بطبعه لم يسبر غور اللغة العربية وآدابها .. وان برع فى استيعابها واستعمالها — فهناك المطلق والمقيد .. والعام والخاص .. والناسخ والمنسوخ .. والنكرة والمعرفة .. والتقديم والتأخير .. والحقيقة والمجاز ..

الى غير ذلك مما لا يدركه عقله .. ومما يورطه أيضا فى قصور النظر فلا يحيط بالموضوع علمــا ..

٢ — انه واقع تحت تأثير عوامل تاريخية وبيئية تفرض عليــه اتجاهات معينة .

٣ — متعصب لدينه .. أو لمذهبه .. أو لدولته التى تسخره لذلك .

٤ — ثم هو ناقد .. وللنقد آفة وهى : شعور الاشراف والعلو الذى يحس به الناقد المغرور بعلمه . فيظن نفسه « فوق » بينما غيره « تحت » .. وما يترتب على ذلك من رؤية الأمور فى غير أحجامها الطبيعية .

٥ — وأهم من ذلك كله أنه ينقد رسولا أو دينا .. يعتقد منذ البداية ببطلانه .. فكيف ينصفه ؟ !

ولو أنصفه مرة .. فليضر به وليتهمه ألف مرة ..

* * *

كيف يتحدثون عن الرسول :

كثير من المبادىء تموت بموت أصحابها •• وتذهب معهم الى حيث لا يعود الذاهبون • لأنها لم تجد الرجال القادرين على افراغ أنفسهم فى قوالبها •• وتمثلها منهجا وغاية :

ومن المقرر أن الدعوة اذا لم تجد رجالا يرتفعون الى مستواها •• كان ذلك تمهيدا للقضاء على الدعوة ذاتها ••

وقد فهم المستشرقون هذا المعنى حين ركزوا سهامهم فى محاولات للنيـــل من شخص الرسول صلى الله عليـــه وسلم •• فاذا اهتزت شخصيته اهتزت تبعا لذلك دعوته •

ولقد تفرقت بهم السبل بين مادح ماكر •• وقادح حاقد ••

ومهما مدح المـــادحون •• وقدح القادحون ــ فانهم متفقون جميعا على شىء واحد :

أن رسالته من عنده •• وليست وحيا من السماء ••

وربما ظهر لك التنسيق الواضح بين آرائهم :

فبعضهم ينقد ناحية فى حياته صلى الله عليـــه وسلم •• بينما ينوه بها زميله الذى يتشبث فى نفس الوقت بتهمة أخرى يحاول الصاقها به صلى الله عليـــه وسلم ••

وقد يمدح الشخص نفسه ذات الرسول صلى الله عليه وسلم •• ثم يغمز غمزة واحدة بتهمة كاذبة خاطئة •• فاذا رحت تطرح القدح من المدح •• لـــا تحصل شىء فى الغرابيل !!

ففى كتاب « كارليل » : « الأبطال وعبادة الأبطال » ••

دافع عن محمد صلى الله عليه وسلم • وأبرز محاسنه ــ ولكنه فى نفس الوقت يكتب قائـــلا : « وعلى أى حال فهـــذا الدين ضرب من النصرانية • وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها » •

ويتحدث عن القرآن فيرى أن اعجاب المسلمين به ينبىء عن اختلاف أذواق الأمم • لأنه أسلوب سقيم ممل • ولولا ما يمليـــه الواجب العلمى على الرجل الأوروبى ما وجد صبرا على قراءته »(١٤) •

فانظر ماذا تقرأ ؟

انه ينسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم قائمة من الفضائل •• وكأنما كان ذلك رشوة يقدمهـــا للمسلمين حتى يصدقوه فى الباقى ؟ وما هو ؟ ••

انه حملة ماكرة لاتهامه صلى الله عليه وسلم بالكذب — حاشاه — لأنه يزعم القرآن وحيا وهو — فى زعمه — مستمد من النصرانية !

ثم تشم رائحة الحقد الدفين حين يعرض بالقرآن على هـــذا النحو •• وماذا يبقى لدى الرسول اذا اتهمته بالكذب •• ثم أضفت اليـــه بعد ذلك كل صفات الكمال ؟؟

لا شىء طبعا ! ••

ان الذى يحب محمدا •• ويكره القرآن •• لا خير فيه لا للقرآن ولا لمحمد صلى الله عليـــه وسلم !!

ولقد ردد « ألفريد جيوم » فى رسالة جامعيه نفس التهمة •• تهمة تبعية القرآن لليهودية •• بل كانت درجة الاستفادة ضحلة(١٥) ولذلك لم تجىء طبق ما جاء بالعهد القديم تماما !!

ولـــا قام المستشرق الانجليزى « جب » بانصاف الرسول صلى الله عليـــه وسلم مما كتبه « جيوم » فى كتابه « المحمدية » ذعر المغرضون ولجأوا الى « جيوم » فأخرج كتابا اسمه « الاسلام » رد فيه على زميله المنصف •• « جب » •

---

(١٤) د . عبد الجليل شلبى — الأهرام ١ / ١٢ / ١٩٧٩ .
(١٥) المرجع السابق بتصرف .

مع ملاحظة أن « جب » كزملائه المستشرقين متفق معهم فى أن محمدا ناقل عن الكتب السابقة طبعا !

وأنه أخذ من « بحيرا الراهب » دون أن يكلف المستشرق المنصف ! نفسه مئونة الاجابة على سؤال يفرض نفسه :

هل يستطيع انسان فى سفر عابر كهذا أن ينقل هذا الكتاب العظيم المجيد ؟ ! ••

ان أحدنا ليرصد أزهى سنوات عمره لتحضير رسالة فى فرع من فروع المعرفة •• ولا يشارف النهاية ••

فكيف اذا تعلق الأمر برسالة للعالمين ؟

* * *

التغنى بأمجاد المــاضى :

بقى أن نقول : ان المستشرقين يلجأون أحيانا الى الاسراف فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم •• على أساس من معرفتهم بطبيعة النفوس التى يستهويها الحديث عن المــاضى •• وتحن دائما اليه •• والى العظمة التى لم يجد الزمان بمثلها • ممثلة فى محمد صلى الله عليه وسلم ••

ويرمون من وراء ذلك الى هدف معين هو :

صرف الناس عن الواقع المؤلم •• وعن مشاكل المسلمين الملحة •• الحاضرة — حتى يظلوا يضربون دائما فى التيــه •• فى ظلام لا يرون فيه الأصابع المخضبة بدمائهم •• والتى تستنزف خيراتهم •• وهم لا يشعرون ••

ومعنى ذلك أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم شخصيا •• ثم محاولة تنحيــة القرآن الكريم عن الساحة •• كان جزءا من نفس الخطة الرامية الى اقصاء الدليل •• ليعيش المسلمون بلا دليل ••

يجترون ذكريات المـاضى ورؤاه .. يدورون حول أنفسهم .. دون أن يتحسسوا مواطن القوة فى دينهم .. ودون أن ينهضوا لتغيير واقعهم الأليـم .. ويضرب الأستاذ أحمد بهجت مثلا على ذلك قوله فى « مجلة المختار الاسلامى محرم ١٤٠٠ » :

انعقد بباريس مؤتمر العمال الجزائريين بأوروبا وتقرر من المشرفين على المؤتمر توزيع كتاب لأحد المسلمين تناول فيه مشكلة الديمقراطية .. ولم يهمل أصحاب الاختصاص فى الصراع الفكرى هـذه المناسبة ولم يفتهم ما تقرر توزيعه ولكن كيف يسدون الطريق على الأفكار المعروضة فى الكتيب الذى سيوزع أثناء المؤتمر حتى لا يصل مداها الى رؤوس المؤتمرين .. أو على الأقل حتى يكون لها أقل مد ممكن .

وهكذا وجهت الدعوة الى السيدة الألمـانية التى وضعت أو وضع اسمها على ذلك الكتاب فى العنوان الجذاب — شمس الله تشرق على الغرب — وفيه ما فيه من مدح وتمجيد الحضارة الاسلامية ..

وتقدمت السيدة ، وقدمت كتابها الى المؤتمر ، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات الحادة القائمة اليوم ، الى أبهة وأمجاد المـاضى الخلاب .

وفى اليوم الأخير .. قامت القاعة كلها تحيى السيدة ..

وتكشف هـذه القصة عن جانبين ، الجانب الذى يبرز حساسية الجماهير المسلمة لأمجاد ماضيها ، والجانب الذى يكشف عن امكان استغلال هذه الحساسية للفت الجماهير عن حاضرها .

وما الحلول التى تعرض على المسلمين فى المجال السياسى وغيره وما ذلك الأدب المطنب فى المدح وتمجيد المـاضى الا وسائل لصرف العالم الاسلامى عن أهم مشكلاته وقضاياه .

مثل قضية تواجده الواقعى فى الساحة الانسانية وقضية تجدد أفكاره وقضية موقفه من التحديات التى تطرح عليـه .

ان الاسلام نظام قائم بذاته •• وأجمل ما فيه قدراته على التفكير والاجتهاد •• صحيح أن باب الاجتهاد الفقهى قد أغلق فى القرن الرابع الهجرى •• وصحيح أن باب الاجتهاد العام قد صدئت أوصاله من قلة استخدامه » •

ولكن الاسلام هو القوة الايجابية الفعالة فى هـذا العالم •

* * *

العدو يقلب خطتـه ! :

لجأ المستشرق « رودل » الى حيلة جديدة ينقض بها بناء الاسلام ، ويلقى ظلال الشك على شريعة الله ••

ان محمدا فى نظره صادق تماما •• وصدقه وأمانته ليس محل خلاف — أو مساومة !

لكن دعواه الرسالة •• هى فقط محل نظر !

انه لا يشك لحظة فى صدقه — صلى الله عليـه وسلم — ولكنه فى دعواه الرسالة كان مخدوعا •• لم يكن يعلم يقينا ما يقول ؟ !

وما كان يدعيه فى لحظة الوحى هو حالة من الصرع •• تسلب الانسان وعيه وطاقته •• فهو معذور اذآ ادعى الرسالة •• من أجل ذلك ! ••

وبادىء ذى بدء تقرر الأصول التاريخية لهذا الأسلوب المغرض فى قدح الاسلام ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم ••

جاء فى حاشية الجمل : « عن على رضى الله عنه : أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : انا لا نكذبك ولكن نكذب الذى جئت به » يعنى رويت الكذب !! (١٦) •

---

(١٦) حاشية الجمل — تفسير سورة الأنعام : **« قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون •• »** •

وهى نفسها دعوى كثير من المستشرقين الشاهدين بصدقه صلى الله عليـــه وسلم فى ذاتـــه •• ولكنه مخدوع فى دعوى الرسالة ؟ !

أى انهم لمـــا واجهتهم أدلة صدقه صلى الله عليـــه وسلم خرجوا من هـــذا المـــأزق بهذا الرأى المتهافت •• فحكموا بصدقه •• وكذب رسالته !! وصدق الله العظيم اذ يقول : **« قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »**(١٧) •

وقد تولى المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى رد هـــذا الأسلوب بما ملخصه :

١ ــ واجهت المستشرقين أدلة صدقه عليه الصلاة والسلام من كل ناحية •• وبدل أن يسلموا برسالته التى جاء بها •• فضلوا الوقوع فى التناقض على الاذعان للحق : **« وجحدوا بها واستيقنتهـــا أنفسهم ظلما وعلوا »**(١٨) •

وقالوا انه صادق •• وينسبون الكذب الى الحق سبحانه وتعالى •• فهو لم يرسل محمدا • مع أن الحق أيده بمعجزات كثيرة •

٢ ــ اذا كان مخدوعا فى نفسه فهل كان كل من حوله مخدوعين كذلك ؟ ••

(أ) وهم الصفوة المختارة •

(ب) وعلى مدى ٢٣ عاما •

٣ ــ ثم لمـــاذا لم يكذبه الحق الخارجى والذى تطابق مع رسالته وصدقها فى كل ما جاءت به جملة وتفصيلا •

٤ ــ ادعاء مرضه صلى الله عليـــه وسلم •• أى احتساب لحظة الوحى ظاهرة مرضية يبطله قوة ما يأتى به فى هذه اللحظة « المرضية » مما عجز الأصحاء عن الاتيان بمثل أقصر سورة منه !

---

(١٧) الأنعام : ٣٣ (١٨) النمل : ١٤

٥ ــ لو كانوا يكذبون بكل رسول •• وبكل دين •• لكان الأمر مفهوما •• ولكنهم يكذبون به فقط •• بل يؤلهون عيسى ويؤمنون بكل دين •• وبكل رسول حتى عدوا البوذية دينا ورؤساءها أنبياء !! ••

وتجبت حتى كدت لا أتعجب ! ••

***

التشكيك فى أن القرآن من عند الله :

ولابد من الاشارة الى معنى جدير بالاهتمام وهو : أن الاستشراق لا يحرص على محو الأمة الاسلامية من الوجود •• فذلك أمر فضلا عن استحالته •• غير وارد فى دراساتهم •• ولكنهم يريدون بقاء الأمة الاسلامية •• فى قالب تقليدى باهت •• غير متمثل روح الاسلام الحقيقية •• بحيث يكون زمامها فى يده •• وتلك غاية المراد ••

ولقد وضحت هـذه الحقيقة فيما نقل عن « جلادستون » رئيس وزراء بريطانيا الأسبق •• وهو يخاطب مجلس العموم هناك :

يجب القضاء على ذلك الكتاب ــ وأمسك بيده المصحف ــ وأسرع نائب بريطانيا فانتزع المصحف منه •• ثم مزقه ••

فما كان منه الا أن قال له : أيها النائب •• ما أريده هو تمزيق آياته من صدور المسلمين •• لا تمزيق أوراقه ! فليكن ذلك المصحف موجودا •• ولترتله ملايين الألسنة •• بل يجب على الاذاعات الأجنبية أن تذيعه كل يوم ••

لكن الأهم •• أن نعمل على الحيلولة بين روحه الوثابة وبين الأمة التى لو تمثلتها •• ووعتها لزلزلت الأرض من تحت أرجلنا • من أجل ذلك •• وعلى محور منه دارت خططهم •

ادعى المستشرقون أن القرآن الكريم من عمل محمد عليـه الصلاة والسلام • ولقد تأثر بعض المسلمين بهذا الهراء على تهافته •• ومن ذلك « طه حسين » من أن رقة القرآن المدنى راجعه الى تأثير اليهود

بالمدينة •• وادعى أن لليهود أثرا فى الشعر العربى — ارضاء لأستاذه « دوركايم » اليهودى المشرف على رسالته[١٩] .

والتهمة ليست جديدة •• ولكنها تنحدر من الأخلاف الى الأسلاف •• ولقد زعم الكفار أن محمدا صلى الله عليه وسلم تأثر فى القرآن بما يسمى « جبر الرومى » غلام عامر بن الحضرمى ••

وقد رد الله تعالى هذه الفرية بقوله تعالى : **« ولقد نعــلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهــذا لسان عربى مبين »**[٢٠] .

وقد تضمنت الآية هذه الحقائق :

١ — أن الكفر تواصى بنشر هــذه الفرية وتعهدها دائما •• كما يفهم من التعبير بالفعل المضارع « يقول » .

٢ — وانهم يؤكدون ذلك تأكيدا جازما يوحى بالتثبت •• كما يحاول القوم اقناع الأغرار بأن هــذا نتيجة ما يسمى بالبحث العلمى اليقين وذلك كما تدل الصيغة القرآنية : **« انما يعلمه بشر »** .

٣ — ثم يجىء الرد حاسما قاصما :

أن لغة الغلام المزعومة أعجمية •• غير بينة فكيف يعلم القرآن المعجز •• وفاقد الشىء لا يعطيه ؟

« ان القرآن الكريم معجز بنظمه . كما أنه معجز بمعناه . فان زعمتم أن بشرا يعلمه معناه •• فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل الدنيــا ؟ •• والتشبث فى أثناء الطعن بأذيال أمثال هــذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم »[٢١] .

---

(١٩) د . صادق أمين « الدعوة الاسلامية » ص ١٨
(٢٠) النحل : ١٠٣ (٢١) تفسير ابو السعود .

والغريب أن أخلاف هؤلاء المستشرقين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل .. قاتلهم الله ! ..

وانك لتحس بمدى التعصب المعبر عن الحقد الكامن فى نفوس القوم حين يقررون مثل هـذه القضايا الخطيرة .. بلا دليل يشد من أزرها ..

بل انهم ليفترضون فرضا وهميا .. ثم يحاولون أن يبنوا فوق الرمال قصورا من الأمانى الكذاب !

ففى سبيل تقرير ما زعموه من تأثر محمد صلى الله عليـه وسلم باليهوديـة والنصرانية يركبون الشطط :

يقول المستشرق الألمـانى « رودولف » : « نحن مضطرون أن نفترض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل الى مكة على نحو ما » .

فانظر كيف يجعل الفرض أساسا للحكم .. وكيف سول لهم التعصب أن يركبوا متن التناقض فى سبيل قطع كل صلة للقرآن بالسماء ..

ويهمنا هنا أن نرد ذلك الرأى الى أصله التاريخى ..

لقد وقف اليهود نفس الموقف فى عصر الرسول صلى الله عليـه وسلم .. وزيفوا الأحكام .. متأثرين بحقدهم على الاسلام وأهله ..

ومن أجل تشويه حقائق الاسلام يلجأون الى التناقض الواضح والضلال المبين .. لقد « بلغت ضلالة اليهود الغاية . حينما سألتهم قريش — الكافرة الضالة — وهم يؤلبونها لحرب محمد قبيل غزوة الأحزاب وسألتهم فقالت :

« يا أحبار يهود .. أنتم أعلم بالكتاب منا . أفديننا خير أم دين محمد ؟ أينا أهدى سبيلا ؟ وأقرب الى الحق ؟ ..

اننا ننحر الجذور الكوماء . ونسقى اللبن على المـاء . ونطعم ما هبت الشمال » !

فاجابهم اليهود فى غير خجل ولا حياء : « دينكم خير من دينه . وأنتم أهدى سبيلا » .

وهم يعلمون أنهم بهذا القول يكذبون على الله والناس . ولكن الله تعالى لم يسكت عنهم . ففضحهم . ولعنهم فى قوله : **« ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »**[٢٢] .

* * *

---

(٢٢) النساء : ٥١ ، ٥٢ « سيرة النبى » احمد التاجى ص ٣٩٠ ، ٣٩١

تكفل الله تعالى بحفظ كتابه

القرآن الكريم مهيمن على الكتب كلهـا هيمنة تبدو بها عظمة هذا الدين • الى حد لا يدرى الانسان كيف السبيل الى تقديره •

« **وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** »[1] • انها العزة الدائمة •• والاباء الأشم على كل تحريف أو تبديل •• ليبقى هاديا الى أن تقوم الساعة :

« وهذه نتيجة حتمية اقتضتها الحكمة الالهية لكون القرآن آخر الكتب المنزلة • على آخر رسول بالدين العام الكامل •

فلو مس القرآن الكريم داعى ريبة يدعو الى الشك فى شىء منه • من نحو تحريف أو شبهة لبطلت الحجة به على الناس • واحتيج الى رسول جديد • كما احتيج فى أزمان ما قبل القرآن الى دين جديد • كلما أصاب الدين الذى قبله تبديل أو تحريف • فلتحقيق تلك الحكمة الالهية الكبرى تكفل الله سبحانه بحفظ القرآن من قبل ما يضعف حجة الله به على الناس • فقال سبحانه فى سورة الحجر : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** »[2] •

ولقد أراد الله تعالى لكتابه الخلود •• فهيأ له أسباب ذلك الخلود •• وصرف همة الخلق ليكونوا جندا يتحقق بهم ذلك الحفظ •• وفى كل ما له صلة وثيقة بحفظ القرآن الكريم فى ناحيته اللفظية والمعنوية •• وصنفت آلاف الكتب فى شتى المعارف • صان الله تعالى بها كتابه عن التغيير ولو فى حركة واحدة منه ••

---

(١) المائدة : ٤٨

(٢) من مقال للمرحوم الدكتور محمد الغمراوى — والآية من سورة الحجر : ٩

وقد « روعى فى تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن • كما روعى فى تسميته كتابا كونا مدونا بالأقلام •

فكلتا التسميتين من تسمية الشىء بالمعنى الواقع عليه • وفى تسميته بهذين الاسمين اشارة الى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين • لا فى موضع واحد • أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعا •• أن تضل احداهما فتذكر أحداهما الأخرى • فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب • المنقول الينا جيلا بعد جيل • على هيئته التى وضع عليها أول مرة •

ولا ثقة لنا بكتابة كاتب • حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر • وبهذه العناية المزدوجة • التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية ابتداء بنبيها بقى القرآن محفوظا فى حرز حريز • انجازا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »**(٣) •

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند • حيث لم يتكفل الله بحفظها • بل وكلها الى حفظ الناس فقال تعالى : **« والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء »**(٤) أى بما طلب اليهم حفظه »(٥) •

* * *

عصمة الله تعالى رسوله من الناس :

ومن تمام حفظه تعالى لدينه القويم أن حفظ الداعى اليه صلى الله عليه وسلم فلا تناله يد بعدوان •• وذلك قوله عز وجل : **« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس •• »**(٦) •

---

(٣) الحجر : ٩ (٤) المائدة : ٤٤
(٥) الدكتور محمد دراز ـ النبأ العظيم ص ٥ ـ ٧
(٦) المائدة : ٦٧

وقد روى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرس بالليـل . فلما نزلت هـذه الآيـة ترك الحرس . وقال : « يا أيها الناس .. انصرفوا . فقد عصمنى الله » .

* * *

معنى هـذه العصمة :

وبعصمته صلى الله عليه وسلم حتى يبلغ رسالات ربه .. ثم عصمته من الخطأ فيما هو شرع الله تعالى .. فوق ما تكفل به سبحانه من حفظ دينـه ..

كل أولئك ضمان أكيد فى نصر الله والفتح .. يبسط الطريق لا حبا أمام الدعاة الى الله ليواصلوا جهودهم المبرورة اعلاء لكلمة الله عز وجل .. فى ظل من هـذه الحماية الالهية .. والتى تشرق بها الآمال فى صدورهم ..

وصحيح أن الطريق ليس معبدا أمامهم .. ولكن صحيح أيضا أن شأنهم لابد أن يتحمل نصيبه من ضريبة الجهاد ..

ومهما اشتدت الخطوب .. فان الله تعالى معهم بنصره وتأييده .. ومع دينـه بالتمكين فى الأرض .. يهيىء له من أسباب التفوق والهيمنة على الحياة ــ كلما حاولت أن تعربد .. وتفلت من زمامها ــ على يد مصلحين يجددون شباب الحياة كلما أدركتها عوارض الانحراف .

يقول صلى الله عليـه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »(٧) .

ويتحقق ذلك النصر المبين أولا بالقوة الذاتية للاسلام .. والتى تخطى بها السدود عبر تاريخه الطويل ..

---

(٧) أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

ثم عن طريق رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليـه .. ترجموا هـذه المبادىء الى واقع .. ومن مجموعهم تكونت خير أمة أخرجت للناس ..

لقد مكر الباطل بالاسلام مكرا .. وحشد له حشوده من كل لون .. وعلى كل موقع .. وأتى على الاسلام حين من الدهر أحرقت كتبه .. وما لم تلتهمه النار ألقى فى البحر .. فكان جسرا عبرت عليـه الجيوش الغازيـة .. ومع ذلك بقى الاسلام الذى هو من عند الله تعالى .. ولو كان من عند بشر لذاب فى معمعان هـذه الحرب الضروس ..

* * *

مسئوليـة الأمـة :

ولأن الاسلام مفصل على قد الحياة طولا وعرضا .. فان مسئوليتنا تبلغ الذروة .. لأنهـا مسئوليـة البلاغ .. والدعوة الى الله .. والى أن تقوم الساعة .. حفاظا على الدين الذى تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظه ..

وعلى فترات من التاريخ تحملت الأمة الاسلامية بنجاح ما أنيط بها من دور تاريخى .. وكانت فى شخص علمائها الأفذاذ نبض قلبها ..

هؤلاء العلماء الذين جددهم بالمخاطر .. وصقلهم بالتجارب .. دون غيرهم من علماء الأرض .. ليكونوا على مستوى دورهم القيادى .

وهذا هو الفرق الجوهرى بين الاسلام وغيره من الأديان ..

والذى يكافىء دور الاسلام والمسلمين .. فى مواكبة الحيـاة على امتدادهـا .. يقول الندوى :

« يندر فى الأديان الأخرى شخصيات عظيمة تعيد اليـها الحيـاة والشباب . وتوجد فى أتباعها وأصحابها الحركة والنشاط . وتوجد فيهم الثقة بأديانهم وعقائدهم ..

اننا اذا استعرضنا تاريخ هـذه الديانات رأينا فترات طويلة قد

تمتد على مئات وآلاف من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين والاصلاح من يجدد هـذا الدين وبديله من أعدائه ..

ولنضرب لذلك مثلا بالمسيحية :

فقد امتحنت فى عهدها الباكر — يعنى فى منتصف القرن الأول المسيحى — بتحريف لا يوجد له نظير فى تاريخ الديانات فى عهدهـا الأول ، فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية . الى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية .. وذلك على يد راعيها الكبير .. بولس (١٠ — ٦٥ م) ..

وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح الى روح . ومن وضع الى وضع . ومن نظام الى نظام .. لا يشارك الثانى الأول الا فى الاسم وبعض الطقوس . ويتحدث عنه عالم مسيحى فيقول :

ان العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الانجيل ليس الذى دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله ..

ان مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس الى المسيح .. بل الى دهاء بولس ذلك المـارق اليهودى والمسيحى .. وبقيت المسيحيـة قرونـا طوالا — ولا تزال — تحمـل روح بولس .. وتحافظ على تراثه .

ولم يظهر فى العالم المسيحى فى هـذه المدة الطويلة من يثور على هـذا الوضع الطارىء الدخيـل على المسيحية ويحاول نقلهـا الى وضعها الأول الذى ترك عليـه سيدنا المسيح خلفاءه المخلصين من أتباعه ..

وانسلخت قرون .. ومضت أجيال اثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتظر لتجديد المسيحية . وتجريدها من الأجزاء الأجنبية حتى كان القرن الخامس عشر المسيحى فظهر « مارتن لوثر » فى ألمـانيا وقام

باصلاح محدود قاصر • ينحصر فى مسائل جزئية •• ولم يكن اصلاحا جوهريا شاملا »[٨] •

* * *

حاجتنا الى هــذا الطراز :

والأمة الاسلامية فى حاجة الى طراز يرتفع الى مستوى مسئوليته • ليقود القافلة الحائرة الى بر الأمان ••

وتشتد الحاجة اذا تصورنا ضراوة الاتجاه المــادى السائد اليوم •• بكل ما يملكه من اغراءات •• تلح دائما على غرائز الانسان ••

ان الرجال الذين يجدد الله بهم دينه لا ينشأون من فراغ •• بيد أنهم سلالة مختارة من أمتنا •• يحملون خصائصها المطبوعة على التفوق •• والتى ظلت فى شخص هــذه السلالة المباركة من علمائها على وعى دائم باحتمالات المضار •• واحتمالات المنافع ••

فتصدت للأولى •• واقتنصت الثانية بهذا الوعى النفسى المصبوغ بروح الاسلام •• فتمثلت المعروف النافع •• وقدمته للحيــاة حضارة •• بقدر ما خففت من جراح الانسانية بما قعدت من قواعد •• ووضعت من أصول •• صانت بها الانسانية من الضياع •

* * *

---

(٨) رجال الفكر والدعوة ، للندوى ص ١٩ ، ٢٠ .

كثير من الفتن عبر التاريخ قامت باسم العقل والبحث العلمى •• وبخاصة ما اتصل منها بالسنة المطهرة — وعند التأمل ندرك على الفور : بعدها عن العقل •• ومجافاتها لقواعد البحث العلمى •

وقد اتخذ الهجوم على السنة المطهرة مظاهر شتى :

فقد يسلم الباحث فقط بالحديث الذى لم يتفق مع آى من القرآن فى تقرير قضية ما •• بينما يحكم بوضع الحديث حين يوافق بعض الآيات من القرآن الكريم • يقول « درمنجم » فى معرض الرد على زميله « لامانس » :

« ان الأب « لامانس » يرى مثلا أنه حين يوافق حديث من أحاديث الرسول بعض آى من القرآن الكريم يحكم بأن الحديث موضوع • وأنه دس على النبى !!

لـــماذا ؟

اعتمادا على ورود معناه فى القرآن • وعلى تأييد الكتاب !!

ومن ثم لا يعتبره « لامانس » صحيح الرواية ولا يثق به •

فحدثنى بربك كيف يمكن تدوين التاريخ اذن ؟

اذا كان كلما اتفقت شهادتان واجتمعت دلالتان • فبدلا من أن تقوى احداهما الأخرى وتزكيها • فانها تكذبها وتجرحها •

ثم تساءل « درمنجم » : لـــماذا لا يكون مثل هذا الحديث شارحا للقرآن ؟ وهب الحديث جاء بمزيد من المعانى • فلماذا نهمل الأسانيد التى وردت به ؟ ••

وكيف يطلب من الناقد تجاوزها »[1] •

* * *

---

(١) مع الله ص ١٠٥ ، ١٠٦

انكار الحديث جملة :

وقد أنكر بعض المغرضين الحديث جملة ..

ويعنون بالانكار هنا : رفضه من الناحية التشريعية .. والا فهو من الناحية التاريخية ثابت ولا ريب .

غاية ما فى الأمر أنهم يقولون :

متدت المسافة الزمنية بين تدوين الحديث كعلم وفن « على يد ابن شهاب الزهرى . فى عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المـائة » وبين عصر البعثة النبوية .

وقالوا : ان الروايات التى رواها البخارى وغيره خاصة بموقف عمر بن عبد العزيز تثبت عقلا أن الحديث قبل هذا التدوين لم يكن أمرا مجمعا عليــه . وبالتالى فلم يكن مصونا من علة من العلل الآتية :

الزيادة أو النقص . أو التحريف والتبديل[٢] .

والجدير بالتأمل هنا :

أن القوم يعرفون وقع هذا الطعن فى قلوب المسلمين .. ومن ثم خلا يعلنونه كتهمة تستثير غضبهم .. وانما يدق كيدهم . ويلطف مكرهم فيقولون تملقا ومكرا :

ولعل ذلك قد تم بلا شعور من المسلمين ؟ !

واذا ثبت صحة البعض فرضا .. فقد ضاع الكثير .. وقبل أن يضيع الكل سارع ابن عبد العزيز فأمر بتدوينه ؟

واذا كان القوم هنا يريدون تحقق المخوف . أعنى ضياع البعض مما حمل عمر على تدوين الأحاديث الباقية قبل فوات الأوان .. فهم لا يثقون بهذا الباقى ..

(٢) مجلة البعث الاسلامى — ربيع الثانى ١٣٩٩

لأنهم يريدون القاء ظلال من الشك على بعض الأحاديث • ولو اضطرهم ذلك الى الاعتراف مؤقتا بجانب من الحق •• توسلا الى التشكيك فيما بقى • بعد أن يسلم لهم ذلك الموقف الأولى •• فما دام بعض الأحاديث قد ضاع فلم لا يكون الباقى منسوبا اليه زورا ؟

ولقد جهلوا أن السنة فى عصره صلى الله عليه وسلم كانت محفوظة أكثر منها مكتوبة •

« ولكنه حفظ متين لا يرقى اليه شك للأسباب الآتية :

١ ــ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعيد الكلمة ثلاثا لتحفظ عنه •

٢ ــ تربية الصحابة على الصدق •• وحرص الصحابة وخوفهم من الكذب عليه •

٣ ــ سهولة افتضاح أمر من كذب عليه وقتذاك لكثرة المراقبين أحواله والمرافقين له •

٤ ــ قوة حافظة عجيبة عند العربى هو فيها مضرب المثل »[٣] •

وهذا الأمان الوثيق من الخطأ أو النسيان تؤكده طبيعة هذه العصور التى كانت حراسة الدين شغلها الشاغل :

« قال رجل عند وكيع : أخطأ أبو حنيفة • فزجره وكيع وقال : ما هذا الا كالأنعام بل هو أضل سبيلا •

كيف يخطىء وعنده أئمة الفقه كأبى يوسف ومحمد •

وأئمة الحديث وعددهم •

وأئمة اللغة العربية وعددهم •

وأئمة الزهد والورع كالفضيل وداوود والطائى •

---

(٣) جند الله ص ٩٨

ومن كان أصحابه هؤلاء لم يكن ليخطىء لأنه ان أخطأ ردوه الى الحق »[٤] .

وصحيح ما يقولون من أن طبيعة البشر النسيان .. ولكن ليس صحيحا أن يكون ذلك ذريعة الى التخلص من الحديث جملة لمجرد احتمال الزيادة أو التحريف ..

وصور الاحتياط والدقة فى الجرح والتعديل تنفى مثل هذه التهمة :

كانوا يحكمون بضعف الحديث اذا عرف عن أحد رواته سهوة .. أو أحصيت عليــه هفوة تخل بكرامته .. وان كانت لا تخل بذكائه وعلمه ووعى ذاكرته ..

أى أن الحديث قد يكون فى ذاته صحيحا ولكنهم لا يقبلونه لأنه لم يرد على شروطهم الدقيقة .. والتى منها أن يكون الراوى موفور الكرامة . طاهر الذيل .

وقد بلغ احتياطهم مداه حين كانوا يردون الحديث لو عرف راويه بكذبة واحدة !

وانك لتلمس عمق التشدد هنا اذا حدثت نفسك بما يلى :

الذى يكذب مرة .. ليس بلازم أن يكذب كل مرة .

أو أن الكذب عادة له ..

والذى يكذب على الناس ليس بلازم أن يكذب على الرسول ..

ولكنه الاحتياط الشــديد الوثيق دفعهم الى ذلك التدقيــق .. مما يحملنا على الاعتقاد بأن أحاديث كثيرة صحيحة ـ ولكنها لم تجىء على شروط العلماء .

وقد أشار المرحوم الدكتور محمد الغمراوى الى هذا والى فكرة تنقيح الأحاديث الواردة على لسان المستشرقين القائلين :

---

(٤) المرجع السابق ص ١٣٦

ان الأحاديث المتواترة الوثيقة الصلة بالرسول صلى الله عليـه وسلم أقل من القليـل •• وهذه لا يمكن نخلها ••

أما ما يقبل التنقيح والحذف فهو لا يفيد الا الظن على تفاوت درجاته •• وقد رد عليهم مفندا مزاعمهم •• وكان مما قاله :

١ ــ اذا كانوا يريدون تمحيص الأسانيد •• فهى غير قابلة لذلك لأن العلماء لم يدعوا بتمحيصها قولا لقائل •

٢ ــ واذا كانوا يريدون تمحيص المتن •• فهو الحكم بالهوى والرأى فى حديث رسول الله صلى الله عليـه وسلم ••

٣ ــ ان الرجحان أو الظن •• وهو ما يفيده غير المتواتر هو فى الواقع أقل ما توصف به هـذه الأحاديث •• والا فهى فوق ذلك بكثير • وقد أطلق عليـها العلماء صفة الرجحان لأنهم لا يملكون أكثر من ذلك القدر المتاح لعقولهم •

ومع ذلك فان كتاب التاريخ لو دققوا دقة أصحاب الأحاديث لـما ثبت شىء من التاريخ أبدا •

* * *

وقفة مع الرافضين :

ولابد لنا من وقفة أمام بعض الأحاديث النبوية التى استشهد بها منكرو الأحاديث •• نبين كيف أنها عليهم •• وليست لهم :

استدلوا على وهمهم هذا ــ وهو انكار جميع الروايات المروية عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم بمعنى انكارها كمصدر تشريعى للأحكام وان كانت مجرد شرح للقرآن الكريم ــ استدلوا على هذا بما رواه الذهبى عن عائشة رضى الله عنها تقول :

« جمع أبى الحديث عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم وكانت خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيرا • قالت : فغمنى فقلت له : أتتقلب لشكوى أو لشىء بلغك ؟ فلما أصبح قال :

أى بنيــة .. على الأحاديث التى عندك . فجئته بها . فدعا بنار فأحرقها .

فقلت : لم حرقتها ؟

قال : خشيت أن أموت وهى عندى فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت به . ولم يكن كما حدثنى فأكون قد نقلت ذاك » .

والحديث واضح الدلالة على أن الصديق رضى الله عنه لم يشك أبدا فيما جمعه من أحاديث رسول الله صلى الله عليــه وسلم .

ولكنه من فرط تعظيمه للسنة .. يخشى أن يكون فيها ولو حديث واحد فى سنده دخل فيتحمل مسئوليته .. وهو ما يفر منه بما صنعه من حرق الأحاديث ..

وحجته تلك واضحة فيما أجاب به عائشة رضى الله عنها ..

فالقضية هنا : احتمال وجود ذلك المدلس الذى ربما لا يكتشفه .. ويقع فيما نصب من كمين ..

وليست القضية شكا فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وانها لصورة أخرى من الاحتياط تضاف الى ما ذكرنا آنفا .

وقد احتج الرافضون أيضا بما رواه البيهقى عن عمر أنه أراد أن يكتب السنن . فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليــه وسلم فأشاروا عليــه أن يكتبها .

فطفق عمر يستخير فيها شهرا فأصبح يوما وقد عزم الله له فقال : « انى كنت أردت أن أكتب السنن . وانى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها . وتركوا كتاب الله وانى والله لا ألبس كتاب الله بشىء »

والحديث لا ينهض دليلا للقوم .. بل العكس هو الصحيح : فهو ينقض رأيهم من أساسه :

١ — فهناك سنن متفق عليــها ويرغب عمر رضى الله عنه فى تسجيلها .

٢ — وأشار عليـه الصحابة بكتابتها •

٣ — وبلغ به الاحتياط حدا حمله على مراجعة نفسه •• والخوف من اتخاذ قراره النهائى قبل شهر من الزمان •

٤ — وأخيرا عدل عن ذلك لا لشك فى السنة كمصدر للتشريع كما يزعم الزاعمون •• ولكن خوفا عليـها من أن تختلط بالقرآن الذى يجب أن يظل كما هو متميزا •

وبمثل هـذه الحجج البالغة تسلم السنة المطهرة كمصدر للتشريع بعد كتاب الله عز وجل •

١ — تصور لنا بدقة ما جل وما قل من عصر البعثة النبوية ••

٢ — تظل الميزان الدقيق للمجتمع المسلم •• يحتكم اليـها كلما تشعبت به السبل ••

٣ — وتظل أيضا مصدر القوة والمنعة •• والمعين الذى لا ينضب لحياتنـا بمختلف جوانبها ••

وهى نفس المعانى التى يستهدفها أعداؤنا الذين يهاجمون السنة حرمانا لنا من هـذه الميزات التى لم تتوفر لهم •• ومن ثم فهم كما صور القـرآن : **« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء »**(٥) •

وقد جهل المغرضون ما يأتى :

كانت هناك مجامع فردية •• قبل تدوين الحديث الجماعى فى منتهى المـائة الأولى •• فى عهد الصحابة •• وفى عهد التابعين •

وفى العهد النبوى كانت هناك « الصحيفة الصادقة » لعبد الله ابن عمرو بن العاص • وفيها ألف حديث كما جاء فى أسد الغابة :

---

(٥) النساء : ٨٩

« استأذن النبى صلى الله عليـه وسلم فى أن يكتب عنه . فأذن له .
فقال : يا رسول الله .. أكتب ما أسمع فى الرضا والغضب ؟

قال : نعم .. فانى لا أقول الا حقا .

قال أبو هريرة : ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليـه وسـلم منى الا عبد الله بن عمرو بن العاص فانـه كان يكتب ولا أكتب .

وقال عبد الله : حفظت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف مثل »(٦).

وكان هناك صحيفة « على بن أبى طالب » .

وجمع سمرة بن جندب الحديث وورثه ابنه سلمان بن جندب وجمع سعد بن عبادة أيضا ..

ومات ابن عباس وخلف تراثا مكتوبا حمل على جمل ..

واذن ، فلم الاختلاف .. وعلام التشكيك ؟ ! ..

انهم يجهلون أو يتجاهلون الفرق بين الجمع الفردى . وهو الذى كان مستمرا .. والجمع الحكومى وهو ما تم على يد عمر بن عبد العزيز .

ففيم الجدال اذن ؟

وقد يقول قائل : « ان الحديث اذا كان مصدرا للتشريع فلماذا أحرق أبو بكر مجموعتها .. ولم خاف عمر من التباس الحديث بالقرآن !

أفلا يدل ذلك على كفاية القرآن بيانـا وتشريعا .. واستنباطا .. ولا حاجة بنا لحديث ؟

الجواب من حيث الشكل :

أنكروا أن تكون أحاديث نستنبط منها — يعنى تجميدها لو صحت — فلم استنبطتم أنتم حكمكم وقلتـم :

---

(٦) أسد الغابة .

لم أحرق أبو بكر •• ورفض عمر تدوين الأحاديث ؟ ؟ !

أليس هذا اعترافا به ؟

أشار الشيخ « مناظر أحسن الكيلانى » فى كتابه « تدوين الفقه » : لم تفرضون احتمالكم • وهناك احتمالات أخرى وجيهة •• ومنسجمة مع روح الاسلام •• وروح الخلفاء فى تناوله ؟

(أ) فأبو بكر الذى أحرق ••

(ب) وعمر الذى خاف الالتباس ••

كانا يقرآن المستقبل •• وتصورا وضع الناس فى الأعصار البعيدة عن الاسلام •

وكيف أنهم سيفتتنون بالحديث بنسبة أكثر قد تنسيهم القرآن لو علموا أن الخلفاء — وهم من هم قداسة — قد جمعوه واعتنوا به ••

أى أنه الاحتياط •• ولا شىء وراءه •

يقول الدكتور محمد سعاد جلال فى « قرآن وسنة » :

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يوشك رجل منكم متكئا على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول — بيننا وبينكم كتاب الله ألا فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وان ما حرم رسول الله مثل الذى حرم الله »[(٧)] مثله بمنزلته فى الاعتبار والعمل •

الحديث رد على الذين يقتصرون استمداد الأحكام الشرعية على الكتاب ويعرضون عن الأخذ بسنة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصوغ هذا الرد بما يتضمن التهكم والتهجين لمسلك هؤلاء الرافضين للسنة ويصورهم بصورة المتكبرين بغير الحق عن قول ما هو حق • لأن اطراح

---

(٧) رواه الترمذى عن المقدام بن معديكرب وابن ماجه وأبو داوود بألفاظ متقاربة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

السنة موقع فى الضلالة والانخلاع عن الجماعة لأن النص من كتاب الله تعالى يكون مطلقا .. أو مجملا أو عاما فلا يعلم مراد الله منه ــ فتجىء السنة بتقييد المطلق وبيان المجمل وتخصيص العام فحينئذ بينت مراد الله من كلامه .

فالعمل بكتاب الله تعالى من غير نظرة للسنة عمل على غير مراد الله تعالى من نص كتابه ، ومن دعا لترك السنة أو شكك فى صحيحها فانما يخدم غير المسلمين .

* * *

صار الواحد •• ألف مليون !!

محمد صلى الله عليه وسلم •• الذى وقف وحيدا يؤذن فى الناس بدعوة التوحيد •• على دروب مكة •• يصير اليوم ملايين تعمر أركان الدنيـــا •• ومئات الألوف من المساجد عامرة بالركوع والسجود ••

آلاف الاذاعات تتحدث عن الاسلام ••

وحتى اذاعات الأعداء تذيع القرآن الكريم صباح مســاء •• ادعاءات هنا •• وهناك •• بالانتساب الى الاسلام •• والحرص عليــه •• وبغض كل كافر به ••

ولكن •• مع هذا ، فما زال الاسلام يقف موقف الدفاع عن نفسه •• بينما يملك هـــذا العدد •• وتلك الامكانات • ان الباطل ليحقق كل يوم انتصارات على حساب الحق المضيع فى غفلة من أهله •

وما تزال على طريق الدعوة سلبيات تحتاج الى مزيد من الايضاح • ومزيد من الشجاعة الأدبية أيضا للتغلب عليـــها واستئناف مرحلة أفضل •

والسؤال الآن : لمـــاذا تتعثر الدعوة ؟

ما هو موطن العلـــة ؟

لقد كان دعاة الأمس البعيد يفعلون الأعاجيب فى ظل ايمانهم بربهم سبحانه •• وانفعالهم برسالتهم الكبرى :

فحذيفة بن اليمان يذهب ليتعرف أحوال المشركين فى غزوة الخندق فى ليلة باردة ••

وكان يقول : انطلقت وكأنما أسير فى حمام !

فما فى كيانه من حرارة الايمان أفقده الاحساس بالبرد القارس !
بل كان يحس فعلا بهذا البرد .. لكنه ارتفع فوق مستوى الألم ..
انها كما يقولون مشتقة من « العذوبة » لا من « العذاب » !

وهكذا كان أثر الايمان السحرى :

يقتحم به الدعاة الأهوال .. فلا تذيب الأهوال عزم الرجال .. بل انها لتعيد بناء نفوسهم من جديد . ليبدأوا مع الباطل جولة أخرى .. ولينطلقوا بالناس الى الله تعالى مسافة أبعد ..

وقد تبرق السماء .. سماء حياتهم .. وقد ترعد .. وتنذر بالصواعق .. فلا تتبعثر الآمال فى صدورهم .. فالأمطار التى يستنزلها الايمان .. فى النهاية .. تغسل الهموم .. وتبدو الحياة أكثر جمالا .. وكمالا .

أما اليوم : فكثير من المتحدثين .. يملأون سمعك .. ثم ينطفىء وهج حديثهم فور اختفاء صورهم على الشاشة .. أو مكبر الصوت ..

والقليل منهم يمضى وفى خيالك صورته .. وفى أذنك رنين صوته .. فى عقلك أفكار من أفكاره .. وخلجات من نبض قلبه ..

لقد فتح أمامك عالما من الحقائق .. ومضى بك الى عالم جديد من المعانى .. فتفرد شراعك معه وتمضى فى بحر من الأفكار والمشاعر ..

وربما تساءلنا ما هو مفرق الطريق بين الاثنين ؟ ..

والجواب : ان السر يكمن فى كيانه .. أى فى ايمانه .. كما يكمن العنبر فى أحشاء الحوت .. ويقبس من هذا الايمان يشعل فى قلبك نورا .. وعلى هداه ترى الحقيقة ..

انه لم يخلق لك الحقائق من العدم ..

فالحقائق كنز فى صدرك .. وصدور الآخرين .. كما يقولون ..

ولكنهم بالغفلة •• والسلبيــة يبحثون عنها خارج الذات •• ويضل سعيهم من حيث يدورون حول أنفسهم ثم يعودون خاسرين •

والمتحدث الناجح هو الذى يستخرج الحقائق من أغوار النفوس •• بشفافية الايمان •• وعمقه ••

دواؤك فيــك وما تبصر   وداؤك منــك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صــغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

فذا غاض الايمان فى قلب الشاعر اليائس وقال :

ان الانسان فى زنزانة هى جسده •• ولقد ضاع مفتاحها فى بحر الظلمات •• فان الداعية الناجح هو الذى يلتقط المفتاح •• ليفتح القفل المغلق •• ويفتح عينك على مستودع الأسرار فى كيانك •

يقول الحق سبحانه : **« وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »**(١) •

« سنريهم آياتنــا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنــه الحق »(٢) •

ان الداعية الحق يقف الى جانبك •• ويعيش حياتك •• ولا ينتظر المصادفة كى تغير له الظروف •• بل هو بالايمان والثقة بالله عز وجل يكيف هــذه الظروف بل ويغير اتجاهها لحساب الدعوة ••

فالنفس الانسانية بنص الآيتين الكريمتين : خزينة الأسرار •• وكل ما فيها من الأسرار يغرى بالبحث والنظر ••

من أجل ذلك يهيب بنا الحق سبحانه أن ننشط لنفهم •• وينكر علينــا جمودنا عن طريق هذا الاستفهام المنبه : **« أفلا تبصرون »** •

ثم تلطف سبحانه فوعد بالكشف عن هــذه الأسرار : **« سنريهم آياتنــا »** •

---

(١) الذاريات : ٢١   (٢) فصلت : ٥٣

وهنا تبرز مسئولية الدعاة :

ان هناك فجوة واسعة فعلا بين الدعاة •• والجمهور ••

ومن وراء ذلك فيما نعتقد ضعف الايمان •• وخفة الأحلام الراغبة فى الدنيا •• الساعية وراء بريقها •• وسلطانها ••

ان غريزة التقليد واحدة من غرائز فعالة فى كيان الانسان •• واذا كان الناس على دين ملوكهم فهم على دين علمائهم أيضا •• ولكنهم ينظرون أحيانا ليروا بعض الدعاة مثلهم •

يطلبون الدنيـــا •• ويتفننون فى لذاذتهـــا ••

والمفروض أن بالناس شوقا الى تقليد العلماء فيما لا يحسونه فى أنفسهم من خلائق الورع والتقوى ••

فلما رأوهم مثلهم •• وحين « استوى المـــاء والخشبة » ولم يجدوا فيهم ما يستحق التأمل والتقليد •• صرفوا النظر عنهم ••

ولم يقف الأمر عند هذا الحد •• بل انهم صرفوا النظر أيضـــا عن دعوتهم • وما تحفل به من عناصر السعادة والتقدم •• وكانت الخسارة فادحة فى كلا الجانبين ••

* * *

مع الدكتور أبو المجد[1]

تحدث الكاتب عن الأسباب الكامنة وراء المد الاسلامى الحديث • ثم عن جوهره ومحتواه واحتمالات نموه ••

ومن المفيد أن نثبت رأى الدكتور هنا بحذافيره •• لما فيه من أمور جديرة بالتأمل بقدر ما هى صادرة من رجل مارس وظيفة الدعوة الى الله من موقع المسئولية سنين عددا ••

يقول الكاتب :

١ — ان هـذا المد الاسلامى المعاصر — فى جانب منه على الأقل — جزء من ظاهرة عالميـة نعيشها هى ظاهرة المد الدينى بوجه عام • ولقد كان المؤرخون فى الخمسينات وأوائل الستينات من هـذا القرن يتحدثون عما أطلقوا عليـه « أزمة الدين فى عصر علمانى » • وكانوا يشيرون بذلك الى ما ولدتـه قفزات العلوم الطبيعية والتجريبية التى حققت الثورة الصناعية الثانية من عبادة جديدة للعقل وثقة مفرطة به ، واعراض عن كل ما عداه ، واستشراف لمستقبل تكون فيـه للعلماء التجريبيين سيادة على عقول الناس ومعتقداتهم لا يشاركهم فيها أحد •• ويفقد الدين معها سلطانه التقليدى على النفوس والعقول ، ويصيبه الشك فى جوانبه الاعتقادية والعلمية على السواء •

وبرغم أن هذه الظاهرة قد وقعت أساسا خارج حدود العالم الاسلامى • فان انهيار الحاجز بين الشعوب والحضارات نتيجة الثورة فى وسائل النقل والاتصال ، قد نقل الى المجتمعات الاسلامية بعض آثار تيار المـادية التى لا تكاد تترك فى عقول الناس موضعا للايمان بالغيب • ولكن لله حكمة هو بالغها •• فكما حملت الثورة الصناعية مع بشائرها

---

(١) فى مقال للدكتور احمد كمال أبو المجد ، مجلة العربى — يناير ١٩٨٠

الأولى بذور الثقة المطلقة فى العقل ، فانها حملت بعد ذلك ــ ومع استيعاب آثارهـــا العمليـــة على حيـــاة الفرد والأسرة والمجتمع ــ بذور قلق لا حدود له أصاب العقول والنفوس • لذلك بدأت تلوح فى الأفق بشائر حنين جديد الى السكينة الضائعة ، والرضا المفقود • والسلام الذى زلزلته عبادة الدرهم والدينار •

واذا كان التمرد على القلق والعنف والقهر والمـــادية الجامحة قد اتخذ ــ فى جانبه السلبى ــ صورة الرفض لكل رموز هـــذه الحيـــاة المـــادية وللمؤسسات التى تمثلها •• فان بركان هـــذا الرفض الذى بلغ ذروته عند الشباب فى منتصف الستينات ــ لم يلبث أن هدأ •• وبدأ يتخذ البحث عن الفردوس المفقود ، حنينا عميقا الى المطلق ، والتماسا للسكينة فى رحابه ، وطلبا للأمن حيث لا ظل الا ظله •• وامتلأ الغرب بموجات الشباب اللاهث بحثا عن اليقين ، اللائذ بكل ما يصادفه من ألوان العقائد والمذاهب والأديان •• السماوى فيـــها وغير السماوى • وبقيت السنوات العشر الأخيرة سنوات عودة الى الدين •• وجدت بدورهـــا سبيلهـــا الى المسلمين ، كما وجدت بذور الشك من قبلها السبيل نفسه •

على أن للمد الاسلامى المعاصر أسبابا أخرى خاصة بالمسلمين ، ذلك أن تعاظم القوة الاقتصادية ، للدول العربية وغالبيتها العظمى من المسلمين ، قد فجر احساسا بامكان الاستغناء عن الغرب ، الذى احتلت حضارته وثقافته مكانا عاليـــا فى نفوس العرب والمسلمين ولذلك أصبحت عمليـــة البحث النشيط عن الهويـــة الحضارية تكون أساســـا نفسيـــا وعقليـــا للاستقلال السياسى والاقتصادى ، الذى بدأت تنعم به أكثر الدول العربية الاسلامية •• وكان طبيعيـــا ومنطقيا أن يتخذ هـــذا البحث صورة « العودة الى الأصول » وأن يدخل الاسلام وحضارته موجة مد جديد ••

* * *

أول التحفظات :

٢ — أما السؤال الثانى الذى يتعلق بجوهر هـذا المد ومحتواه وتصور مستقبله ، فلعله أصعب السؤالين وأخشى ألا أكون فى هـذه القضية بالذات من المتفائلين ، وذلك أن مشكلة المسلمين لم تكن أبدا فى قلة عددهم ، وأزمة الحضارة الاسلامية ليست انحسارها عن أقاليم وشعوب • وأن المشكلة كانت ولا تزال مشكلة « صياغة » نموذج وأسلوب للحيـاة تتأكد به قيـم الاسلام العليـا ومبادئه المميزة ، وينطلق المسلمون — فى ظله — الى ممارسة حياتهم العصرية بلا عقد ولا أزمات ولا فصـام فى الشخصيـة كالذى يكابده ويشقى به اليوم كثير من المسلمين ••

وسر التحفظ الذى يحول بينى وبين التفاؤل السريع بمظاهر المد الاسلامى الجديد •• أن الحركات العديدة التى تجمعها موجة هـذا المد الجديد لا يزال أكثرها يعانى آفات أربع لابد من الاشارة اليها ، وان كان كل منها يحتاج الى حديث طويل :

(أ) وأول هذه الآفات العجز عن اقامة علاقات من المودة والحوار مع سائر عناصر المجتمع وتياراته •• ان منهج « من ليس منا فهو من أعدائنا » يحصر دعاة الاسلام فى دائرة ضيقة مغلقة • وقد يتطور عند أصحابه من مجرد تقصير فى الاتصـال بالآخرين الى نوع من الخصومة العامة مع المجتمع ، وهـذا مدخل من أخطر مداخل الانحراف فى فهم الاسلام والدعوة اليه •• ومن أخطر ثمراتها أن يتصور أصحابها أنهم وحدهم « جماعة المسلمين » وأن الخارج عليهم خارج على المسلمين •• اننا لا نريد أن نفتح باب الحديث الطويل فى هـذه الآفة وانما نقول فى كلمات موجزة انه لم يعد من حق أحد أن ينصب نفسه مسيطرا على الناس باسم الاسلام يقضى فيهم بالطرد من رحمة الله • ولهذا لا نشجع أبدا وصف مجتمع معاصر بأنه « مجتمع جاهلى » • اذ الناس من حولنا بشر يصيبون ويخطئون وحسابهم على الله • والجاهلية وصف يتجزأ فى الأفراد والمجتمعات كما ورد فى قول النبى صلى الله عليـه وسلم لأبى ذر : « انك امرؤ فيك جاهلية » • والمؤمن المطلق والكافر المطلق وصفان لا يجوز اطلاقهما على مقر بالشهادتين • وانما الناس من حولنا يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا •• وليذكر المسارعون الى تكفير الناس

والمغالون فى ذلك ، وأن حسن نيتهم وحماسهم لدينهم لم يعد عذرا مقبولا ولا حجة مسموعة ، وانه تعالى يقول : **((يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا))**[٢] .

(ب) والآفة الثانية : أن أكثر القضايا الفكرية والاجتماعيـــة التى كانت معلقه فى سائر الفكر الاسلامى والحيـــاة الاسلامية لا تزال على حالها لم يتقدم البحث فيها كثيرا •• فالعلماء مترددون فى الاجتهاد •• وأكثر المفتين يؤثرون السلامة بالوقوف عند الســوابق العديـــدة ويدورون فى كتب الفقه لا يريدون أن يتجاوزوها •• والمسافة بين العالم الذى تصوره وتعالج مشاكله أكثر هــذه الكتب ، وبين الواقع الحى الذى يعيشه الناس بكل ما فيه من تطلعات ومشاكل وهموم ـــ تتسع يوما بعد يوم •• والقضايا المعلقة هى •• هى •• المرأة ومكانها فى المجتمع •• وحدود حقها فى العمل والاختلاط بالرجال •• المؤسسات الاقتصاديـــة والمصرفيـــة •• التأمين •• حدود الاستمتاع المشروع بالموسيقى والغناء •• وأكبر من ذلك وأخطر معالم التنظيم الاقتصادى والسياسى للمجتمع •• وما يتطلبه فى شأنها الاسلام •• ان المظهر الحقيقى للتقدم فى هــذا الميدان ، أن يقدم علمــاء الاسلام البدائل لكل ما ينهون عنه أو يدعون الناس الى تركه •• فعلى هــذا المنهج قام الاسلام ، وبه ارتفع الحرج عن الناس •• أما أن توسع دائرة الحرام •• وتظل دائرة الحلال على ضيقها « ترك الشبهات » أو « رفض البدع » « التزام مسلك السلف » ـــ فهو ظلم للاسلام ، نتيجة عجز علمائـــه ودعاته عن الاجتهاد بما ينفع الناس ••

ولهذا فاننا نلمح وسط هــذه الشكوى من الجمود بشائر منهج جديد ، يتمثل فى العديد من المؤسسات الاقتصادية والمصرفية التى أحلت المشـــاركة فى المخاطر محل الربا والغرور •• واقامة أنظمة للادخـــار والاستثمار لا يدخلها الربا باثمه وشروره •• ولسنا غافلين عما يحيط بها من عقبات وصعوبات فى تخريج البدائل أحيانا وفى ممارستها أحيانا أخرى •• ولكنهـــا ـــ فى يقيننا ـــ احدى الومضات القليلة التى تبعث

---

(٢) النساء : ٩٤

التفاؤل ، وتجيز لنا أن نسمى « المد الاسلامى » من حولنا « بداية صحوة حقيقية » للمسلمين .

* * *

والخلل فى ترتيب الأولويات :

(جـ) والآفة الثالثة ، تتمثل فى الخلل فى ترتيب الأولويات عند عرض الاسلام والدعوة اليه . ونحن هنا لا نشك بحال فى تكامل بنـاء الاسلام ولا نتجاهل هـذا التكامل .. فالعقيدة أساس الاسلام والأخلاق ضمانه ، والشريعة ترجمته العملية .. والواجبات فيه كلهـا مطلوبة والمحرمات كلها واجب تركها .. ولكن دعوة الناس والتوصل الى اقناعهم وكسب ولائهم ، تقتضى مراعاة تدرج خاص وترتيب معين فيما يبدأ به . وما يمكن أن يتراخى طلبه والتشديد فى أمره ، وكثير من الناس يقفزون قفزا من كتب الفقه الى منابر الدعوة دون أن يتوقفوا قليلا ليعرفوا واقع الناس وما هم فيه .

ان الأمر هنا ليس أمر فتوى ولا أمر تشريع ، وانما هو أمر ترتيب البيان ، وتدرج فى معاملة النفوس واقتراب من واقع الناس طلبا لهدايتهم .. ان الدعاة الى الاسلام يقعون فى خطأ فادح اذا هم خرجوا على الناس فى جميع المجتمعات بقائمة موحدة من الأوامر والنواهى ومطالب الاصلاح والتغيير ، متجاهلين خصائص تلك المجتمعات ومشاكلها التى تتفاوت فى أهميتهـا والحاحها من زمن الى زمن ومن بلد الى بلد ..

أليس غريبا على سبيل المثال أن يطيل كثير من الدعاة الحديث فى النهى عن شرب الدخان وعن سماع الموسيقى والغناء أو الدعوة الى ارسال اللحيـة ، وفرض الحجاب على النساء ، وألا نرى منهم نفس الاهتمام والحماس حين يتصل الأمر بقضايا الحرية والشورى والعدل فى توزيع الثروات ..

ومن هـذه الأمثلة كذلك المبالغة فى الاهتمام بقضية الحدود عند المناداة بتطبيق الشريعة وتقنينها .. ان أحدا لا يملك أن يهون من قيمة الحدود أو يجادل فى ضرورة اقامتها ولكن وضعها على رأس القائمة هو

محل النظر والاختلاف • فالحدود تتصل أساسا بظاهرة الجريمة وعقاب « المجرمين » والشريعة انما وضعت أساسا للأسوياء الحافظين لحدود الله •• فلماذا لا تذكر الشريعة الاسلامية الا مقترنة بالحدود من قتل وقطع وتغريب •• ان باب الجنايات كان ولا يزال بابا واحدا من أبواب كتب الفقه ، كما أن الجريمة بأنواعها ليست الا وجها وأحدا سلبيا من وجوه حياة الناس فى الجماعات تحت لواء الاسلام أو غيره من الشرائع ••

ان هـذا الخلل فى ترتيب الأولويات يزداد خطورة حين يتحول الدعاة الى أولى أمر وحكام ، وحين يشرع المتحدثون باسم الاسلام فى أخذ الناس به واقامة أحكامه بينهم •

ان أخطر ما يفعله أولئك الحكام أن يتصوروا أنهم ملزمين — باسم تكامل الاسلام وشموله بتطبيق أحكامه فى شئون الناس جملة واحدة •• ان ذلك على التحقق غير متيسر ، وهو التزام بما لا يلزم ، وتوريط لاسم الاسلام ودعوته بما لا ضرورة له •• وحسب أولئك الدعاة الذين صاروا حكاما أن يبدأوا بكبريات المسائل وأساسيات الحكم والعدل • حسبهم أن يوفروا للناس قدرا من الحرية وقدرا من كرامة الفرد وقدرا من العدل ، وأن يعلنوا عزمهم على تنفيذ برنامج اصلاحى تتعاقب مراحله فى أناة وروية — لتوجه الجماعة كلها الى اقامة أحكام الاسلام مرحلة بعد مرحلة وحكما بعد حكم •

(د) أما الآفة الرابعة فهى التشتت الغريب الذى يحيط بالجماعات والزعامات الداعية الى الاسلام •• فهم فى شقاق وخصومة وتبادل للاتهام ، وتباين غير قليل فى أساليب العمل وتصور الأولويات • والأخطر من ذلك أن كثيرا من هـذه الجماعات لا ترضى بالقاعدة الحكيمة قاعدة أن « نتعاون فيما اتفقنا فيه وأن يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » •• وفى غيبة منهج للاختلاف يتحول التعدد الى تشتيت للجهود ، وحرمان للمد الاسلامى من الثراء الذى يوفره اختلاف الآراء وتعدد الاجتهادات •

* * *

شروط استمرار الحيـــاة :

ان مستقبل المد الاسلامى الذى نعيش موجة عالية من موجاته رهن بتدارك هــذه الآفات • وهو تدارك لا يحتمل الانتظار ، فان العمل الحضارى لا يتم فى فراغ وكثيرون هم الحريصين على فراغ هــذا المد من محتواه ، وتوجيهه الى حيث يتبدد ويضيع •

وانما يفتح أبواب الأمل عندنا فى مستقبل هــذا المد الاسلامى ، ما نراه من بعض مظاهر القدرة على « النقد الذاتى » ونمو القدرة على التصويب والتصحيح الداخلى •• وهــذه القدرة هى شرط استمرار الحيـــاة فى الكائنات العضوية والمؤسسات الاجتماعية على الســـواء • وما أحوج هــذا المد الاسلامى الى قيادات وزعامات تلح فى اصرار على ضرورة تدارك هــذه الآفات وتعين ــ بذلك ــ هذا المد على أن يصير صحوة حقيقية تأخذ بيد الناس على هدى وبصيرة الى حيث المزيد من العدل ، ومن الحرية ومن الاستمتاع بالطيبات ، ومن حرارة علاقات المودة بين الناس •• وهل الاسلام الا ذلك كله ؟

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٣] •

* * *

مسئوليـــة الدولـــة :

اذا كنا نحمل الدعاة قسطا وافرا من المسئولية •• فاننا نتمثل معهم قول الشـــاعر :

متى يبلغ البنيـــان يـــوما تمامـــه
اذا كنت تبنيـــه وغيرك يهـــدم

فالدعاة مع مما سبق يقومون بجهد مشكور فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •• ولكن أجهزة الاعلام تهدم فى ساعة ما يبنيه الدعاة فى عام ! •• ومعنى ذلك أن الدولة التى نيطت بها حماية الدعوة وحراستها من الكيد تعمل ناسية أو متناسية لعرقلة مسارهـــا •• وتركت الجهد

---

(٣) يوسف : ٢١ ، ٤٠

المبذول من قبل دعاة يملكون الكلمة •• لكنهم لا يملكون وسائل التمكين لها فى القلوب •• وحراستها من صور الفتنة المتربصة بها •• والتى تحبط مفعولها فى نفوس تستهويها الرذيلة المعروضة أمامها بل المفروضة عليها ايل نهار ••

ان الواعظ معذور اذن أمام هـذه المفارقات •

انك تسمع وتشاهد برامج هادفة تتحدث عن دعائم الأسرة الرشيدة •• وقيمة الخلق الحميد •• وأهمية التربية ••

وقد يستشهد المتحدث بكاتب فرنسى مثلا ينصح الأسرة العصرية بضرورة أخذ الأم ابنتها بالحياء لتجىء البنت صورة لأمها •• أو كما قال !! •• لكنك تقترب من الصورة •• فماذا ترى ؟ :

١ ـ الكاتب الفرنسى نفسه يصدر الى هـذه الأم أشكال « الموضة » وألوان المساحيق •• ومذاهب الرقص •• باسم الفن •• وتسأل متعجبا : ماذا أبقى الرجل من الحياء فى غمرة هـذا الغزو الوافد ؟

انها كلمة تقال « للاستهلاك المحلى » ولكن المعركة الحقيقية تدور خلف الأسوار •• ونحن لا ندرى •

ان الحضارة الغربية ممثلة فى هـذا الكاتب تذكرنا بما قاله الشاعر :

ألقـاه فى اليـم مكتوفا وقال له
ايـاك ايـاك أن تبتل بالمـاء !

٢ ـ كيف تستطيع البنت ـ من الناحية العملية ـ أن تتخلق بالحياء وهى تجلس أمام « التليفزيون » ساعات •• أمام صور الانحلال المعروضة فى أبهى الألوان ؟

هـذه الصور التى يختار لها الوقت المناسب ••

والوقت المناسب هو : زمان اذاعة البرامج الدينية الجادة أحيانا •• والتى لا تجد المستمع المشغول عنها بمثل هـذه البرامج اللاهية •

والتى قصد لها أن تتم بالذات فى هـذا الوقت المحدد للبرنامج الدينى . اعتمادا على غلبة الهوى .. وانسياق الشباب وراء ما يثير العواطف والانفعالات ؟ !

٣ — الميزانيات الضخمة مرصودة لمثل هـذه البرامج ترويجا لها بطبيعة الحال . بينما تندب البرامج الدينية حظها !

والتسابق اللاهث وراء أسـماء اللامعين من نجوم الكرة وكبار الفنانين والفنانات .. وعرض ملايين الجنيهات لمجرد وضع اسم النجم عنوانا مميزا لشركة تتاجر بالهوى والمعصية ..

ومرة أخرى . كيف يبلغ بناء الواعظ تمامه .. اذا كان التيار كاسحا على هـذا النحو .. وكانت امكاناته مع ذلك ضعيفة الى هذا الحد ؟ ..

ان فى يد الدولة أن تطهر البيئة من أعشاب طفيلية .. تمتص من التربة عناصر النماء .

فاذا لم تفعل .. فما على الدعاة من حساب .. وما عليهم اذا تأخر الثمر .. فقد أعذر من أنذر .

ان المعادن ينطمس بريقها تحت التراب .. ولن تطفو على السطح بموعظة مهما بلغ تأثيرها .

لابد من معول .. وساعد .. وجهد موصول .. ومال مرصود .. وكذلك النفوس البشرية لابد من مزاملتها .. واستخراجها من ظلمات المعصية بالجهد الموصول الدائب ..

لتصل بالايمان الى شغاف القلوب .. ومسئولية الدولة هنا كبيرة على قدر ما تملك من طاقات وامكانات ..

واذا كنا نوجه الدعاة .. ونلزمهم كلمة التقوى .. ونزين لهم

الصبر بأنهم حداة البعث •• والبعث ميلاد •• ولابد للميلاد من مخاض •• ولابد فى المخاض من ألم — كما قيل — اذا كنا نقول ذلك •• فاننا لا ننسى أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن •

وقد وجب أن يقوم السلطان بدوره •• بعد أن علت كلمة القرآن ••وملأت كل الآذان ! ••

* * *

الخلافات المذهبيــــة :

« هناك خلافات علميــــة ومذهبيــــة • حفرت فجوات عميقة بين المسلمين • وقطعتهم فى الأرض أمما متدابرة • وهم فى واقع أمرهم وطبيعة دينهم أمة واحدة •

والدارس لهذه الخلافات يتكشف له على عجل أنها افتعلت افتعالا • وبولغ فى استبقاء آثارها • وتفتيق جراحاتها • بل فى نقل حزازات شخصية • أو نزعات قبلية الى ميدان العقيدة والتشريع • وذاك ما لا يجوز بقاؤه ان جاز ابتداؤه •

وكلما زادت حصيلة العــــلم الدينى • وتوفرت مواد الدراســــة الصحيحة • انكمشت الخلافــــات واتحدت الأمــــة الاسلاميــــة منهجا وهدفا »[٤] •

لقد كانت المعرفة السطحية بالعــــلم الدينى سببا فى اتساع شقة الخلاف بين المسلمين • وقد سمعت بأذنى طالبا يقول فى وجه أستاذ فاضل : أنا غير مستعد لتلقى العلم على يدك •• ما لم تطلق لحيتك !

فانظر كيف اتسعت مسافة الخلاف بين رجال يشهدون أن الله واحد • ويجتمعون فى رحاب الاسلام على فرائضه كلها •• ومع ذلك فنسبة الكراهية بينهم تصل الى حد التدابر والتنافر •

---

(٤) مع الله ص ٤١

وقلت لصاحبى : هذا هو رأى طالب مشتغل بالدعوة متحمس لها بين أقرانه •• فانظر الى أى مصير رهيب تؤل اليه الدعوة على يديه !

لقد أصيب البعض بالافراط والتفريط •• فلم يتفهموا روح الاسلام •• وبالتالى لم يصلوا الى قلوب الناس ••

وترتب على ذلك :

١ — فقدت الدعوة تأثيرها • لأنها أخطأت غرضها فى شخص هؤلاء •

٢ — تحولت بهذا الفهم الضيق الى فتنة تفرق ولا تجمع •

٣ — سمحت بنابتة جديدة فى الحقل الاسلامى •• اتسعت بها شقة الخلاف •• فكانوا عبئا على الدعوة •

وكانوا فى سعيهم الدؤب يجرون وراء سراب •• ويستفتحون على غير باب •• بل انهم بمسلكهم المعيب كانوا مبررا فى يد الأعداء يكيدون به للاسلام فى حملة التشكيك والتضليل •• ولا يهز الشجرة الا فرع منها كما يقولون •

٤ — أتيحت فرص ذهبية أمام الفكر الوافد •• الذى جند جنده •• ورتب صفوفه فى غمرة انشغالنا بخلافات شكلية أنستنا جوهر المشكلة •• وحجم القضية ••

وانكمشت الأرض من تحت أقدامنا •• ولم نكتسب أرضا جديدة •

وقد أشار المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبى الى بعض صور الاختلاف وما يترتب عليها من آثار تضر بسير الدعوة :

« تعدد أجهزة الدعوة • كيانا • وتوجيها واشرافا • وهو أمر له خطره المتمثل فى تضارب الاتجاهات •

وما يترتب على ذلك من شقاق وبلبلة تهز ثقة الناس •• وتجعلهم

يتساءلون : ترى من المحق من كل هذه الطوائف ؟ ولمـــاذا يكون بعضها أولى بالحق من الآخرين »[٥] .

والنتيجة فى رأينا : اتجاه الناس الى قبلة أخرى .. لا خلاف فيها ولا جدل .. الى مذاهب الانحلال التى اتفق أهلها على خطة موحدة لهدم دين يساعدهم أهله على تقويض دعائمه بما يقدمونه من خلافات يتسع بها الخرق على الراقع .. ولا تضر أعداء الاسلام .. بل تضر الاسلام نفسه .. لحساب هؤلاء الأعداء !!

***

مناهج اعداد الدعاة :

« يلاحظ على هــذه المناهج والأساليب :

أولا : أنها بدلا من وصل الطالب وصلا مباشرا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليــه وسلم ــ أحلت بديلا منها .. يتمثل فى كتب ومذكرات . مهما كانت قيمتها فلن تصلح بديلا فى يد داعية لأن يكون على بصيرة بدين الله .

يستمدها من مصادره الوثيقة . كتاب الله وسنة رسوله .

ثانيا : أنها لم تربط الداعية بثقافة العصر . التى تفرض نفسها على عقول الناس . وتخلق فيها من المشكلات ما لم يكن فى عقول السابقين .

فالضرورة قاضية بأن يلم الداعية بتيارات هــذه الثقافة ووزنها . وتمييز ما هو حق فيها . وما هو باطل . حتى يسلح بأسلحة ملائمة للهجوم وللدفاع . فى معارك الفكر التى لابد أن يخوضها .

ثالثا : ان فلسفة اعداد الدعاة عنيت ــ ولا تزال تعنى بالجانب التعليمى التلقينى . بينما هى تهمل اهمالا شبه كامل الجانب التربوى . الذى هو الوجه المكمل للوجه النظرى »[٦] .

---

(٥) مشكلات الدعوة ص ٤٠

(٦) مشكلات الدعوة للدكتور الذهبى ص ٢٧

ونتيجة ذلك كله :

تخريج جيل يتخذ من الدعوة وظيفة بكل ما للوظيفة من رتابة وجمود ! •• بمعنى أن ينحسر الشعور بالدعوة كرسالة منوطة بهذه الأمة الشاهدة بها على الناس • لقد رصدت أموال طائلة لكل راغب فى الدعوة من طلاب الجامعة •• واشترط لمنح الطالب أن يلتزم بالزى الأزهرى • وأن يوقع على عقد مع وزارة الاوقاف للعمل بها سنوات •• والا •• أعاد الى الوزارة ما سبق أن قدمته له من منح • واعجابنا بهذا التشجيع •• وبالنوايا الطيبة من ورائه •• لا يمنعنا من تسجيل المرارة التى تستشعرها النفوس هنا :

فالكليات العملية تستنفد الممتازين من الطلاب وتستأثر بهم — دون كليات الدعوة مثلا — وتستأثر بالممتازين لا فى العلوم التطبيقية فقط •• بل المتفوقين أيضا فى فن الحديث •• ولغة التخاطب ••

ثم لا يأوى الى أقسام الدعوة الا من فرض عليه مكتب التنسيق ذلك ••

ومعنى ذلك أن المبلغ المدفوع لطالب الدعوة لا ينشىء فى قلبه رغبة •• ولا يوجه ولاءه لوظيفة الدعوة الى الله •• لأنه أساسا راغب عنها ••

فلو أن الجائزة صرفته عن كليته العملية •• لينضم الى صفوف طلاب الدعوة •• لقلنا : ظاهرة صحية •• ورغبة نفسية بعثها المـــال !

ولكنها تدفع لمن هو مستعد أن يدفع من جيبه هو !! لينتقل من الدعوة •• الى غيرها من الكليات ذات البريق ! والتجربة شاهدة على ذلك ••

ويقتضينا الانصاف أن نقرر أن من بين أقسام الدعوة ممتازين •• ولكن قلقهم من المستقبل غير مردود الى زهدهم فى الوظيفة • وانما هو الفرار من مسئولياتها •• وتكاليفها الباهظة أمام مجتمع لا يقدر عملهم • ولا ينصف الدعاة •• ولا يغير نظرته اليهم •• وفى اعتقادى أن كثيرا

من هؤلاء الطلاب لو أنهم أحسوا بالجو المناسب •• والتقدير لخطر الوظيفة لتسابقوا اليها •• غير ناظرين الى مال أو منصب ••

وهنا تبرز مسئولية الدولة التى تفرض عليها وظيفتها تهيئة الجو المناسب فى كل مجالات الحياة •• لتضع هؤلاء الدعاة ازاء مسئوليتهم أيضا •• حتى تثير فيـــهم الحماس لنشر دين الله •• بدل أن نحبط جهودهم بتلوث البيئـــة •• ونقيدهم بأغلال الوظيفة ••

* * *

عندما تتحول الدعوة الى وظيفة حكومية :

حرية الدعوة والتزامها على هذا النحو • هى الصيغة الوحيدة التى يمكن على أساسها حل المشكلة الأساسية التى تعانى منها الدعوة الاسلامية فى كثير من البلدان • وهى مشكلة كونها تابعة للحكومات والسلطات •

وهــذه التبعية تعنى :

أولا : أن ينسحب منطق الوظيفة على جهاز الدعوة :

فالعاملون فيه موظفون • تحدد عليهم واجبات • وتقرر لهم حقوق •• ويخضعون لنظام التوجيه والرقابة • كما يتعرضون لنظام الثواب والعقاب • أسوة بغيرهم من موظفى الدولة هنا أو هناك •

هــذا الاطار الوظيفى ان صلح لأى مجال آخر فى الحياة • فهو فى مجال الدعوة غير صالح على الاطلاق •

فالدعوة انما تقوم أساسا على الالتزام أمام الله • وليس على الالزام من جانب السلطات كائنة ما كانت •

ونظام الرقابة فى هــذا المجال لا يأتى من خارج الانسان وانما يجب أن يتولد من داخله خلال عمليـــة الاعداد والتربية •

ان ضمير الداعية يجب أن يكون الفيصل •• وحاجة الدعاة الى

رقابة معناه فشل اعدادهم من ناحية •• وعدم صلاحيتهم لمهمتهم من ناحية أخرى •• وخير للدعوة تنحية هؤلاء من مجالها •

ثانيـــا : احساس جهاز الدعوة بارتباط مصيره بطاعة ولى الأمر • وأن مخالفته ولو كان فيها ارضاء الله تعالى خطر عليـــه يهدهد من شجاعته فى مواجهة الباطل • وينتهى الأمر الى أداء شكلى هزيل •

ثالثا : دخول الدعاة فى مجال المطالبة بتحسين أوضاعهم الوظيفيه أسوة بغيرهم • ودخول الدعـــاة فى هـــذا الجو يصرفهم عن وجهتهم الحقيقية •• بقدر ما ينال من صورتهم كقدوة حسنة •

رابعا : ان جهاز الدعوة عليـــه أن يختار واحدا من طريقين :

اما أن يساير ما يجرى ما دامت السلطات تقره ••

واما أن يقول الحق ويتحمل النتائج ! ••

وهذا الصراع النفسى ينسحب على الدعوة ذاتها »[٧] •

وهذا القول مؤيد بالتجربة الشاهدة على صدقه •• القاضية بأن العمل الاسلامى عندما يتحرر من قضية الرزق •• وجاذبية السلطة يؤتى أكله طيبة مباركة ••

ولو ساءلنا الواقع المـــاثل •• لوجدنا اجابات شافية تؤكد هـــذا المعنى •• ان الدعوة لن تؤتى أكلها طيبة يانعة الا اذا كان من ورائها نظام كامل يشد من أزرها •• ويمهد السبيل أمامها •• ويظلها بظله ••

بمعنى أن كلمة الوعظ والارشاد تبقى ضعيفة الأثر وان تحرك بها لسان حر غير مرتبط بسلطة دنيوية •• بل لابد من دولة ونظام تصطبغ فيه الحياة بصبغة الاسلام • لتكون لكلمة التقوى أثرها المطلوب ••

وقد ذهب العلامة المودودى هذا المذهب فى معرض الحديث عن أكبر الأساليب فعالية ونحن ندعو الى الحق سبحانه •

---

(٧) مشكلات الدعوة للدكتور الذهبى بتصرف •

قال : « يصبح من العبث الدعوة الى الاسلام على طريقة التبشير المسيحى •

ولو طبعت ملايين النشرات تدعو الى التمسك بالاسلام • وتصيح بالناس أن « اتقوا الله » صباح مساء •• لما كانت ذات فائدة تذكر •

اذ ما هى الفائدة العمليــة التى ستنجم عن تأكيد أن الاسلام صالح لكل زمان ومكان • وأن فوائده ومزاياه ليس لها مثيل • عن طريق القلم والخطابة ؟ ان حاجة العصر تتطلب ابراز هــذه المزايا بصورة عمليــة فى الواقع •• ان مشاكل العالم المــادية لن تحل لمجرد القول بأن الاسلام يملك حلها •• ان قيمة الاسلام الذاتية لابد وأن تبرز الى الوجود فى هيئة نظام عملى مهيمن • يلمس الناس آثاره • ويجنون ثماره ••

اننا نعيش فى عالم يقوم على الصراع والكفاح • والخطابة والوعظ لن تفلح فى تغيير مجراه •

ولكن الكفاح الثائر وحده هو الذى يستطيع ذلك »[٨] •

* * *

أهمية الدعوة الفرديــة :

يؤكد الأستاذ « عبد البديع صقر » أهمية الأسلوب الفردى فى مجال الدعوة والذى أجمله فى عدة نقاط :

١ — أنها كثيرة الحدوث •

٢ — ثم انها عابرة : لا تحتاج الى جهد ولا اعداد •

وقد تكون خلال عمل آخر • فلا تأخذ وقتا خاصا • كالذى يكون فى حفل عزاء أو عيادة مريض •

(٨) داء المسلمين ودوائهم ص ١٠٥

٣ — أنها يسيرة :

ليس فيها التوتر والتحفز الذهنى الذى يكون فى الحفلات العامة ، ولا المجالات الكلامية المجهرة ،

ويستطيع الداعية أن يكون فيها محررا من كل قيود النقد ،

٤ — سهلـــة :

يستطيع الانسان ويستطيع كل مؤمن بدعوته أن يشارك فيها ولو كان أميا غير اهل هذه الصناعة ،،

بل هى حقل جيد للتدريب واختبار للمواهب ، فكأنها التجربة للميدان الكبير ،

٥ — مستورة :

تحمى الداعية من الرياء والسمعة ،

فكثيرا ما يصاب الخطباء « بمرض الميكروفون » و « داء الصدار » ،

٦ — فرصة للتنفيس :

حيث يبدى كل واحد ما عنده من وجهات النظر :

فكثيرا ما يستمع الانسان الى قضية جديدة بالنسبة له ، ثم يعرض له سؤال هام ،، ولا يوجد فى المجال العام من يرد عليــه ، فيبقى مشغولا به ،، معرضا عما يتلوه ،، الى أن يفهم تلك النقطة ، التى ساورته من قبل ،

٧ — فى الحديث الحر :

يستطيع المرء أن يعرض ما عنده من شكوك أو تساؤلات بحرية كافيـــة ، وهذا لا شك أجدى وأنفع ، فضلا عن أنه ينشىء الصداقة والمودة بين الداعية وبين من يتصل بهم على هذه الطريقة ،

٨ — وفيها دوام الامكانية :

فانه خلال أحلك العصور التى مرت بالشعوب ، لم تتوقف الدعوة

المحدودة • بل زادت ونشطت • وأنها التعويض عن الكبت الذى تباشره السلطات أحيانا • لأنها حديث النفس لنفس أخرى تعانى مثل ما تعانى نلك وهو ما تعجز كل قوى الظلم عن السيطرة عليه •

٩ — وفيها من بركات النبوة :

لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بدأوا بها • ولم يتوقفوا عنها • بل كانت من أساليب حياتهم على الدوام »(٦) •

ونضيف الى ذلك • حاجة الدعوة الى اللقاءات الفردية بمعناهــا الخاص •

فقد يمنع الحياء بعض الناس من الانخراط فى سلك الجمهور •• وقد تحول مشاغله الكثيرة بينه وبين الاستماع والمتابعة •• بل ربما دقت مشاكله بعض الناس عن التعبير عنها علانية •• واحتاج الأمر الى لقاء شخصى من حيث كانت مواضيع لها من الحساسية ما يمنع من الافصاح عنها الا فى لقاء خاص •

وحينئذ فربما كانت المراسلة عن طريق البريد •• علاجا لها ••

وربما ترتبت على هــذا العلاج الشخصى صداقة تؤتى ثمارها • بما تحدثه من تغيير فى حياة انسان ساعدناه فى الخروج من عزلته • بما منحناه من ضوء أبصر على هداه طريقه الى الحياة التى يرجوها ••

وتجدر الاشارة الى أن هناك كثيرا من المشاكل الخاصة فى حياة الشباب التى يعقد الحرج لسانه فلا يبوح بها لشاب مثله يعمل فى حقل الدعوة • مهما بلغت درجته من التجرد والعلم ••

ويحس الشاب بحاجته الى شيخ عركته السنون • وصقلته التجارب •• ليفضى اليه بذات نفسه •• وهو على يقين بأنه يضع أسراره فى مستودع أمين لن يفضى بها •• بل سيتسع لها •• ويستوعبها ••

---

(٩) كيف ندعو الناس ص ٢٣ ، ٢٤

وفى ذلك ما فيه من ضمانات تحمل على الاتصال بمثل هذه النماذج الطيبة •• فى المساجد بخاصة •• والتى تشكل الدروس فيها صورة لهذه اللقاءات الفردية المثمرة ••

* * *

سنة حسنة :

لقد سنت وزارة الأوقاف سنة حسنة • حين عادت بعلمائها المحالين للمعاش الى المسجد مرة أخرى •• فى دروس يجددون بها حياتهم وحياة المسلمين • الذين يتلقون عنهم حصاد العمر الطويل : فقها فى الدين •• ودراية بشئون الحياة •• بعيدا عن المكاتب وما وراءها من معاطب !

نذكر هــذا •• فى الوقت الذى تتجه فيه النية الى مد خدمة علماء الأزهر الى سن السبعين ••

وانها لفرصة مواتية لهؤلاء العلماء كى يعودوا لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم •• تحت قبة المسجد •• أو فى قاعة الدرس ••

ان آلاف المساجد فى حاجة الى رجال يذكرون اسم الله •• ويبصرون الناس بأمور دينهم ••

كما أن أماكنهم فى المعاهد الدينية ما زالت شاغرة •• مشوقة الى هــذه الخبرات النادرة •• واذا كنا نشتكى الى الله من بعض مدرسى التفسير بالمعاهد •• الذين لا يحفظون القرآن أساسا ••

واذا كنا مع ذلك ننكر مسلك بعض أئمــة يصعدون المنابر بينما لا يملكون عناصر التأثير فى الجمهور •

واذا كان بعض العلماء الشباب فى المساجد والمعاهد يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا بحكم السن •• وضرورة العصر •• وبالتالى لا يؤثرون بالقدر الكافى •• فاننا أحوج ما نكون الى شيبة شابت فى الاسلام •• الى الشيخ المهيب الجليل •• والذى تنعكس من هيبته على معانيه ••

فاذا الناس أكثر قبولا لها •• وثقة بها •• لا حاجة بنا الى مثل هــذا العــالم من خلف المكتب الوسيــم يأمر وينهى •• ويخطط للتعيينات والترقيات •• لقد رأيت الوجوه المتهللة فرحا بمشروع مد خدمة العلماء •• وليتهم يفرحون لأن سوقا من الخير تفتح لهم الطريق الى مرضاة ربهم وتعاليــم كتابه ••

بيد أنه الفرح المشوب بالعزم على مواصــلة الجهــاد من خلف المكاتب ! أمرا •• ونهيا •• وسلطانا يمكن لهم فى الأرض سنين عددا •• وربما لا يفكرون فى مستقبل الدعوة التى تتقاضاهم أن يقولوا اليوم كلمة التقوى •• فى سن تجعل لهذه الكلمة أثرها البالغ فى نفوس ترى السمت الوقور •• والفهم العميق •• والتجرد للحق •• فتحس فى كيانها بدبيب العافية •• وتستشعر جلال النبوة فى ورثة الأنبياء •• يمضون بهم على طريق الخير •• وفى اعتقادى •• أن هــذا هو المقصود الأصلى من مشروع مد خدمة العلمــاء ••

ولا ننسى ما يترتب على هذه العودة المباركة من افساح الطريق أمام جيل كامل لم يبلغ سن المعاش بعد ليأخذ مكانه فى مراكز التوجيه •• ودوره الى مثل ما وصل اليه السابقون •

ألا فلنفتح الطريق أمام رجال الأزهر ليعودوا الى الصف مرة أخرى •• والى أن يشاء الله تعالى ••

ونحن نعرف أن ناسا سيغضون رؤوسهم اشمئزازا من عــودة تحرمهم من لذة التحكم •• ثم تقف بهم على قدم المساواة مع أحفادهم •

وليكن ! •• فقد عاد الوزراء بعد نشوة الحكم الى قاعات الدرس فى لحظات هى أسعد اللحظات فى حياة عشاق المعرفة •• وطلاب الحق •• ورجل واحد تهديه الى الله •• خير لك من رجال يغضبون اذا غضبت •• وينفضون عن ثوبك الغبار تملقا ونفاقا ••

لقد تسرب الاسلام الى أوروبا الشرقية على يد فقيه مسلم — كما يقول أرنولد — سيق أسيرا • فى احدى الحروب التى نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين •• أى أنه رجل •• واحد ••

فقط •• ومقيد بالأغلال •• وفى غير بيئته ومع ذلك أثبت وجوده •• بهداية خلق كثير •• وكان له ألف عذر لو أنه لم يدع أحدا ••

وتاريخ الاسلام حافل باخوة هـذا الفقيه الداعى •• قالوا كلمة الحق •• وحملوا مشعل الهدايـة فى أحلك الظروف •• فأخرج الله بهم الناس من الظلمات الى النور •• ونحن مطالبون باستشعار هـذه الجهود المباركة •• ونذكر بها كبار علمائنا •• لعلهم ينسـون هيمنة السلطان •• وسكرة المنصب •• ثم يعودون الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليـه وسلم فى صحبة مباركة •• وفى ظل أشرف وظيفة على الاطلاق : « **ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين** »(١٠) •

« واذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الاعلامية التى تتفق مع آرائهم وميولهم فانه ليس من السهل أن يتجنبوا الحديث مع زميل أو قريب • أو صديق لهم •• وخاصة اذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفا • كما يتيح النقاش المباشر مرونة أكبر فى عرض وجهات النظر والتأثير فى الناس »(١١) •

* * *

مواجهة المنكر مباشرة :

الدعوة فى حياة الداعية أعز عليـه من نفسه وأهله •• وبوحى منها تكون دوافعه وأهدافه •• ومصلحتهـا وازدهارها شغله الشاغل وقطب الرحى فى كل تحركاته ••

وقد تفرض عليـه الظروف رؤيـة المنكر يرتكب علانية •• بيد أنه لا يواجهه مباشرة •• لا استسلاما له •• ولكن لمصلحة الدعوة ذاتها •• فيلجأ الى « التوجيه العام » الذى لا يلمس الانحراف نصا •• بل يدور

---

(١٠) فصلت : ٣٣

(١١) الاعلام . د . ابراهيم امام . عن الاعلام فى صدر الاسلام . د . عبد اللطيف حمزه .

حوله كالسيل •• فيحتويـــه •• ليصل فى النهاية ــ بالحكمة ــ الى ما لا يمكن الوصول اليه بالشدة •

* * *

مثـــل من حياة الرسول :

كان صلى الله عليه وسلم يقول فى مثل هـــذه الحال : « ما بال أقوام يفعلون كذا » ••

واذا رحنا نتأمل ما فى هذا التوجيه من ايجابية تبين لنا ما يلى :

١ ــ لم يكن ذلك تهاونا •• بقدر ما كان حكمة فى معالجة الموقف بما هو أهله من تدبير •

٢ ــ ربما كان العاصى حاد المزاج •• تلجئه الشدة والضغط الى التمادى فى الشر تحديا •

٣ ــ وقد يكون مرموقا فى قومه • ويأنف أن تجدع أنفه علانية •• فيعرض عن الحق وان وضحت دلائله •

٤ ــ قد يكون الذنب الواقع ذنبه الأول •• فليس العصيان اذن من طبعه وانما فرض عليـــه •• واذا كان الله عز وجل لا يعاقب بالذنب الأول •• فأولى بنا أن نشفق على مثل هـــذا المذنب • فنتجنب احراجا شديد الوقع على نفســـه •• ليسهل على القدم استئناف المسير •• فرارا من عواقب اللوم المباشر •• أو المسرف •• وما يفضيان اليـــه من تعود سماع اللوم •• ثم خفة تأثيره فى النفس •• وبالتالى سهولة الانحراف بعد لوم طال مداه •• فضاع أثره ••

٥ ــ ربما كان جاهلا أو متأولا •• فلنترك له فرصة تعديل موقفه • فى جو من التسامح يمهد لذلك التعديل ••

٦ ــ المفروض أن الانسان خطاء بطبعه •• وقد أخذ الاسلام ذلك فى اعتباره بما يتميز به من واقعية تسلم بدوافع الانسان الفطرية •

وطبعى أن ذلك لا يتحول فى منهج الدعوة الى مبدأ •• بل انه متروك لتقدير الداعية العارف بطبيعة الموقف •• وطبيعة المنحرف •• ليتصرف بعد ذلك فى حدود هـذه المعرفة ••

ان المعصية وقعت بالفعل • ورآها الناس •• وربما رآها من لم يكن يخطر على باله أن تقع •• أو تقع لكنها لا تقع من هـذا الانسان بالذات •• واذن فلابد من تطويقها •• بالتوجيه العام لنصيب عصفورين بحجر واحد كما يقولون :

١ — تجنب احراج العاصى •

٢ — تنبيه المشاهد أن ذلك خطأ لا ينبغى ارتكابه ••

٣ — الابقاء على شخصية الداعى — أحيانا — مهيبة •• بعيدة عن معركة لا يساوى الانتصار فيها بعض مآسيها !

ان الوقوف طويلا أمام الخلل الجزئى • وفضحه •• والتركيز عليـه يستغرق وقتا كافيا •• كان من الممكن بذله فى اصلاح جذور هـذا الخلل فى المجتمع ذاته •• فى البيئة التى نشأ فيها ذلك الانسان ••

ويتحدث العلامة الندوى عن طريقة الشيخ محمد الياس فيضيف معانى جديدة : « ان التصدى لمنكر على حدة لا يأتى بجدوى كبيرة • فضلا عن أنه يستغرق وقتا كافيا • بل ربما يستغرق محو منكر واحد سنين طوالا دون جدوى • وان غاب ذلك المنكر • فانما يكون ذلك غيابا مؤقتا محتبسا •

وأحيانا يكون ازالة منكر طريقا الى منكر آخر ••

والآن وقد طوقت المنكرات العالم كله • فلا تغنى هـذه الطريقة الى ازالة المنكرات غناء • ولو أنفق الانسان كل حياته • يجب ألا يكون التعرض فى الوقت الحاضر لهذه المنكرات مباشرة • بل يجب أن تتركز العناية على ايقاظ الوعى الدينى مع العمل على نشر المعروفات •

اذن فالرجل لم يكن يرى الاصلاح الجزئى أو المؤقت أو المحلى • وانما يؤمن بالاصلاح الجذرى الشامل الكامل • وكان يقول :

لابد من احداث التغيير فى المجتمع على أوسع مستوى • وأعمق مدى مع ترويج المعروفات • أما هـذه المنكرات فهى تضمحل وتختفى عن المجتمع عفوا اذا أخذت المعروفات نصيبها من الامتداد • وبقدر رواج المعروف يتم زوال المنكر »[١٢] •

ان الاسراف فى لوم المذنب مواجهة تؤكد على أن جريمة ارتكبت •• واشاعة لخبرها بين الناس •• لكن الاغضاء عنها مباشرة •• واللجوء الى التعميم لون من تجاهلها وتجاهل فاعلها •• واتاحة الفرصة للحياة كى تأخذ سمتها •• بلا اتهام •• ولا تحقيق •• أو تدقيق يضر أكثر مما ينفع •• ولنتعلم من أعدائنا :

انهم لا يهجمون علينا مباشرة أحيانا ••

لكنهم يطوقوننا من حيث لا نشعر ••

وبدلا من الهجوم على المسجد مثلا •• يلجأون الى نشر المنكرات لتزول دولة المعروفات وتتضاءل اشعاعات المسجد ••

فيكثرون من دور اللهو التى يؤدى انتشارها تلقائيا الى شيوع الميوعة •• والسلبية •• وتضيق القلوب بحرارة المعروف وجديته فى جو لا يتنفس الناس فيه الا المتعة الرخيصة •

* * *

(١٢) الرائد ، عدد ١٣٩٨

من أدب النبوة

« جاء أعرابى يطلب من الرسول صلى الله عليـــه وسلم شيئا •• فأعطاه ثم قال له : هل أحسنت اليك ؟

فقال الأعرابى : لا •• ولا أجملت !

فغضب المسلمون وقاموا اليه • فأشار اليهم أن كفوا •

ثم قام ودخل منزله • فأرسل اليه وزاده شيئا • ثم قال له : أحسنت اليك ؟ فقال : نعم •• فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرا •

فقال له النبى : انك قلت ما قلت آنفا • وفى نفس أصحابى من ذلك شيء •• فان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك • قال : نعم •

فلما كان الغد جاء •• فقال النبى : ان هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى •• أكذلك ؟

قال : نعم •• فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرا •

فقال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليـــه • فاتبعها الناس ـ جروا خلفها ـ فلم يزيدوها الا نفورا • فناداهم صاحبها فقال لهم : خلوا بينى وبين ناقتى •• فانى أرفق بها منكم •• وأعلم •

فتوجه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها •

وانى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه •• دخل النار » •

مع أن الرسول صلى الله عليـــه وسلم يعلم من أخلاق الأعراب أنهم أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومع أننا نعرف من أخلاقه صلى الله عليـــه وسلم أنه يعطى الغير لله رضى الآخذ أم سخط .. لكن سؤاله الأعرابى عن مدى رضاه بما أخذ .. كان فرصة ظهر فيها الأعرابى على حقيقته .. التى غدت درسا بليغا ما يزال معروضا أمام الأنظار .. لنتعلم منه كيف كان صلى الله عليـــه وسلم بالمؤمنين رؤوفا رحيما .. على نحو نقل به الناس من الظلمات الى النور . بالعمل وليس بالكلام وحده !

لقد كان سؤاله صلى الله عليـــه وسلم مثيرا .. تكشفت به نفس الرجل التى ثارت فظهر على السطح ما خبأته الأعماق هناك ..

وحينئذ فقد كر راجعا اليه .. يدور حوله بالموقف الحكيم والموعظة الحسنة .. لينتزع الدواء من مكمن الداء .. الأمر الذى لم يكن يتوفر له لو أنه أعطاه ومضى .. بلا سؤال ..

وما كان جواب الأعرابى الا أن أنكر الجميل .. بل وحاول أن يجرح الاحساس .. احساس النبى صلى الله عليـــه وسلم ..

وأحيانا يرضى القتيل .. وليس يرضى القاتل !! وكان من الممكن أن ينال الرجل عقابه .. لا سيما وهو وحيد وسط عشيرة النبى .. وهو فعلا قد ارتكب خطأ يستحق أن يعاقب عليـــه ..

وفى هذا الاطار دارت خواطر الصحابة الذين هموا به ليأخذوه .. بيد أن رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أسبق منهم اليه .

رحمة بالجانى حين يقف معه ضد شيطانه الذى سول له العنف .. فأنقذه من موقف حرج ربما ذهب به الى النار .. وحرم الصحابة من موقف الفضل لو أنهم نالوه بأذى .

وأحيانا تفور الدماء فى العروق غضبا .. فينطق الانسان بالكلمة

لا يلقى لها بالا •• وحينئذ فمن الولاء للحق الذى ندعو اليه الناس •• أن نتحمل — بأعصابنا الهادئة — ثورة مفاجئة من قبل جاهل •• ربما — لو تحملناه — أن يتحول الى انسان آخر •• يموت فى سبيل الدين • وما أمر عكرمة بن أبى جهل ببعيد •• حين فتح الرسول له ذراعيه •• فألقى فى أوديته المباركة بهمومه وشجونه •• فذابت •• وحوله الود الحانى الى بطل من أبطال الاسلام •• لا تهدأ نفسه حتى يسافر فى نفس اللحظة الى مكان فيه جيش يجاهد ليكفر عن سيئاته •• ويعوض ما فاته من خير •• ازاء هـذا القلب الكبير •• المتفتح •• لكن الموقف الملتهب •• وأعصاب الصحابة الثائرة •• ربما لا تهدأ لمجرد أن قيل لهم كفوا أيديكم •• فالرجل الذى أحسن الأخذ •• ولم يحسن القول — لابد أن يعاقب •• على قدر الانسان الفذ الذى حاول أن ينال منه !

وكان لابد من موقف عملى •• تنتهى به الأزمة ••

وكان أن دخل الرسول بيته •• ثم دعاه اليه ••

فلما خلا مسرح الخطأ من الأعرابى •• فاختفى عن الأنظار هدأت الأعصاب •• وتهيـأ الجو الملائم للفهم وحسن تقدير الأمور ••

فلما زاده الرسول طابت نفسه ونطق بالحق •• بيد أن الرواية لم تتم فصولا ••

صحيح أن الصحابة رضوان الله عليهم سكتوا حين طلب منهم السكوت •• لكن ثورة النفوس لن تنكسر الا بتوبة الجانى •• واذا كان الرجل قد اعتذر من خلف الجدران •• فلابد أن يحسوا بهذه التوبة •• لتعود الميـاه الى مجاريها •• وهذا ما حدث ••

وكان جميلا أن يقول لهم الرسول : زعم أنه رضى ••

نعم ان الرضا أمر قلبى •• وادعاؤه مجرد زعم ربما أكده الاقرار أمامهم •• والمعنى الجدير بالتأمل هنا •• أن الرسول صلى الله عليـه وسلم حين طلب من الأعرابى أن يعيد ما قاله سرا أمام الصحابة •• لم يفرض عليـه ذلك •• بل قال له : ان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت !!

أن نفسا حرة تولد الآن •• وتأخذ مكانها بين صفوف الأحرار •• فلابد أن نعينها على ذلك •• ولا نتخذ من الاعانة المالية •• أو الصدقة •• وسيلة لكسر عزتها : وخير للاسلام أن يترك للرجل حريته اليوم • ليمكن له غدا أن يتخذ موقفه من الدين بحرية كاملة •• وحينئذ فسوف يكون معنا الى الأبد •• يوم أن دخل الدين •• أو التزم بأخلاقياته عن طواعية واختيار •

وهكذا يضع الرسول هذا الأعرابى أمام مسئوليته فاذا كان قد رضى حقا فليعلن ذلك على الملأ •• والا •• فلنتعامل معه منذ اليوم •• على أنه غريب غير محسوب على جماعتنا المسلمة •

ولقد قالها الرجل كلمة مخلصة •• وخرج من التجربة بنجاح •• بفضل موقف الرسول صلى الله عليـــه وسلم منه •• ولكن •• بقى الصحابة هناك •• فى حاجة الى أن يفهموا الدرس •• ونفهم معهم نحن أيضا على مدار التاريخ • لقد كان الرجل كالناقة الشرود • ورغم أن الذين يعدون وراءها يريدون لها الخير بالعود الحميد الى طريق الصواب •• الا أن المطلوب فى دعوتنا الى الله تعالى — ليس هو تكثير سواد المسلمين واضافة أرقام الى جملتهم ••

والمهم بالدرجة الأولى أن نستقبل النفس المتماسكة الواثقة •

أما الذين يشردون •• فلهم ميقات يوم معلوم •• يرجعون فيه الى دين الله •• بالحكمة والموعظة الحسنة ••

فانظر كيف تعرض أطهر مخلوق للسب والشتم •• بيد أنه عفا •• وكف أيدى الناس عن شاتمه حتى لا يقذف فى النار ••

وقل معى •• ما أكثر الذين يلعنون الخطائين ، ويدفعونهم الى سوء المصير •

وما أكثر الذين يعتزون بشخصياتهم الى درجة القداسة •

وربما تهاونوا فى حدود الله ، وعبادته •• ولكنهم لا يفرطون فى

كل ما يمس ذواتهم المتألهة والى مثل هؤلاء يتجه تحذير خاص ·· ليضعوا أقدامهم على طريق رسول الله ·· الذى ظلم من الأعرابى يوما ·· وهبت عشيرته ·· ورآها تنتصر له · ورأى غريمه يجرى الى لنار ·· ولكنه كان أكبر من الموقف كله ·· وغدا قلبه واديا خصبا فسيحا يموج بالرأفة والرحمة ·· فعصم الرجل ·

وبقى الدين بمثل هذه المواقف حيا فى نفوس أخطأت ·· فوقف الرسول معها ·

فبقيت الى اليوم فى معينه ·· تعيش على ذكراه ·· وتمضى فى طريقه ·· أشداء · لكن على الكفار ·

رحماء بينهم · تراهم ركعا سجدا ·· يبتغون فضــلا من الله ورضوانا ·

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على نفس الدرب ·· فدخل الناس فى دين الله أفواجا ·· بهذا الأسلوب الذى يحتوى الموقف ·· بالحكمة والموعظة الحسنة وصولا بالناس الى الحق المبين ··

* * *

شباب فى حكمة الشيوخ :

أسلم معاذ بن عمرو بن الجموح فى فتية من بنى سلمة ، فحدث التطور الكبير فى حياة القبيلة ، بالتركيز على أبيه عمرو بن الجموح ، الذى بقى على ضلاله القديم ، فى محاولة لاقناعه ليسلم ·· وبدات خطة الجماعة المسلمة لتطويق الرجل ، عن طريق تفريغ ثقته بالهه المزيف « مناة » والذى كان يعظمه ·· ولا ينام حتى يغسله ·· ويطيبه ·

لقد كانت خطتهم أن يدخلوا بالليل على صنم عمرو · فيحملوه ويطرحوه فى بعض حفر بنى سلمه وفيها فضلات الناس ــ منكسا رأسه ·

لقد كان من السهل تحطيم الصنم فى سجوة الليل ·· ولكن كيف تكون النتيجة ؟

سوف يصنع عمرو •• صنما آخر •• ولا يكسب الحق أرضا جديدة •• ان أكبر الدعاة خيبة أولئك الذين يلجأون الى التصفيه الجسدية حسما للنزاع بين الحق والباطل •

فليبق الصنم أولا •• كما هو •• بلا تحطيم •• ولتوضع الخطة على أساس ان يجلل بالهوان •• فى حفرة •• وبين فضلات الناس •• و« منكسا رأسه » حتى اذا رآه المفتون به ضاع من ثقته به •• بمقدار ذلك الهوان المكرور •• والذى لم يستطع الصنم رده عن نفسه !

على أن التحطيم هدم •• والهدم — كما يقول ابن خلدون — أسهل من البناء •• لأن الهدم رجوع الى الأصل •• بينما البناء صعود الى أعلى • ومن ثم كان أصعب تناولا • المهم أن يبقى عمرو •• ويبقى صنمه أيضا •• ولو الى حين •• ولنقف جميعا من وراء عمرو •• لنكون نحن •• ونفسه •• عليــه • وسوف تجىء اللحظة التى يحمل فيها معوله ، ويحطم هو بيده ذلك الطاغوت ، ويكفينا هو بذل جهود ندخرها لجولة أخرى ، مع صنم جديد •• ومشرك جديد ••

وهاهى ذى تباشير اللحظة المباركة تلوح فى الأفق • فقد كان ابن الجموح يتقدم من « مناة » مسربلا بالهوان فيغسله •• ويطيبه غضبان أسفا •• وتنتهز الجماعة المسلمة موجة الشك التى تناوش الرجل •• فتواصل حملتها على الصنم •• عودا على بدء •

وبلغ الأسف منتهاه فى قلب الرجل حين جاء بسيف فعلقه عليــه ثم قال : فان كان فيك خير فامتنع •• هذا السيف معك •• دافع عن نفسك اذن ! ••

ما معنى هــذا ؟ •• معناه باختصار •• أن العابد اليائس يضع معبوده أمام امتحان عسير •• اذ هو يسلحه بعدة الهجوم ، فى معركة حياة أو موت ، لا تقبل الحلول الوسط • فاما أن يكون أو لا يكون •• ومعناه أيضا :

أن يطور الحق أسلوب الدعوة فى مواجهة هــذا التحول الكبير •• فاضرب والحديد ساخن •• والنفس مستعدة ••

ولتكن الضربة أقوى •• لتذهب ببقية الثقة الغاربة من نفس الرجل التى تتحرك فيها نوازع الخلاص من هـذا التمزق الذى يعيشه •• والباحثة عن الحق التائه فى مزدحم الانفعالات •

وهذا هو الذى حدث بالفعل •• أخذت الجماعة المسلمة السيف من عنق الصنم ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها فضلات الناس ••

وغدا عمرو فلم يجد معبوده ، فخرج يتبعه • حتى وجده مقرونا بكلب ! وينهار الولاء المزيف أمام معبود ينتقل من هزيمة الى هزيمة أشد •• حين يقذف به ـ رغم السيف ـ فى النجاسة •• مقرونا بكلب •

وجاءت ساعة الصحوة فى حياة ابن الجموح •• لقد رأى وفهم •• ووعى وأفاق •• فلما أن كلمه من أسلم من قومه ـ بعد دروس الافاقة ـ أسلم وحسن اسلامه •

ويبدأ التغيير الكبير فلا يكتفى عمرو باعلان اسلامه •• لكنه ـ وبالكلمة الصادعة ـ يهجم على صنمه فيكسره منشدا :

تالله لو كنت الهـا لم تكن
أنت وكلب وسط بئر فى قرن

وتشتعل الرغبة فى كيانه •• فلا تشفى الكلمات غليله •• لكنه مع عرجته يصر على حمل السلاح فى أحد •• وينطلق به الشوق ليحمله على جناحيه شهيدا •• فى حواصل طير خضر •

ويسمع الناس •• ويتناقل الرواة وحفظة الأمجاد ، القصة •• فتنفتح قلوب كانت قاسية على حقائق الاسلام •• تأسيا واقتـداء ببطولة السيد الجعد الأبيض •• عمرو بن الجموح •

والسبب : هؤلاء الشباب •• شباب الدعوة الأوائل •• الذين لم يطلقوا رصاصة •• لم يلقوا قنبلة •• لم يحرقوا بيتا •• بيد أنهم

تجركوا طبق خطة يحكمها هدى القرآن الكريم .. فى محاولة للدخول فى معركة مضمونة النتائج .. معركة لا مجال فيها للقنوط .. أو التجريح .

ثم أقول : ما أحوج أمتنا الى مثل هـذا الطراز من الدعاة .. الذين يواجهون الفكرة بالفكرة .. ويناظرون الرأى بالرأى .. ومن خلال تلاحم الآراء .. يسفر الصبح عن وجه الحق المبين .

* * *

الدعــوة من مركز القــوة

ان أعداء الاسلام يرصدون الأموال الطائلة بغية نشر مبادئهم •• واذا كان الاسلام قد جعل سهما للمؤلفة قلوبهم •• فلماذا لا يدخل المسلمون فى اعتبارهم ذلك المبدأ — فيبذلون من أموالهم على أتباعهم : ان الانسان بحكم طبعه أسير الاحسان اليه :

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهمو
فطالما استعبد الانسان احسان

وان الكلمة الجارية على لسان طاعم شارب على موائد الآخرين لا تصل الى قلوب الناس •• لكنها لو خرجت من رجل معتز بنفسه مؤثر عليها بما يمنحه للناس من خير وبر •• فسوف يكون لها الأثر المحقق حتما •• وهنا تبدو حساسية موقف الداعية :

فالدعوة ليست استجداء بقدر ما هى وظيفة يمارسها المؤمن من موطن العزة •• واذ يبيح الاسلام « السلام » من مركز القوة فرارا من الوقوع فى « الاستسلام » المضر بالأمة ••

فان الأمر كذلك فى مجال الدعوة الاسلامية التى لابد من ممارستها من مركز القوة أيضا •• ولن يتحقق ذلك الا بالبذل ولو على أدنى مستوى من البذل •• أو على الأقل •• البعد عن التسكع على أبواب السلاطين والواجدين بغية الحصول على مناصبهم أو رضاهم أو جوائزهم ••

وقد أكدت التجارب أن الداعية « المعطى » أقدر من زميله « الآخذ » واليد العليا خير من اليد السفلى !

فالذى يحتفظ بشخصيته متماسكة يحس فى نفسه بقوة الاندفاع لتغيير المنكر مهما كان مصدره •• والحكمة الريفية تقول : « اطعم الفم •• تستح العين » •

نعم تستحى العين وتغلق جفونها على القذى •• عندما نقف بأنفسنا موقف الضعيف المستجدى •• وعلى قدر ذلك الضعف •• يمرح الباطل فوق الساحة •• بعد أن دفع الثمن •• طعاما •• أو مالا •• ليسكت الألسنة حتى لا تلاحقه بالنذر ••

ولعل هــذا بعض ما يفهم من قوله عز وجل : **« قل ما سألتــكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله ، وهو على كل شىء شهيد »**[1] .

انه لا يسألهم على التبليغ أجرا •• ومن ثم تظل كلماته عزيزة •• لأنها فيض نفس أبية اباء يفرض احترامها على الناس •• ويحوطها بالهيبة والوقار •• بقدر ما يحرمها الابتذال من هــذه الهيمنة •

« منذ سنوات جاءت الى « جريدة الأخبار » رسالة تليفونية من مراسلها فى احدى مراكز الوجه القبلى تقول :

ان أحد المتقاضين من الفلاحين اعتدى بالشتم والهجم على القاضى الجزئى فحكم عليه القاضى بالحبس •

وبعد أيام جاءت من المراسل رسالة أخرى تقول :

ان المتهم استأنف فجاء فى حكم محكمة الاستئناف ما يلى :

بما أنه قد ثبت للمحكمة أن القاضى كان يباشر عمله فى غرفة أصلها « مطبخ » ويجلس الى « طاولة » كانت تستخدم فى هــذا المطبخ •• وبما أن هذه الحالة ليس من شأنها أن تدعو مثل هــذا الفلاح الساذج الى احترام القضاء مما يشفع له بعض الشىء فيما وجهه للقاضى — فقد رأت المحكمة الاكتفاء بالغرامة بدل الحبس »[2] .

وما أحوج الدعاة الى أن يوفروا لأنفسهم ذلك الجو الذى يمكنهم من أداء مهمتهم على الوجه الأكمل •• بعيدا عن من الناس وأذاهم •• لتبقى كلمتهم مسموعة ورايتهم مرفوعة •

* * *

---

(١) سبأ : ٤٧

(٢) الأخبار — اكتوبر ١٩٧٩ .

كان أبو الحسن الأشعرى « يرد على المعتزلة • ويتبعهم فى مجالسهم ومراكزهم • يحاول اقناعهم بما اقتنع به أخيرا من عقائد أهل السنة • ومذاهب السلف •• وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم •• فكلم فى ذلك • وقيل له :

كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم ؟

فقال : هم أولوا رياسة • منهم الوالى والقاضى • ولرياستهم لا ينزلون الى • فاذا كانوا هم لا ينزلون الى • ولا أسير أنا اليهم • فكيف يظهر الحق ويعلمون أن لأهل السنة ناصرا بالحجة »[٣] •

ذكرت هذا الموقف عندما سألنى سائل : هل يمكن أن تنشأ بينى وبين زميل تارك للصلاة علاقة ما ؟ !

وقلت له : لو أنك تركته • لأخذته الدوامة بعيدا •• وضاعت فرص الاصلاح • وهى متاحة لك لو أنك اقتربت منه ناصحا أمينا •• فى الوقت الذى يكون فرارك منه فرصة ذهبية تستغلها شياطين الانس والجن •• فى محاولة لاقتناص صيد جديد تقدمه أنت لهم طواعية واختيارا •

وطالبت الفتى السائل بمزيد من تأمل موقف أبى الحسن الأشعرى الآنف الذكر ••

فلم يكن أبو الحسن فى حاجة الى من يعلمه طرائق الدعوة وسبل الهداية •• كما أن الشباب المتحمس الناقد لم يكن أغير منه على الاسلام !

واذا كان هذا التحمس •• وهذا النقد ظاهرة صحية تضبط الخطو أن يضل الطريق •• وتفرض على الفاقهين حسن التدبير قبل اتخاذ القرار •• فان حكمة الشيوخ هنا •• وتجربة العمر محسوبة كذلك •• ولابد أن تلتقى مع هذا الحماس فى مزيج من التوسط لا يهادن الخطأ ••

---

(٣) تبين كذب المفترى ص ١١٦ عن كتاب رجال الفكر والدعوة .

لكنه يلاقيه •• بالاقناع •• ويخالطه ولكن مع تميز الشخصية الاسلامية التى يجب أن تبقى متميزة بسماتها وخصائصها الذاتية •

قال ابن مسعود : « خالط الناس ودينك لا تكلمنه »[٤] •

وهذا لون من المرونة لا يفقد الدعاة عنصر الثبات ••

انهم يقفون من مبادىء دينهم على أرض صلبة لا تميد بهم •• لكنهم يواكبون الحياة مواكبة يحاولون بها امتلاك زمامها •• بالتى هى أقوم الأساليب •• وقد تفرض الحيــاة عليهم بعض التنازلات •• فيتنازلون •• لا عن ضعف • ولكن لحكمة تقتضيها مصلحة الدعوة التى تصل الى مرحلة تالية • تكون فيها أقدر على التحكم من ناصية الحياة الجاريـــة ••

« حكى ابن القيم عن ابن تيميـــة : أنه مر على قوم من التتار جلسوا يشربون الخمر •• فأنكر عليهم بعض أصحابه • فقال : دعهم وما هم فيه : فان الله انما حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة • وهؤلاء تصدهم الخمر عن سفك الدماء • ونهب الأموال • كما ينبغى أن يقدم الأهم على المهم • والكلى على الجزئى • والفرض على النافلة »[٥] •

لقد كان من الممكن أن تقوم هنا معركة حامية بين الشيخ وتلاميذه •• من حيث ظهور الحق الى جانب الصحاب المنكرين ما علم انكاره من الدين بالضرورة •• بيد أن الشيخ الجليل استبعد العواطف العواصف •• فانها لا تصلح لعلاج هذا الموقف الخاص ••

وهى فى حاجة الى نظرة أبعد وأعمق • تتوخى مصلحة الدعوة •• فتسكت عن المنكر أحيانا — وفى حدود الضرورة القصوى — تمهيــدا للحصــول على كسب يســاوى فى آثاره أضعاف ما يحققه التهور من نكسات !

---

(٤) البخارى . باب « الانبساط الى الناس » .
(٥) يوسف القرضاوى — ثقافة الداعية ص ٨١

وشبيه بهذا الموقف ما حكى عن المرحوم الشهيد حسن البنا حين وفد عليه جماعة فى مدينة أسيوط طالبين منه سرعة مصاحبتهم الى قريتهم • حيث اشتد النزاع هناك حول عدد ركعات صلاة التراويح !

وكانت اجابة الشيخ مفاجأة لهم عندما قال : لا داعى لسنة التراويح !!

ولما استغرب القوم الجواب قال لهم : صلاة التراويح سنة • واصلاح ذات البين فرض • والفرض مقدم على السنة •• فأصلحوا ذات بينكم أولا !!

* * *

طوبى للغرباء :

وقد يستبد الاحساس بالغربة بقلوب شباب مخلص غيور على دينه ووطنه « لأن اعزاز الشرع باستعمال المشروع » كما يقول ابن الجوزى • ولما لم يجدوا الشرع مطبقا •• انتبذوا مكانا قصيا •• فرارا بالدين من فتنة تريد تطويقه ••

اذ من « المعلوم أن الطبع يسرق من خصال المخالطين • فاذا خالطوا مؤثرى الدنيا الجهال بالشرع : سرق الطبع من خصالهم •• مع ما عنده منها •• ولا يرى ما يقاومها •• ولا ما يزجره عنها •• وذلك سبب الهلاك »(٦) •

ثم يشتد نفورهم من مخالطة الحكام وهم فى نظرهم يتربعون على عرش الدنيا بفتنتها وزخرفها ••

وقد يتخذون ذلك الموقف المنعزل •• على أساس من دراسة أحوال الاجتماع البشرى •• على ما يقوله ابن الجوزى(٧) :

« الدخول على السلاطين خطر عظيم • لأن النية قد تحسن فى

---

(٦) تلبيس ابليس — لابن الجوزى ص ١٣٢
(٧) المرجع السابق ص ١٢٢

أول الدخول • ثم تتغير باكرامهم وانعامهم • أو بالطبع فيــهم •• ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الانكار عليهم •

وقد كان سفيان الثورى رضى الله عنه يقول : ما أخاف من اهانتهم لى • انما أخاف من اكرامهم فيميل قلبى اليهم » •

وهذا التخوف له ما يبرره •• فالنفس البشرية أسيرة من أحسن اليها •• وربما أغراها الانعام بالمزيد ••

ربما جرها المزيد الى تكلف « العلم » والجنوح بالفتوى والرأى الى ما يوافق أهواء الحكام المنعمين !

وهذا صحيح ••

ولكن •• هل تترك الحياة تمضى بهؤلاء الحكام على سمتها •• من سىء الى أسوأ •• ومن انحراف الى مثله •• بحيث تصطبغ البيئة بآثامهم التى لم تجد نكيرا •• ومن ثم يعز الداء على العلاج ؟ !

وسؤال مهم نوجهه الى هذا المحامى المخلص :

ألا يجوز أن تنطوى نفوس هــؤلاء الحكام على عناصر الخــير المحتاجة الى يد صناع •• تستدعى هــذه العناصر من أعماق الانسان •• لتظهر على السطح فى لحظة ندم تجب ما قبلها ؟ !

قد يستبد الغشم بالانسان منا لحظة •• ثم يفيق ــ فاذا هو حمامة وادعة !

وقد يظلم الانسان يوما •• لكنه لا يظلم كل يوم •• ونحن مطالبون بأن نستمر فى الدعوة •• أبدا •• وفى كل الظروف •• لعل الدعوة •• تصبح غيثا يصيب يوما أرضا قابلة للانبات ••

فكيف نترك الفرصة وهى مواتية ثم نمضى ؟

« ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون »[8] •

---

(٨) القصص : ٥١

ولا ننسى أن أخلص الناس لدينهم كانوا يدخرون الدعوة المستجابة للحاكم .. الذى ان صلح أصلح الله به الملايين !

فكيف ندير ظهورنا اليـــه .. ومتى نلتقى ؟ !

وربما كان أساس هــذه النظرة المتشددة العابسة ما روى عنه صلى الله عليـــه وسلم : « بدأ الاسلام غريبا • وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » •

يقول الدكتور يوسف القرضاوى تعليقا على هــذا الحديث :

« لم يرد الحديث أبدا أن يغلق باب الأمل • أو طريق العمل على أهل الخير .. كيف وقد قال فى حديث آخر : « فطوبى للغرباء » ؟

وفى بعض روايات الحديث عند غير مسلم : قيل : وما الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى » رواه الترمذى •

ففى هــذا دعوة صريحة الى اصلاح ما أفسد الناس من منهج النبوة • والعمل الجاد لرد الشاردين الى الطريق المستقيم » •

ولقد كان الصحابة غرباء فى أوطانهم .. ولم يمنعهم ذلك من الجهاد وقول الحق .. اننا محتاجون الى المستمسكين بالسنة من هؤلاء الشباب الذين استعلوا على مطالب الجسد .. فى سن تجذبهم الى اللهو فيها جواذب قويـــة .. انهم القدوة .. التى بها يتحقق المثل .. ويتنزل من الخيال .. الى الواقع .. والملح الذى يصلح الله به الطعام ..

انهم « الغرباء » أعنى بأسلوب العصر .. « العملة الصعبة » التى أقامها الله أبلغ حجة وأقوى برهان على مدى فاعلية هــذا الدين • وقدرتـــه الفذة على اصلاح النفوس • والأخذ بيدها الى الخير على جسر من اغراء الشهوات ..

ومن ثم فعن طريقها يمكن أن تحقق الكثير من الخير لأمتنا •• فنحن لا نستقدم « بالعملة الصعبة » الا أغلى السلع ثمنا !!

ان النظر الى الرجل من أهل السنة يدعو الى السنة وينهى عن البدعة •• عبادة •• كما يقول ابن عباس ••

وان من سعادة الحدث والأعجمى أن يوفقهما الله تعالى لعالم من أهل السنة •• وقد بلغ توقير السنة وأهلها بعلمائنا أن قالوا :

اذا بلغك عن آخـر بالمغرب أنه صاحب سنة •• فابعث اليـه بالسلام ••

وقال قائلهم : انى لأخبر بموت الرجل من أهل السنة فكأنى أفقد بعض أعضائى !!

وهذا كله صحيح ••

وصحيح أيضا أنه : لا يقبل قول الا بعمل • ولا يستقيم قول وعمل الا بنيـة •• ولا يستقيم قول وعمل ونية الا بموافقة السنة •• الا بأن تستمد الحياة وجودها واستمرارها من منهج الرسول صلى الله عليـه وسلم •• ويساوى ذلك فى الأهمية أن يكون الدعاة الى ذلك المنهج أيضا •• موافقين للسنة !!

فيجب أن يكون أمرك بالمعروف •• معروفا ••

وأن يكون نهيك عن المنكر •• غير منكر !!

ومخاطبة الحكام والأمراء •• وهم القابضون على زمام الأمور •• وما يخلفه ذلك من فتنة بها أحيانا •• وشرود عن جادة الصواب ••

والعمل فى مجال الشباب •• وهم الذين أسكرتهم العافية •• وعشق الجمال حراما أو حلالا •• كل ذلك يتطلب كلمة خاصة •• وبصرا بعواقب الأمور ••

« ان لابليس شيطانا يقال له قبقب يجمه أربعين سنة • فاذا دخل الغلام فى هــذا الطريق قال له : دونك •• انما كنت أجمك لمثل هذا •• أجلب عليه و افتنه »[٩] •

فلا تتركوا الفرصة تفلت من أيديكم •• انتبهوا •• فليست القضية قضية رجل يهرب منكم •• ويترككم وشأنكم •• لكنه ينحاز الى حزب الشيطان ليدربه •• ويسلحه •• ثم يحاربكم به !!

ولن يتم لكم النصر فى هــذه المعركة الا بأسلوب القرآن •• بالحكمة •• والموعظة الحسنة •

* * *

الدعوة وأساليب العصر :

عندما جاء جبريل عليــه السلام الى النبى صلى الله عليــه وسلم فى صورة رجل •• كان يختصر المسافة الشاسعة بين صورة الملك •• وصورة الانسان •• ليتسنى للناس أن يأنسوا به — ويقتربوا منه — وبالتالى ليفهموا ما يقول • ولو أنه جاء ملكا كما خلقه الله سبحانه وتعالى لمــا أطاق المسلمون رؤيته •• ولمــا كان منهم فهم ولا عمل •

ومعنى ذلك •• أن الدعوة الى الله تعالى تعرض على نحو يوائم طبائع الناس •• وباللغة التى يفهمونها •• على لسان رجل منهم •• يخاطبهم بما يلمس أفئدتهم •• ولا يصادم أعرافهم •• فى محاولة للسير بهم الى تحقيق غاياتهم من وجودهم •

وعندما واجه الرسول صلى الله عليــه وسلم قومه •• خاطبهم أيضا باللغة التى يألفونها ، فعندما أراد أن يبلغهم دعوتــه بادىء الأمر ناداهم : واصباحاه !

مع أن هــذه لم تكن تحية الاسلام !

---

(٩) المرجع السابق ص ٢٥

وليس ذلك بطبيعة الحال من المداهنة التى هى مظهر النفاق ..
بيد أنها « مداراة » تفرضها الحكمة ..

فلابد للدعوة فى مراحلها الأولى من أن تستوى على سوقها .. وأن تكيف نفسها مع البيئة وظروف المجتمع ..

واذا أباح الدين للجندى المسلم على أرض الجبهة أن يغير خططه طبق ما يراه من أوضاع الأعداء .. فأباح له بالتراجع « متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة .. على ما يراه محققا لهدفه .. مفوتا لهدف عدوه .. اذا استقام ذلك فى المجال العسكرى .. فانه أيضا مسموح به فى مجال الدعوة بل مطلوب أحيانا » .

بدليل أن الحق سبحانه وتعالى لم يأذن بمواجهة الأعداء بالسلاح الا بعد أن تهيأت أسباب هـذه المواجهة .. وأصبح فى حكم المقرر صلاحية المسلمين للحرب وتحقيق النصر المـأمول ..

والا .. فان الاقتحام الجسور فى بواكير الدعوة الأولى من شأنه القضاء عليها .. وتمكين العدو منها تمكينا لا يبقى ولا يذر ..

حتى اذا أخذت الدعوة أهبتها .. فرضت عليها التغييرات الجديدة أسلوبا آخر يليق بما انتهت اليه الأوضاع ..

المهم .. أن يتم ذلك كله .. أن يحدث التجاوب المطلوب شريطة أن يظل جوهر الدعوة وأصولها سليما واضحا .

« عن ابن مسعود : خالطوا الناس وصافوهم بما يشتهون . ودينكم فلا تكلمنه . أى لا تجرحوا دينكم »(١٠) .

انها المخالطة مع التميز .. وما يمكن أن نسميه « مرونة » يتسم بها الداعيـة .. فيبقى بها على خصائصـه وسماته الاسلامية بعيدا عن

---

(١٠) الفتح الكبير ج ٣ ص ٢٥١

المساومة •• ولا عليـــه بعد ذلك اذا هو خاطب الناس بما يعرفون •• وما يحبون ••

أى أن حرص الاسلام على الالتحام بالناس •• ومعايشتهم •• ومخاطبتهم بلغتهم لا يعنى التفريط فى أصول الاسلام ••

بل ان توجيهاته صارمة واضحة بضرورة الحذر •• والبعد عن كل ما من شأنه التأثير على سلامة العقيدة وقوتها وفاعليتها :

« عن ابن مسعود : أن على أبواب السلاطين فتنا كمبارك الابل •• والذى نفسى بيده : لا تصيبون من دنياهم شيئا الا أصابوا من دينكم مثله أو مثليـــه »[11] .

فاذا كنا مأمورين بالاتصال بولاة الأمر لندعوهم الى الله •• فلنكن على حذر ونحن نخطوا اليهم •• لأن ذلك مزلق الى شر قد يرتد أثره على الدعوة ذاتها •• وعلى ذكر استعماله صلى الله عليه وسلم نداء القوم : « واصباحاه » تأليفا وجمعا لهم كى يبلغهم دعوة ربه •• نذكر أيضا ما انتهى اليه الأمر حين انتصر المسلمون فى بدر •• وجاءه صلى الله عليـــه وسلم « عمير بن وهب » ليقتله •• قال عمير للرسول وأصحابه بعد أن فشلت خطته : « أنعموا صباحا ــ وهى تحيتهم فى الجاهلية ــ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله عن تحيتك • السلام تحية أهل الجنة »[12] .

ان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرجه فيرد تحيته فى وجهه •• معلنا أن للاسلام تحية أكرم منها ••

ان الداعية يخاطب كل الناس •• والناس مختلفون فى دوافعهم وأهدافهم •• فلابد أن يكون أعلم منهم •• يطل بثقافته الواسعة عليهم

---

(١١) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٣٠٢ عن الدعوة الاسلامية ــ د • صادق أمين •

(١٢) أسد الغابة ــ ترجمة عمير بن وهب الجمحى •

جميعا •• ويلاحقهم بمعرفته بطبائع النفوس •• التى تستمسك بأعرافها وتقاليدها الى حد الدفاع عنها ومهاجمة من يحاول النيل منها ••

ومن ثم فالحكمة تقتضى مسايرة هذه الطبيعة •• وملازمتها بالرفق واللين وصولا الى اعلان شعائر الاسلام • بعد أن تكون النفوس قد تهيأت للغراس الجديد • ولا يفوتنا أن نذكر أن الداعية حتى وهو يستخدم أساليب البيئة •• لا يتناولها حرفيا •• وكما هى فى واقع الناس •• بل انه ليتمرد على الخضوع لها •• ويختار منها القدر المحقق لغرضه •• بلا زيادة توحى بذوبانه فى قيم الناس الزائفة :

فعندما استعمل صلى الله عليه وسلم وسيلة اعلام القوم من فوق جبل الصفا « يا صباحاه » — وتلك كانت صيحة قومه لحظة الخطر — لم يتابعهم فى بقية ما اعتادوه فى مثل هذه الظروف : فلم يتجرد من ثيابه كما كانوا يتجردون •• ولكنه استعمل الطريقة فقط بالقدر اللازم لجمع الناس •• يعنى بمقدار •• والى حين •• وبذلك بقيت شخصيته حتى وهو يتلطف بهم متميزة •• محتفظة بخصائصها وأصولها • بريئة من وصمة التبعية والتقليد •

وفى سيرته صلى الله عليه وسلم مزيد يتضح به هذا المعنى •• معنى المرونة ومعايشة الواقع •• ومخاطبة الناس باللغة التى يفهمونها •• والأسلوب الذى يتناولون به حياتهم ••

فعندما قرر صلى الله عليه وسلم بعث « معاذ بن جبل » الى اليمن قال له : « انك تأتى قوما من أهل الكتاب • فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا اله الا الله • فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة • فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » ••

« ومعنى ذلك أنهم لو كانوا مجوسا أو ملاحدة • أو نحو ذلك • لكان عليه أن يدعوهم بطريقة أخرى »[13] •

---

(١٣) ثقافة الداعية للدكتور يوسف القرضاوى •

اذن لابد من مراعاة مقتضى الحال •• ومسايرة أساليب العصر •• شريطة أن تبقى أصول الاسلام وفروعه بعيدة عن حلبة الصراع •• والناس كما قدمنا ليسوا فى حاجة الى شريعة جديدة •• لكنهم فى حاجة الى عرض جديد •

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين •

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الايداع بدار الكتب : ٢٢٧١ / ١٩٨٦

مطابع دار التراث العربي
ت ٩٣٦١١٤٥ - القاهرة